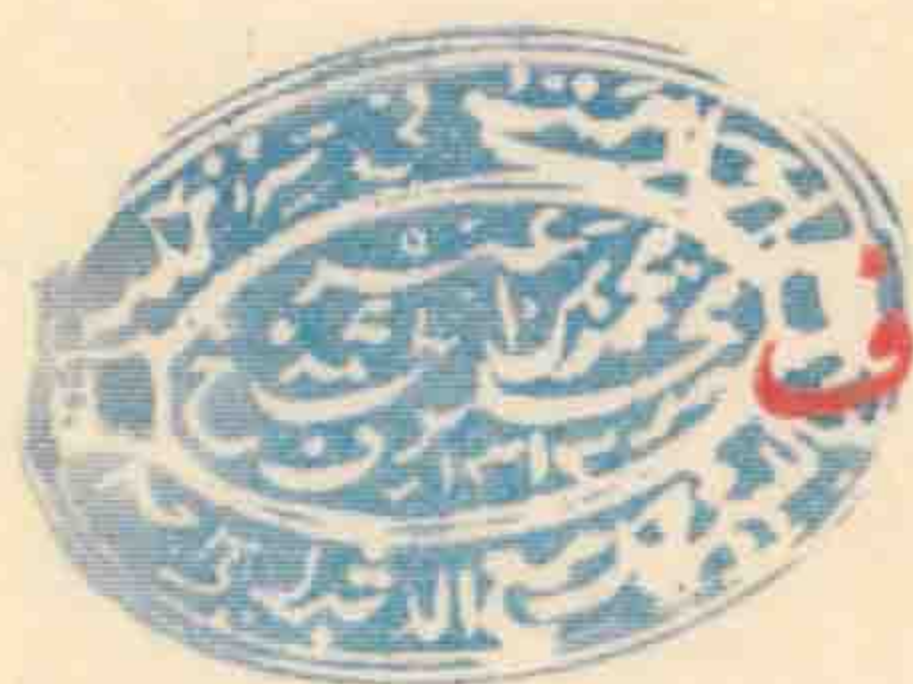


مؤاد
فينا

شجرة النور الزكية بجيزيني في طبقات المالكية

تأليف

العلامة الجليل الاستاذ الشيخ



محمد بن محمد مخلوف

القاهرة

١٣٤٩

حقوق الطبع محفوظة

كل نسخة غير محتومة بختم المؤلف تعتبر مسروقة ، ويؤخذ بالتمها ومشتريها وحائزها بما تقتضيه القوانين الجزرية

المطبعة السلفية - ومكتبتها



شجرة النور الزكية
بني هرون
في طبقات المالكية

التمتة

تأليف

العلامة الجليل الاستاذ الشيخ

محمد بن محمد مخلوف

القاهرة

١٣٥٠

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة البنّانية - مكتبتها



الائمة من آل البيت

ﷺ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

تمهيد

ذكرنا فيما تقدم ما يمكن ذكره من التراجم والمناقب لبعض الصحابة والتابعين ، والائمة المهتدين ، والعلماء المشهورين . وهم نحو الثمانية عشر مائة . من أعز فريق وأفضل فئة ، في طبقات على انترتيب الذي قصدناه ، والاسلوب الذي أصلناه . غير أن ما ذكرناه ، بالنسبة الى ما تركناه ، قليل وما لا يذكر كله لا يترك قليلا . وعين الرحمة ، وينبوع كل فضيلة وحكمة . هو واسطة عقدهم ، ومركز دائرة مجدهم ﷺ وكرم وعظم . وفي سلك تلك الطبقات الكثير من الصحابة والتابعين ، والقراء والمحدثين . والائمة المجتهدين . والعلماء المقلدين ، والصوفية والمتكلمين . والشعراء واللغويين والنحويين ، والقضاة والامراء والسلطين . والملوك العادلين . وهؤلاء السادات ، قاموا بالواجبات ، التي هي غاية الغايات . تهم المسلمين في دينهم ودنياهم ، وبها تحصل السعادة في آخرهم . فمنهم من ساس الامة وقادها ، وبين ما لها وما عليها واقادها . وجاب البلاد ، وهذب العباد . وأزال البغي والفساد ، واستوسع في الفتوحات . حتى دخل الناس في هذا الدين الحنيف أفواجا أفواجا من سائر الجهات ، ومنهم من حث على الجد والسكد والاستمرار على الاعمال ، بما يعود بالفائدة في الحال والمآل . وقد امن الله سبحانه على عبده في غير آية فقال ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « اعمل عمل امرئ يظن أن لا يموت أبدا ، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا » رواه البيهقي عن ابن عمر . ومنهم من ألف في الفن الذي جنح اليه ، وعول في التحصيل عليه . ففسر وقرر ووضح ، وبين ورجح . ورتب وهذب ونقح ، وعدل وجرح . واستعمل ما لديه من الوسائل ، وأيد ذلك بالبراهين والدلائل . والمنقول والمعقول ، وكل مفيد يمكن به الوصول . فأحاط بما ألف خبرا ، ودون علم الشريعة

نظما ونثرا . بأفصح عبارة ، وألطف اشارة . وفصيح اللسان منهم والقلم ، قام على المنابر في المحافل خطيباً في الامر الذي يهيم . فخطب الخطب البارعة المذكرة ، الجامعة النافعة المؤثرة . بأبلغ لسان ، وأبين بيان . ونسج الشعراء في قصائدهم الطنانة على هذا المنوال ، وأتوا بما يعتمد عليه في الاقوال والافعال . وبما تحمد عقباه في الخال والمآل . فهؤلاء الاعلام ، هداة الاسلام مهدوا للامة طرق ارشادها ، وما يفيد في أمر معاشها ومعادها . بما ذكر وبضرب الامثال والنصح بجوامع الحكم ، والمواعظ والرفائق والحكم . قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ واذكر ان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ كل ذلك باللغة العربية الفصيحة التي جاء بها الكتاب المبين قال جل جلاله وعز كماله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون ﴾ وحثوا على التعليم والتعلم ليقع التقه في الدين ويحصل التقدم . فالعلم وسيلة النفوس الشريفة الى المطالب المنيفة والسبيل في الآخرة الى السعادة وفي الدنيا الى النحلة عادة قال عز من قائل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب ﴾ وعن كميل بن زياد أن علياً رضي الله عنه قال يا كميل ان هذه القلوب أوعية فغيرها أوعاها للخير . الناس ثلاث : فعالم رباني ومتعلم في سبيل نجاه وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا منه الى ركن وثيق . العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة . العلم حاكم والمال محكوم عليه . العلم دين يدان به يكسب الانسان الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم احياء العلماء باقون ما بقي الدهر ، أشخاصهم مفقودة وأشباحهم في القلوب ، وجوده اه . من سراج الملوك . وفي هذا المعنى أنشد أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي :

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
 وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يظن من الاحياء وهو عديم
 وقال أيضاً كرم الله وجهه في بعض خطبه : اعلوا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل امرئ ما يحسن . وهو كلام لم يسبق به أحد فيه حث على طلب العلم ، ونظم ذلك بعضهم :

تلوم على أن رحمت للعلم طالباً وأجمع من علم الرواة فنونه
 في الأئمة دعنى اغالى بمهجتي قيمة كل الناس ما يحسنونه

وفي كتاب الاعتصام أن الله سبحانه شرف أهل العلم ورفع أقدارهم وعظم مقدارهم ودل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع بل قد اتفق الفضلاء على فضيلة العلم وأهله وانهم المستحقون شرف المنازل وهو مما لا ينازع فيه عاقل . واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة ولا علينا أسامحنا بعض الفرق في تعيين العلوم أعنى العلوم التي نبه الشارع على مزيبتها وفضيلتها أو لم يسامحنا بعد الاتفاق من الجميع على

الافضلية واثبات المزية وأيضاً فإن علوم الشريعة منها ما يجري مجرى الوسائل بالنسبة الى السعادة الآخروية ومنها ما يجري مجرى المقاصد والذي يجري مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك بلا نزاع بين الفقهاء أيضاً كعلم العربية بالنسبة الى علم الفقه فانه كالوسيلة فعلم الفقه أعلى . واذا ثبت هذا فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا اشكال ولا نزاع وانما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيداً بالاتصاف به فهو إذاً العلة في الثناء ولو لا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم ومن ذلك صار العلماء حكماً على الخلائق أجمعين قضاء وقتياً وارشاداً لانهم اتصفوا بالعلم الشرعي الذي هو حاكم بالاطلاق ثم قال بعد تفصيل وكلام طويل فعلى كل تقدير لا يتبع أحد من العلماء الا من هو متوجه نحو الشريعة قائم بحجتها حاكم باحكامها جملة وتفصيلاً وان من وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكماً ولا استقام أن يكون مقتدى به فيما حاد به عن صوب الشريعة البتة اهـ . وقال الامام الغزالي ان أحكام الحراحت والحدود والغرامات وفصل الخصومات وما أشبه ذلك انما هي قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم فالفقيه معلم السلطان ومرشده الى قانون سياسة الخلق وهذا في الحقيقة حراسة للدين والدنيا بها يتم الدين ، فالفقه الذي عند الامة الاسلامية انما هو القانون والقانون يحفظ البلاد والعباد ويحفظ هؤلاء يتم الدين . وقال الحسن البصري رضي الله عنه : العلماء سراج الازمنة فكل عالم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره ولو لا العلماء لكان الناس في عمى كالبهائم ولو لا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً والله در عبد الله بن المبارك حيث قال :

لولا الخلافة ما قامت لنا سبل وكان أضعفنا نهياً لأقوانا

وكما أن الله سبحانه شرف العلم وأهله شرف الحكام العادلين . في الصحيح « سبعة يظلمهم الله بعرضه يوم لا ظل الا ظله امام عادل » والوعيد الذي جاء في حقهم انما هو في حق غير العادل في الجامع الصغير عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحب الناس الى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً امام عادل وأبغض الناس الى الله تعالى وأبعدهم منه امام جائر » رواه الترمذي والامام أحمد في مسنده . وقال سفيان الثوري : صنفان اذا صلحا صلحت الأمة واذا فسدا فسدت الأمة الملوك والعلماء . والملك العادل هو الذي يقضى بكتاب الله عز وجل ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله . في الجامع الصغير عن معقل بن يسار « ايما وال ولي شيئاً من أمر أمي فلم ينصح لهم ويجتهد كنيصيته وجهده لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في النار » رواه الطبراني في الكبير . وفي سراج الملوك : العدل النبوي بأن يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم أولياء الله تعالى

والقائمون بأمر الله والحافظون لحدوده والناصحون لعباده . روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « الدين النصيحة ثلاثا . قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وأن يتخذ العلماء شعاراً والصلحين دناراً وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين أن تقوم عمده ويطول أمده . ثم قال : ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عن سواهم . قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وفيه استمالة لقلوب الرعية وخلص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته ، فولجب على السلطان أن لا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكماً الا بمشاورتهم لانه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف ، وأقل الواجب على السلطان أن ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته ، ولم يأمن سطوته واذا امتثل أو امره وازدجر من زواجه حل منه محل الرضا . فهذا طريق اقامة العدل الشرعي والسياسة الاسلامية الجامعة لوجود المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب الممبدة لاقامة الدنيا والدين ، فكما أن الملك الحازم لا يتم له حزمه الا بمشاورة الوزراء الاخير كذلك لا يتم له عدله الا باستمالة العلماء الابرار وفيه قال الله تعالى « ولينصرن الله من ينصره ان الله لتموي عزيز » هاته الآية في السلاطين على ما اقتضته من السياسة العامة التي فيها ابقاء الممالك وثبوت الدول ثم سمى المنصورين وأوضح شرائع النصر فقتل « الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » فضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم كما ترى ، فمن تضعفت قواعدهم وانتقض عليهم من أطراف ممالكهم أو ظهر عليهم عدو أو باغى فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور فليلجأوا الى الله تعالى باصلاح ما بينه وبينهم باقامة ميزان القسط الذي شرعه الله لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السموات والارض واظهار شرائع الدين ونصرة المظلوم والأخذ على الظالم وكف يد القوى عن الضعيف روى أن النبي ﷺ قال « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وفيه وينبغي للسلطان أن يولي الافضل فالأفضل وان كان على خلاف ذلك كان ساء النظم ، وينبغي أن يكون الاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأي والاصالة والشرف والكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصاً . انتهى

واعلم أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه السياسي والديني وهي في هاته الأمة دينية نافعة في الدنيا والآخرة وتصرفه الديني مختص بخطوط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الاسلاميين . منها الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة وهي بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين^(١) وصارت بعد ذلك ملكاً دنيواً بحيث اذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الدين

(١) قوله عهد الخلفاء الراشدين : اصطلاح المؤرخون على تسمية الدولة الاولى من دول

الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة

وهي الصلاة بالناس التي استخلف بها رسول الله ﷺ أبا بكر فكان الخليفة على الأمة في الدين كما صار أميراً عليها في أمور سياستها في الدنيا . وعقد ولي الدين ابن خلدون فصلاً في معنى الخلافة والامامة قال فيه : اذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله سبحانه وتعالى يقول « أُنحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » فالمقصود منهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، فجاءت الشرائع تحملهم ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي في الاجتماع الانساني فأجرتة على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع . وقال في فصل الخطاط الدينية : تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع يتصرف في الامرين أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وهو ضروري للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان أهملت اه

اذا علمت ذلك وظهر لك ما هناك علمت علم اليقين أن بين القضاة والعلماء والملوك والامراء وأهل الرئاسة وأرباب السياسة الارتباط الشرعي الذي هو في سياسة الملك مرعي وقد ذكرنا في المقصد بعض أعيان الفريق الاول وبقينا ذكر البعض من الفريق الثاني الذين عليهم في ادارة الملك المعول في تنمة أذكر فيها أئمة أعيان الاعيان مرجوعا اليهم في كل مهمة حيث كانوا رجال علم وأدب وهم سامية كاسد بن الفرات وسحنون وسعدون الخولاني وأضرابهم من عظماء الرجال الذين تركوا ثناء عاطراً وذكرًا خالداً وهم في الحقيقة كالوزراء لمعاصريهم من الملوك والامراء منتخبون من طبقات المقصد على مقتضى ترتيبها بالطف إشارة وأفصح عبارة تمهيداً لذكر معاصري كل طبقة منها من الملوك والامراء في قطر افريقية وذكرهم كذلك خلاصة نقية وتمهيداً لتنبهات مهمة جديدة بالاعتبار عند ذوى الانظار يعلم منها سيرة السلف وما آل اليه أمر الخلف من زمن البعثة الى هذا الوقت ، فبعضهم ارتكب ما يؤدي الى الخسران والخذلان والمقت وبعضهم مستور الحال وبعضهم جمع الفضائل ونسجها على أحسن منوال وهذا في الحقيقة من الطراز الاول وعليه في أمور الدين والدنيا والمعول وتعلم ما حصل لتلك الاجيال في القرون الخالية من الحوادث والاحوال كبسط النعم وسلبها وما حصل في ذلك من الاطوار والادوار وكيفية انتشار مذهب مالك بأفريقية وغيرها من الاقطار والامصار وانتشار العلوم واتساعها وانحطاطها في بعض الجهات وانقطاعها ، ومن المعلوم أن العلوم والمعارف لاتنمو وتتسع والتقلب في النعم لايسمو ويرتفع إلا بعد الامن والاطمئنان ومد رواق الراحة والعافية وما يؤدي الى العمران وجمع الكرامة ويسط العدل وارتكاب الفضائل واجتناب الرذائل وعدم الغفلة عن الله وما هو عنا بغافل

فائدة

في خاتمة بداية المجتهد الاشارة الى تقسيم الفضائل ونصه ببعض اختصار الأحكام الشرعية تنقسم الى قسمين : قسم يقضى به الحكم وجل ما ذكرناه في هذا الكتاب داخل في هذا القسم . وقسم لا يقضى به الحكم وهذا أكثره داخل في المندوب اليه ، مثل رد السلام وتشميت العاطس وغير ذلك . وقد رأينا أن نذكر من هذا الجنس المشهور منه ان شاء الله .

وينبغي قبل هذا أن تعلم ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية . فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره وفي هذا الجنس تدخل العبادات وهذه هي السنن الكرامية . ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي تسمى عفة ، وهذه صنفان السنن الواردة في المطعم والمشرب والسنن الواردة في المناكح . ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكف عن الجور . فهذه هي أجناس السنن التي تقتضى العدل في الأموال والأبدان . وفي هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والعقوبات ، لأن هذه كلها إنما يطلب بها العدل . ومنها السنن الواردة في الاعراض . ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها وهي التي يقصد بها طلب الفضيلة التي تسمى السخاء ، وتجنب الرذيلة التي تسمى البخل . والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه ، وتدخل أيضاً في باب الاشتراك في الأموال ، وكذلك الأمر في الصدقات . ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العملية والعلمية ، وهي المعبر عنها بالرياسة . ولذا أُلزم أيضاً أن يكون سنن الائمة والقوام بالدين . ومن السنن المهمة حين الاجتماع السنن الواردة في المحبة والبغضة . والتعاون على اقامة هذه السنن وهو الذي يسمى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وهي المحبة والبغضة أي الدينية التي هي اما من قبل الاخلال بهذه السنن واما من قبل سوء المعتقد في الشريعة . وأكثر ما يذكر الفقهاء في الجوامع من كتبهم ما شد عن هذه الأجناس الأربعة التي هي فضيلة العفة وفضيلة العدل وفضيلة الشجاعة وفضيلة السخاء ، والعبادة التي هي كائشروط في تثبيت هذه الفضائل اه

الطبقة الاولى

منحصرة فيمن أنزل عليه القرآن وجاء بالشريعة المطهرة صلواته وكرم وعظم

اعلم انه صلواته أرسل رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً علي

رأس الاربعين سنة^(١) وأول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . وأول ما نزل عليه من القرآن « اقرأ باسم ربك » كما في الصحيح قال الأومى وعليه أكثر الأئمة ثم فتر الوحي ثلاث سنين ثم نزل عليه القرآن وحى وتتابع منجما بحسب الوقائع في ظرف عشرين سنة سمعه منه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعملوا به وبلغوه لقوله صلى الله عليه وسلم « فليبلغ الشاهد الغائب » وكذلك أخذوا عنه السنن التي منها ولم ينتقل صلى الله عليه وسلم حتى ترك الدين تام الأصول . روى الحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض » . وروى أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح ولفظه : « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » . وفي جامع المعيار عن الامام المازرى : « القرآن قاعدة الاسلام وقطب الأحكام ومفزع أهل الملة ووزرهم وآية رسولهم ودليل صدق دينهم » اهـ والقرآن فيه تبيان كل شيء ، جامع لكل فضيلة وناه عن كل رذيلة ، يدعو الى الاخاء والاتحاد والاجتماع والعدل والاحسان واجتناب البغي والفساد ، طأطأت الرؤوس لسلطانه ، وانصاع أبلغ العرب لبلاغته وبيانه ، ونهض به الاسلام نهضة لم تعهد ، واستعذبت به النفوس والقلوب ، وحصل به غاية المطوب . فى أرائل تبصرة ابن فرحون ان الله تعالى أكل لتبنيه صلى الله عليه وسلم دينه القويم وهدى به من يشاء الى الصراط المستقيم ، وأسس شرعه المطهر على أحسن الطرائق وأحكم القواعد ، وشيده بالتقوى والعدل وجلب المصالح ودرء المفاسد ، وأيده

(١) قوله على رأس الاربعين أى بينما كان يتعبد بحراء حسب عادته اذ جاء الوحي وذلك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده عليه الصلاة والسلام فىكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر وأياما والى ذلك الاشارة فى قوله تعالى « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » . والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله علماء لاول يوم نزل فيه القرآن وهى التى قال فيها الكتاب « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وهو السبب فى تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لأنه الشهر الذى كان يتعبد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بحراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وجعلت نهايته عيداً تذكراً لذلك الأمر العظيم

من محاضرات الخضرى باختصار

بالأدلة الموضحة للحق وأسبابه المرشدة الى ائصال الحق لأربابه ، وحماه بالسياسة الجارية على سنن الحق وصوابه . ولذا قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » . فالمراد بالكلمات القرآن العظيم تمت دلائله وحججه وأوامره ونواهيه وأحكامه وبشارته وانذاره قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » . وفيها في طالعة القسم الثالث : السياسة نوعان ، سياسة ظالمة الشرع بجرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم وترفع كثيراً من المظالم وترد أهل الفساد ويتوصل بها الى المقاصد الشرعية . فالشريعة يجب المصير اليها والاعتماد في اظهار الحق عليها وهي باب واسع تفضل فيه الافهام وتنزل فيه الاقدام واهماله يضيع الحقوق ويبطل الحدود ويجري أهل الفساد ويعين أهل العناد والتوسع فيه يفتح باب المظالم الشنيعة ويوجب سفك الدماء وأخذ الأموال بغير الشريعة ولذا سلكت فيه طائفة مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب الا فيما قل ظنا منهم أن تعاطى ذلك مناف لقواعد الشريعة فسدوا من طرق الحق سبيلا واضحة وعدلوا الى طريق العناد الفاضحة لأن في انكار السياسة الشرعية رد النصوص الشرعية وتغليظاً للخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم . وطائفة سلكت في هذا الباب مسلك الافراط فتعدوا حدود الله تعالى وخرجوا عن حدود الشرع الى أنواع الظلم والبدع والسياسة وتوهوا ان السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصصلحة الأمة وهو جهل وغلط فاحش . قال عز من قائل : « اليوم أكملت لكم دينكم » فدخل في هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنيوية . وقال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي » وطائفة توسطت وسلكت مسلك الحق وجمعوا بين السياسة والشرع فغمصوا الباطل ودحضوه ونصفوا الشرع ونصروه . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . انتهى وفي الاعتصام ان الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله صلى الله عليه وسلم فيها تبيان كل شئ يحتاج اليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها وتعباداتهم التي طوقوها في أعناقهم ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى حيث قال « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » والمراد بالكمال بحسب ما يحتاج اليه من القواعد الكلية التي يجري عليها مالا نهاية له من النوازل والجزئيات انتهى

وفي أوائل بداية المجتهد ان الطرق التي تلتقت منها الاحكام عن النبي صلى الله عليه وسلم بالجنس ثلاثة اما لفظ واما فعل واما اقرار . وأما ماسكت عنه الشارع من الأحكام فقال الجمهور ان طريق الوقوف عليه هو القياس . وقال أهل الظاهر القياس في الشرع باطل وماسكت عنه الشارع فلا حكم له ، ودليل العقل يشهد بقبوله وذلك أن الوقائع بين أشخاص الأناشي غير متناهية ^(١) والنصوص والافعال والاقراءات متناهية ومحال أن يقابل مالا يتناهى بها يتناهى اهـ . وزبدة

(١) قوله غير متناهية وكذلك جهات الاستدلال غير متناهية

القول أن القانون الاسلامي هو القرآن العظيم وسنة نبيه الكريم . قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وقال « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ثم استنباط المجتهدين من الكتاب والسنة ، وقد اعتنى المجتهدون بحفظ مقاصد الشريعة في الخلق لانها جاءت لخراج المكاف عن داعية هواه في جميع الاحوال من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو ضروري للاجتماع الانساني فاجرتة على قانون مستقيم ومنهاج من الدين قويم في شروط صاحبه ، وما يجب عليه من العدل والدين والامانة واتباع المصلحة وغير ذلك مما هو مقرر في كتب الدين ومن له مساس بالفقه لا ينبغي عليه أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الاحوال والازمان قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . في روح المعاني عند قوله عز من قائل « ان الذين يحادون الله ورسوله » أي يعادونهما ويشاققونهما . قال ناصر الدين البيضاوي : ويضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله ﷺ . وقال شيخ الاسلام سعد الله جلي : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وامراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع ومحوها القانون . قال شهاب الدين الخفاجي بعد نقابه ما ذكر وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين رسالة في كفر من يقول يعمل بالقانون والشرع اذا قابل بينهما وقد قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » وقد وصل الدين الى رتبة من الكمال لا يقبل التكميل واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ولكن أين من يعقل انتهى . وليتني رأيت هاته الرسالة ووقفت على ما فيها فان اطلاق القول بالكفر مشكل عندي فتأمل ، ثم انه لا شبهة في أنه لا بأس بالقوانين السياسية اذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يحسن بها الانتظام ويصلح أمر الخاص والعام ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاصي وجنایات لم ينص الشارع فيها على حد معين بل فوض الامر في ذلك لرأى الامام فليس ذلك من المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ في شيء بل فيه استيفاء حق الله تعالى على أتم وجه لما فيه من الزجر على المعاصي وهو أمر مهم للشارع عليه الصلاة والسلام ويرشد اليه ما في تحفة المحتاج أن يستوفي التعزير اذا عفا صاحب الحق لأن الساقط بالعفو هو حق الآدمي والذي يستوفيه الامام هو حق الله تعالى للمصلحة وفي كتاب الخراج لأن يوسف اشارة الى ذلك أيضاً ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكمة الله تعالى خصوصاً أو عموماً ويرشد لهذا عدم النكير على أحد من المجتهدين اذا قال بشيء لم يكن منصوباً عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس باقسامه نعم القانون الذي يكون وراء ذلك فان كان مصادماً لما نطقت به الشريعة الغراء زائفاً عن سنن المحجة البيضاء فيه ما فيه كما لا ينبغي على العارف النبيه والآية نزلت في كفار قريشا

صلة بها

ان القرآن هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة مع الابانة عن فضل المعنى

الذى به باين سائر الكلام

اعلم أن فى آى القرآن العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن اذ كر ، والبيان لمن كان له قلب أو
الذى السمع وهو شهيد . فى تفسير الامام المفسر المجتهد أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى عند
تفسير الفاتحة ما نصه :

مسألة يسأل عنها أهل الاحاد الطاعنون فى القرآن ان سألنا منهم سائل فقال انك قد قدمت
فى أول كتابك هذا فى وصف البيان بأن أعلاه درجة وأشرفه مرتبة أبلغه فى الابانة عن
حاجة المبين به عن نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه . وقلت مع ذلك ان أولى
البيان بأن يكون كذلك كلام الله جل ثناؤه بفضله على سائر الكلام وبارتفاع درجته على أعلى
درجات البيان . فما الوجه اذ كان الأمر على ما وصفت فى اطالة الكلام بمثل سورة أم القرآن
بسبع آيات وقد حوت معانى جميعها منها آيتان وذلك قوله « ملك يوم الدين اياك نعبدواياك
نستعين » اذ كان لاشك ان من عرف « ملك يوم الدين » فقد عرفه باسمائه الحسنى وصفاته
المثلى وان من كان لله مطيعاً فلا شك انه لسبيل من أنعم الله عليه فى دينه متبع ، وعن سبيل من
غضب عليه وضل معتدل . فما فى زيادة الآيات الخمس الباقية من الحكمة التى لم تحوها الآيتان
اللتان ذكرنا . قيل له ان الله تعالى جمع لنبينا محمد ﷺ ولأئمة بما أنزل اليه من كتابه معانى
لم يجمعهن بكتاب أنزله الى نبي قبله ولا لأئمة من الامم قبلهم وذلك ان كل كتاب أنزله جل
ذكره على نبي من أنبيائه قبله فانما أنزله ببعض المعانى التى يحوى جميعها كتابه الذى أنزله الى
نبينا محمد ﷺ كالتوراة التى هى مواعظ وتفصيل والزبور الذى هو تحميد وتمجيد والانجيل
الذى هو مواعظ وتذكير لا معجزة فى واحد منها تشهد لمن أنزل اليه بالتصديق والكتاب
الذى أنزل على نبينا محمد ﷺ يحوى معانى ذلك كله ويزيد عليه كثيراً من المعانى التى
سائر الكتب غيره منها خال وقد قدمنا ذكرها فيما مضى من هذا الكتاب . ومن أشرف تلك
المعانى التى فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع
الذى عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء ، وكلت عن وصف شكل بعضه البلغاء ،
وتحيرت فى تأليفه الشعراء ، وتبلدت قصوراً عن أن تأتى بمثله لديه افهام الفهماء . فلم يجدوا
له الا التسليم والاقرار بانه من عند الواحد القهار مع ما يحوى مع ذلك من المعانى التى هى ترغيب
وترهيب وأمر وزجر وقصص وجدل ومثل وما أشبه ذلك من المعانى التى لم تجتمع فى كتاب أنزل

الى الارض من السماء فهما يكن فيه من اطالة على نحو ما في أم القرآن فلما وصفت قبل من ان الله جل ذكره أراد ان يجمع بوصفه العجيب ونظمه الغريب المنعدل على أوزان الاشعار وسجع الكهان وخطب الخطباء ورسائل البلغاء العاجز عن وصف مثله جميع الانام وعن نظم نظيره كل العباد الدلالة على نبوة نبينا محمد ﷺ وبما فيه من توحيد وتمجيد وثناء عليه تنبيه للعباد على عظمتهم وسلطانهم وقدرته وعظم مملكته ليدركوه بالآلاء ويحمدوه على نعمائه فيستحقوا به منه المزيد ويستوجبوا عليه الثواب الجزيل وبما فيه من نعت من أنعم عليه بمعرفته وتفضل عليه بتوفيقه لطاعته تعريف عباده ان كل ما بهم من نعمة في دينهم ودنياهم فمنه ليصرفوا رغبتهم اليه ويبتغوا حاجاتهم من عنده دون ما سواه من الآلهة والانداد وبما فيه من ذكره ما حل بمن عصاه من مثلاته وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ترهيب عباده من ركوب معاصيه والتعرض للملاقب لهم به من سخطه فيسلك بهم في النكال والنقمة سبيل من ركب ذلك من الهلاك فذلك وجه اطالة البيان في سورة أم القرآن وفيما كان نظيراً لها من سائر سور القرآن وذلك هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة . انتهى

وقد وصف البيان ، في أول كتابه بأبين بيان . ومحل الحاجة منه :

لا شك ان أعلى منازل البيان درجة وأسمى مراتبه مرتبة أبلغه في حاجة المبين نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه فان تجاوز ذلك المقدار وارتفع عن وسع الانام وعجز عن أن يأتي بمثله جميع العباد كان حجة وعلماً لرسول الواحد القهار كما كان حجة وعلماً لها احياء الموتى وبراء الأبرص وذوى العمى بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طب المتطبين وأرفع مراتب علاج المعالجين الى ما يعجز عنه جميع العالمين وكالذى كان لها حجة وعلماً قطع مسافة شهرين في الليلة الواحدة بارتفاع ذلك عن وسع الانام وتعذر مثله على جميع العباد وان كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين واليسير منه فاعلين فاذا كان ما وصفنا من ذلك كالذى وصفنا فين ان لا بيان أبين ولا حكمة أبلغ ولا منطق أعلى ولا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوما في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة وقيل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة كل خطيب منهم وبلغ وشاعر منهم وفصيح وكل ذى سجع وكهانة فسفه أحلامهم وقصر معقولهم وتبرأ من دينهم ودعا جميعهم الى اتباعه والقبول منه والتصديق به والاقرار بانه رسول اليهم من ربهم وأخبرهم ان دلالاته على صدق مقالته وحجته على حقيقة نبوته ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان بلسان مثل ألسنتهم ومنطق موافقة معانيه معانى منطقهم ثم أنبأ جميعهم انهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزوا ومن المقدره عليه نقصة فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق وشهدوا على أنفسهم بالنقص . انتهى من تفسير أبي جعفر بن جرير الطبرى

وفي خلاصة تاريخ العرب أشهر معجزاته ﷺ القرآن الكريم لاشتهار البلاغة والفصاحة في زمنه عند قريش الذين كانوا يفتخرون بحسن الكلام ويتغالون فيه كما كان احياء الموتى

لعيسى والشعبان لموسى زمن اشتهار السحر والنفس الطيب لداود زمن اشتهار الموسيقى وتلا
 ﷺ على اعباد الاصنام اول سورة فصلت وبلغ « قل ائمنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في
 يومين ويجعلون له أنداداً » الى أن قال « ولكم فيها ماتدعون نزلاً من غفور رحيم » وكان
 من أراد الله هدايته يسمع القرآن فيسلم كعمر رضى الله عنه فإنه توجه بسيفه لقتل النبي ﷺ
 فقيل له لا تفعل لئلا يقتلك بنو عبد مناف ولكن اردد خباباً واختك وابن عمك سعيد بن زيد
 فانهم أسلموا فقصدتهم وهم يتلون سورة طه فسكتوا فسألهم عما سمعوا فأنكروه فضرب أخته
 فشجها قائلاً أريني ما كنتم تقرأونه وخافت على الصحيفة فعاهدها على أن يردّها اليها فدفعتها
 وقرأها وقال ما أحسن هذا وأكرمه ، ثم توجه الى النبي ﷺ فأسلم اه

وفيهما بعد نقله آياً من القرآن في الآداب مانصه : ما فرط القرآن في شيء من الآداب التي
 قوامها الحكمة ورأسها العدل والاحسان وغايتها قصد سبيل الحق والصد عن محجة الضلالة
 والخروج من ظلمات الرذائل الى نور الفضائل والتطهير من شوائب النقص والتحلل بزينة
 الكمال وما قصدنا بإيراد ما سلف الا أن يكون لهذه الامة الشريفة دليل تقديس غايتها وحرمة
 مذهبها ورفع حكمتها وموافقها لما نزل من قبل على الرسل الكرام فبذلك بهتدى البصير الى
 فضل القرآن المجيد اذ جمع فأوعى ما أوتيه النبيون من قبل من البينات . انتهى من خلاصة
 تاريخ العرب للعالم المنصف سيديو وقصة اسلام عمر رضى الله عنه سنذكرها في خلافته

درة

اعلم انه جرت عادة الله أن أوامره لا تخلو من حكمة فان ظهرت فهي معقولة المعنى والا فتعبد
 وذلك لانا استقرأنا عادة الله تعالى فوجدناها جالبة للمصالح دارئة للمفاسد ولذلك قال ابن عباس
 رضى الله عنهما « اذا سمعت نداء الله فهو اتما يدعوك لخير أو يصرفك عن شر كما يجاب الزكاة
 والنققات لسد الخلات وأرش جبر الجنائيات المتلفات ونحرىم القتل والزنا والسكر والسرقه
 والقذف صونا للنفوس والانساب والعقول والأموال والاعراض عن المفسدات » . اه حطاب

جوهرة

في الاعتصام ان الله عز وجل أنزل القرآن عربياً لا عجمية فيه بمعنى انه جار في الفاظه ومعانيه
 وأساليبه على لسان العرب قال تعالى : « انا جعلناه قرآناً عربياً » وقال : « قرآناً عربياً غير
 ذى عوج » وقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى
 مبين » وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد وهو محمد بن عبد الله ﷺ
 وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً يجري الخطاب به على معتادهم في لسانهم فليس فيه شيء من

الالفاظ والمعاني الا وهو جار على ما اعتادوه ولم يدخلاه شيء بل نفي عنه أن يكون فيه شيء عجمي
 فقال تعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان
 عربي مبين » وقال « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » هذا
 وان كان بعث للناس كافة فان الله جعل جميع الامم وعامة الالسنة في هذا الامر تبعاً للسان
 العرب واذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى الا من الطريق الذي نزله عليه وهو اعتبار
 الالفاظ ومعانيها وأساليبها اه

فريدة

في الاعتصام أن الله بعث النبي محمداً ﷺ رحمة للعالمين حسبما أخبر في كتابه ، وقد كنا
 قبل طلوع ذلك النور الاعظم لا نبتدى سبيلا ولا نعرف من مصالحنا الدنياوية إلا قليلا على غير
 كمال ولا من مصالحنا الأخروية كثيراً ولا قليلا ، بل كان كل أحد يركب هواه وان كان فيه
 ما فيه ويطرح هوى غيره فلا يلتفت اليه فلا يزال الاختلاف بينهم والفساد فيهم يخص ويعم
 حتى بعث الله نبيه ﷺ لزوال الريب والالتباس وارتفاع الخلاف بين الناس كما قال تعالى
 « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين - الى قوله - فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من
 الحق باذنه » وقوله « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا » ولم يكن حاكم بينهم فيما اختلفوا
 فيه إلا وقد جاءهم بما ينظم به شملهم ويجمع به كلمهم وذلك راجع الى الجهة التي من أجلها اختلفوا
 وهو مما يعود عليهم بالصلاح في العاجل والآجل ويدبراً عنهم الفساد على الاطلاق فاحتفظت
 الأديان والدماء والعقول والانساب والاموال من طريق يعرف مأخذها العلماء وذلك القرآن
 العظيم بل المنزل على النبي ﷺ قولا وعملا وقراراً ، ولم يردوا الى تدبير أنفسهم للعلم بأنهم
 لا يستطيعون ذلك ولا يستقلون بدرك مصالحهم ولا تدبير أنفسهم ، فاذا ترك المبتدع هذه
 المهمات العظيمة والعطايا الجزيلة وأخذ في استصلاح نفسه ودنياه بما لم يجعل الشرع عليه دليلا
 فكيف له بالعصمة والدخول تحت هذه الرحمة وقد حل يده من حبل العصمة الى تدبير نفسه
 فهو حقيق بالبعد عن الرحمة . قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » بعد قوله
 « واتقوا الله حق تقاته » فاشعر أن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله حقاً وأن ما سوى ذلك
 تفرقة لقوله « ولا تفرقوا » والفرقة من أحسن أوصاف المبتدعة لانه خرج عن حكم الله وبان
 جماعة الاسلام . روى عبد الله بن حميد عن عبد الله : أن حبل الله الجماعة . وعن قتادة : حبل
 الله المتين هو القرآن وسننه وعهده الى عبادة الذي أمر أن يعتصم بما فيه من الخير والثقة وأن
 يتمسكوا به ويعتصموا بحبله ومن ذلك قوله تعالى « واعتصموا بالله هو مولاكم » اه . وفيه لولا أن
 من الله على الخلق ببعثة الانبياء لم تستقم لهم حياة ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم وهذا
 معلوم بالنظر في أخبار الاولين والآخرين . وفيه أيضاً الشريعة موضوعة لاجراج المكلف

عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله ، وهي حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم مطيعهم وعاصيهم برهم وفاجرهم بل ان المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها ، فانت ترى أن نبينا محمداً ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته مما اختص به دون أمته أو كان عاماله ولأتمته كقوله تعالى « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك - الى قوله - خالصة لك من دون المؤمنين » الى سائر التكاليف التي وردت على كل مكلف والنبي فيهم فالشريعة هي الحاكمة على الاطلاق والعموم عليه وعلى جميع المرسلين وهي الطريق الموصل والهادي الاعظم . ألا ترى الى قوله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداه الله بالكتاب والايمان ثم من اتبعه فيه والكتاب هو الهادي والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى والخلق مهتدون بالجميع . ولما استنار قلبه وجوارحه عليه السلام وظاهره وباطنه بنور الحق علماً وعملاً صار هو الهادي الأول لهذه الامة والمرشد الاعظم حيث خصه الله دون الخلق بانزال ذلك النور عليه واصطفاه من جملة من كان مثله في الخلقة البشرية اصطفاه اولياً لا من جهة كونه بشراً عاقلاً مثلاً لا شراً كما مع غيره في هذه الاوصاف ولا لكونه من قريش مثلاً دنو غيرهم وإلا لزم ذلك في كل قريش ، ولا لكونه من بني عبد المطلب ولا لكونه عربياً ولا لغير ذلك بل من جهة اختصاصه بالوحي الذي استنار به قلبه وجوارحه فصار خلقه القرآن حتى نزل فيه « وانك لعلى خلق عظيم » وانما كان خلقه القرآن لأنه حكم الوحي على نفسه حتى صار في علمه وعمله على وقفه فكان للوحي موافقاً قائلاً مدعياً ملبياً نداه واقفاً عند حكمه ، وهذه الخاصة كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به إذ قد جاء بالأمر وهو مؤتمر وبالنهى وهو منته وبالوعظ وهو متعظ وبالتخويف وهو أول الخائفين وبالترجية وهو سائق دابة الراجين ، وحقيقة ذلك كله جعله الشريعة المنزلة عليه حجة حاكمة عليه ودلالة له على الصراط المستقيم الذي سار عليه ﷺ ولذا صار عبداً لله حقاً وهو أشرف اسم تسمى به العباد . قال تعالى « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام » « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده » « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » وما أشبه ذلك من الآيات التي وقع مدحه فيها بصفة العبودية ، واذا كان ذلك فسائر الخلق حريون بأن تكون الشريعة حاكمة عليهم ومناراً يهتدون بها الى الحق وشرفهم انما يثبت بحسب ما اتصفوا به من الدخول تحت أحكامها والعمل بها قولاً واعتقاداً وعملاً لا بحسب عقولهم فقط ولا بحسب شرفهم في قومهم فقط لان الله تعالى انما أثبت الشرف بالتقوى لا غير لقوله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فمن كان أشد محافظة على اتباع الشريعة فهو أولى بالشرف ومن كان دون ذلك لم يكن أن يبلغ في الشرف مبلغ الأعلى في اتباعها . فالشرف إذاً انما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشريعة اه ببعض اختصار

خلاصة

في العلوم التي تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته

اعلم أن العرب في صدر الاسلام حفظوا القرآن وليس في أيديهم من الكتب غيره يقرأونه ويتعظون به ويتحاكمون اليه وقد عجبوا بأسلوبه ودهشوا ببلاغته لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ونظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار ، فأصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه ، لانه قاعدة الدنيا والدين وبه تتأيد السلطة والخلافة وهو أول كتاب أخذوا في قراءته وحفظه

القراءات السبع

واختلفوا في قراءة بعض آياته . فتولدت القراءات السبع نسبة الى سبعة من القراء - تقدم ذكرهم في المقدمة - وتفرع بتوالي الاعصر الى سبعة علوم هي : علم الشواذ ، وعلم مخارج الحروف ، ومخارج الالفاظ ، والوقوف ، وعلل القرآن ، وكتابة القرآن ، وآداب كتابة المصحف . وفي كل من هذه العلوم قواعد وكتب ، وأكثر العلوم الاسلامية نشأت من القرآن أو تولدت خدمة له ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه رأساً أو ضمناً

النحو

أول شيء احتاجوا اليه في ضبط القرآن النحو ، وكان الباعث على التعجيل في ضبطه وضبط قواعد ما شاهدوه من لحن الناس في قراءة القرآن بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، وقد نمت قواعدهم ولم يتم القرن الثاني للهجرة أي نضج في قرن وبعض القرن ، واليونان لم يتم علم النحو عندهم الا بعد انشاء دولتهم بعدة قرون ، ولم يضع الرومان نحو اللغة اللاتينية الا بعد قيام دولتهم بستة قرون . ويفتقر علم النحو في تأييد قواعد الى معرفة كلام العرب وأساليبهم

التفسير وعلم الادب

ولما أخذ العلماء في تفسير القرآن احتاجوا أيضاً الى ضبط معاني الفاظه وتفهم أساليب عبارته فجزم ذلك الى البحث في أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم وهو علم الادب

المشتمل على الفنون الادبية والعلوم المتعلقة بالالفاظ وهي تزيد على العشرين علماً كالنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والعروض، والفضل في تعجيل ظهورها للقرآن

الحديث

واحتاجوا في تفسير القرآن أيضاً الى تفهم الحديث لانهم كانوا اذا أشكل عليهم فهم آية أو اختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بأقوال النبي ﷺ على استيضاحها ، فلما تفرق الصحابة في الارض تفرقت الاحاديث معهم فاشتغل جماعة من المفكرين في جمعها وتدوينها وتولد من ذلك العلوم المتعلقة بالحديث وهي التي مرياتها بخاتمة المقصد . والتفسير نفسه لما نضج تفرع الى علوم كثيرة مذكورة في مفتاح السعادة وهي تزيد على السبعين علماً ولكل منها علماء ومصنفات ومناظرات ، وكان للعلوم اللغوية ارتباط بالعلوم الشرعية ، لا يستطيع الطالب اتقان الواحدة ان لم يتقن الاخرى

الفقه

ولما صار الاسلام دولة احتاج امرأؤه الى ما يتقنون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فكان معولهم على القرآن والحديث فاستنبطوا منها الشريعة وأحكامها وهو الفقه بفروعه المشهورة علم النظر والمناظرة والجدل والفرائض والشروط والقضاء والتشريع والفتاوى ونحوها

السير والتاريخ

ولما اشتغل المسلمون في جمع القرآن وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بها أو قيلت فيها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية ودونوها واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه والنحو والادب الى البحث في أسانيدھا والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرهم ذلك الى النظر في الرواة وتراجهم وسائر أحوالهم وقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحفاظ أو النسابين أو غيرهم . وكان ذلك أساً لعلم التاريخ وزد على ذلك ما في القرآن من الآيات الخاتمة على الاشتغال بالتاريخ أو بالاخبار للعبرة والموعظة كقوله جل ذكره « لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب »

الجغرافيا

ومن الاسباب التي ساعدت على وضع علم الجغرافيا وتقويم البلدان الاسفار في طلب الحديث من حملته والحج الى مكة والرغبة في تطبيق القواعد الفقهية ويفتقر ذلك الى معرفة حال البلاد وكيفية فتحها صلحاً أو عنوة وقد جر ذلك الى تعرف البلاد ومواطنها ومع ذلك فان في القرآن نصوصاً تحض على طلب هذا العلم كقوله جل جلاله « أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعى الابصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور » وقوله « قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وغير ذلك . وقد ذكرنا فضيلة التاريخ والجغرافيا في صدر المقصد من هذا المؤلف

الخطابة

هذا ما كان من تأثير القرآن في آداب الجاهلية وهناك تأثير أحدثه القرآن أيضاً في الآداب التي كانت شائعة قبل الاسلام فغير أسلوبها ورقاها وأهمها الخطابة والشعر من الفنون الادبية الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً و بلاغة وارتفعت زمن الصحابة والتابعين والفضل في ذلك عائد للكتاب المبين من وجوه منها أن القرآن وان كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون الا أن أساليبه العالية أعجزت فصحاءهم وأخذت بسماع قلوبهم واكسبتهم ملكة من البلاغة في تحسين الاساليب العالية، ولذا كانوا يعيبون الخطيب المصتغ اذا لم يكن في كلامه شيء من آداب القرآن . روى الحافظ عن الهيثم بن عدي أنهم - يعني العرب - كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آية من آي القرآن فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع ومنها ما جاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب العجيب البالغ حد الاعجاز في التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات والحاجة الى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك بها من قلوب الرجال ما لا تملكه البدر " كما صنع أبو بكر رضي الله عنه في خطبته يوم السقيفة التي امتلاك بها قلوب المهاجرين والانصار وصرف عن الامة فتنة هي من الامور الكبار ، وكان الخطباء في صدر الاسلام يخاطبون الناس عند طروء كل حادث جليل فلا تقييد لوقت ولا تكليف لقول فكانوا يجمعون المسلمين تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ووقتاً لتحذيرهم وآخر نوعهم وتدكيرهم

(١) قوله البدر جمع بدرة وهي الكمية العظيمة من المال

الشعر

أما الشعر فقد كان له أعظم التأثير في قلب العربي بحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو وكان عندهم بمثابة الجرائد في هذا الوقت ؛ ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقاها الاعماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم ، وكانت أسواقهم التي بها يجتمعون لالتقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز وبالجملة فان للقرآن تأثيراً عظيم الأهمية لم يوفق لغير القرآن من الكتب الدينية في الامم الاخرى وفي آداب اللغة العربية الفصحى وفي أخلاق أصحابه ممن سواه لانهم مكلفون بحفظه قبل كل علم وهم أطفال وهو داخل في كل شيء من الامور الدينية والدينية وأساس شرائعهم القضائية وقاعدة معاملاتهم اليومية وأحوالهم العائلية حتى الطعام والشراب واللباس والنوم والغسل وكل شيء يمكن استنباطه منه وتجدله مثالا فيه . وهذا لا تراه في غيره من الكتب السماوية

فصل

اذكر فيه الوازع والحرية

فأقول ان الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أرشد اليها وحث عليها . والشرائع انما شرعت للسعادة البشرية وقوام الحالة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشرعية لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يمشى الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا ياباها العقل ولا يهضم فيها حق من حقوق الحرية ما دامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه أمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيماً عليه فالحرية مقيدة بقيد نفسى وخارجى فالنفسى هو الزاجر الدينى والفضيلة الذاتية فنى مطاوعة الزاجر النفسى مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية والخارجى هو الوازع وفى مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون وليس فى كلا القيدين معنى العبودية أو منع للحرية وانما هو امساك النفس عن الاندفاع فى تيار الهوى الذى يلحق الانسان بالبهائم فهاته الفضيلة وسط وطرفاها رذيلة افراط وتفريط وكلاهما رجوع للبهيمية فالحرية بالقيد المذكور فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتخلصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه فى كل حق من حقوق الانسانية التى سوغها العقل وقضت بها أصول الاجماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تترك بارادة سواه مالكا لثمره عمله لا حق لاخر يجرماته منها مالكا لامنه لا لسلطان آخر يسلب

منه ذلك ، ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى لموت هو ويحيى من عداه

البشارة بالسعادة والندارة بالشقاوة

والبشارة المطلقة لا تكون الا بخير^(١) والانداز الابلاغ ولا يكون إلا في التخويف . اذا علمت ذلك فاعلم أن الشريعة جاءت بها الرسل لتدعو الناس الى السعادة والنجاة من الشقاوة قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فالسعادة تكون بالاقرار لله تعالى بالوحدانية ولمحمد بالرسالة والاتباع لما جاء به وسنه من فعل الأمورات واستجلاب الفضائل واجتناب الرذائل وجمع الكلمة وبسط العدل ورفع مقام العلم واستعمال غاية الجهد في اتخاذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال عز كماله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » مامن شيء يحتاج اليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يترك أو يؤتى إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية . في روح المعاني أن الآية كما أخرج البخارى في الأدب والبيهقى في شعب الايمان والحاكم وصححه عن ابن مسعود : أجمع آية للخير والشر . وأخرج أبو نعيم عن عبد الملك بن عمير قال : بلغ أكرم بن صفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه فانتدب رجلين فأتيا رسول الله ﷺ فقالا نحن رسل أكرم يسألك من أنت وما جئت به ؟ فقال النبي ﷺ « أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله » ثم تلا عليهم هذه الآية . قالوا ردد علينا هذا القول ، فردد عليه الصلاة والسلام حتى حفظوه فأتيا أكرم فأخبراه ، فلما سمع الآية قال : إني لأراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مذامها فكونوا في هذا الأمر رأساً ولا تكونوا فيه أذنانا . وروى عن ابن عباس أن هذه الآية كانت سبب استقرار الايمان في قلب عثمان بن مظعون بعد أن أسلم محبة في النبي ﷺ ولجمعها ما جمعت أقامها عمر بن عبد العزيز حين آلت الاخلافة اليه مقام ما كان بنو أمية يجعلونه في او اخر خطيبهم من سب على كرم الله وجهه وكان ذلك من أعظم آثاره رضى الله عنه . وقال غير واحد : لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . ولعل ابرادها عقب قوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً » للتنبيه عليه . انتهى باختصار

أما الشقاوة فانها تكون باجتنب الأمورات وارتكاب الرذائل والمحرمات واتباع البدع والشبهوات وايشار اللذات كالفسجور وقول الزور وشرب الخمر وحب الظهور والدخول تحت معاصى الله ومساخطه جهلاً باستدراج الله وأماناً لمكره . قال جل ذكره « وضرب الله مثلاً

(١) قوله المطلقة : وتكون بالشر اذا كانت مقيدة كقوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم »

قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» وقال «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» في روح المعاني: المراد بالفتنة الذنب. وفسر بنحو اقرار المنكر والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع. وفيه عند قوله عز من قائل «يا أيها الناس انما بعثناكم على أنفسكم» أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمي وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «ثلاث هن راجع: المكر والنكث والبغى» ثم تلا عليه الصلاة والسلام «يا أيها الناس انما بعثناكم على أنفسكم» «ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله» «ومن نكث فانما ينكث على نفسه» وأخرج ابن مندويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «لو بغى جبل على جبل لك الباغى» والبغى هو الظلم الظاهر الذي لا يخفى قبجه على أحد. وفي ذلك من الزجر ما لا يخفى اهـ

لا يأمن الدهر ذو بغى ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

فصدور مثل تلك المخالفات سالبة للنعم جالبة للنقم وإثارة الفتن والمصائب والاحن وفقد الراحة والهوان وقلة العمران وخراب الديار والمنازل والفتن في الشعوب والقبائل. قال تعالى «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» والخلاصة ان السعادة والشقاوة مقترنتان بالعمل الفاسد والصالح وترتب عليهما في الدنيا ما قد علم وفي الآخرة الجنة وجهم

خلاصة

فيما حصل لرسول الله ﷺ وهو بمكة عند ما أعلن بالرسالة

وما حصل لمن آمن به

في كتاب الاعتصام أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل وفي جاهلية جهلاء لا تعرف من الحق رسماً ولا تقيم به في باب مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تفتحل ما وجدت عليه آباءها وما استحسنته أسلافها من الآراء المنحرفة والنحل المخترعة والمذاهب المبتدعة. فحين قام فيهم ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر وغيروا في وجهه صوابه بالافك والمكر ونسبوا إليه إذ خالفهم في الشريعة وناذهم في النحلة كل محال ورووه بأنواع البهتان، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق الذي لم يجربوا عليه قط خيراً بخلاف مخبره، وآونة يتهمونه بالسحر وفي علمهم أنه لم يكن من أهله ولا ممن يدعيه، وكرة يقولون انه مجنون مع تحققهم بكمال عقله

وبرأته من مس الشيطان وخباه ، واذا دعاهم الى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له قالوا : « أجل الآلهة لها واحداً ان هذا لشيء عجاب » مع الاقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » واذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على امكانه وقالوا « أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » واذا خوفهم نعمة الله قالوا « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » اعتراضاً على صحة ما أخبرهم به مما هو كائن لا محالة ، واذا جاءهم بآية خارقة افترقوا في الضلالة على فرق واخترقوا فيها لجر العناد ما لا يقبله أهل التهدى الى التفرقة بين الحق والباطل كل ذلك قصداً منهم الى التأسى بهم والموافقة على ما ينتحلون اذا رأوا خلاف المخالف لهم في باطلهم رداً لما هم عليه ونبذاً لما شذوا عليه يد الظنة واعتقدوا اذا لم يتمسكوا بدليل أن الخلاف يوهن الثقة ويقبح جهة الاستحقاق وخصوصاً حين اجتهدوا في الاقتصار بعلم فلم يجدوا أكثر من تقليد الآباء ، ولذا أخبر الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام في محاجة قومه « ماتعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظلمنا ما كنا كافرين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » فجادوا كما ترى عن الجواب القاطع المورد مورد السؤال الى الاستمسك بتقليد الآباء . وقال الله تعالى « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » فرجعوا عن جواب ما ألزموا به الى التقليد . فقال تعالى « قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فأجابوا بمجرد الانكار ركوناً الى ما ذكروا من التقليد لاجواب السؤال ، فكذلك كانوا مع النبي ﷺ فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم لانه خرج عن معتادهم وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم حتى أرادوا أن يستنزروه على وجه السياسة في زعمهم ليوقعوا بينهم وبين المؤالفة والموافقة ولو في بعض الأوقات أو في بعض الاحوال أو على بعض الوجوه ويقنعوا منه بذلك ليقف لهم بتلك الموافقة واهي بنائهم فأبى عليه السلام إلا الثبوت على محض الحق والمحافظة على خالص الصواب وأنزل الله تعالى « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » الى آخر السورة فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة ورموه بسهام القطيعة وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه وعاد الولي الحميم عليه كالعذاب الليم ، فأقربهم اليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته كابي جهل وغيره وأصقهم به رحماً كانوا أقسى قلوباً عليه ، ومع ذلك فلم يكلمه الله الى نفسه ولا سلطهم على النيل من أذاه إلا نيل المصدقين بل حفظه الله وعصمه وتولاه بالرعاية والكلاءة حتى بلغ دعوة ربه ، ثم مازالت الشريعة في أثناء نزولها وعلى توالي تقريرها تبعد بين أهلها وبين غيرهم وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا لكن على وجه من الحكمة عجيب وهو التأليف بين أحكامها وبين أكبرهم في أصل الدين الاول الاصيل . ففي العرب

نسبتهم الى ابيهم ابراهيم عليه السلام وفي غيرهم لأنبياهم المبعوثين فيهم كقوله تعالى بعد ذكر كثير من الأنبياء: « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين » وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو اليها فيثوب اليه الواحد بعد الواحد على حكم الاختفاء خوفا من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الاسلام فلما اطلعوا على المخالفة أنفوا وقاموا وقعدوا فمن أهل الاسلام من لجأ الى قبيلة فحموه على اغماض أو على دفع العار في الاخبار ومنهم من فر من الاذاية وخوف الغرة هجرة الى الله وحبا في الاسلام ومنهم من لم يكن له وزر يحميه ولا ملجأ يركن اليه فلقى منهم من الشدة والغلظة والعذاب أو القتل ما هو معلوم ثم لما وقعت المؤامرة على قتله وأعلمه الله بذلك وأمره بالخروج لدار هجرته وهي المدينة المنورة هاجر اليها ﷺ واستمر تزيد الاسلام واستقام طريقه مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته اه اعتصام

وزيادة القول ان رسول الله ﷺ مكث في مكة من وقت النبوة الى أن هاجر الى المدينة اثني عشر سنة وخمسة أشهر وأياما اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول الى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي وهو اثنان وعشرون سورة نزلت بالمدينة ويمتاز المدني من القرآن عن المكي بأمرين الأول ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح درسا نافعا للمسلمين والثاني ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية والمراد بالدينية ما شرعه لاصلاح النفوس وتهذيبها وهي التي يطلق عليها المسلمون العبادات . والاجتماعية ما شرعه ليكون أساسا لمعاملات الناس بعضهم مع بعض وأهم ما جاءت به الآيات المكية التوحيد ورفض الأوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وربه واسطة واثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله ان خيرا نغير وان شرا فشر وبيان الخصال التي تقرب الى الله ولا تبعد منه وعبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم الى نحو الخير وفي آخر أيامه بمكة أذن له بالقتال والاذن به لم يشرع الا دفعا عن أنفسهم وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها اه باختصار من محاضرات الخصري

وقوله اذا اعتبرنا . كان وصوله ﷺ الى قباء يوم الاثنين وأظم بها الى يوم الجمعة ثاني عشر ربيع . واعلم ان من المقرر ان وظيفة الرسل تبليغ الشرائع وتقريرها على وجه يجمع اليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسل لمن يخلفه الا حياية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة الرسل . ومن المعلوم ان مؤازرة القوة للشرائع . قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الالهية أو الأوضاع البشرية وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود

الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق عن الرسل أولى الشرائع « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وفي ذلك من الاشارة الى ملازمة القوة للدين ما لا يخفى ارهاباً للناس وكبحاً للنفوس التي يقودها مجرد الارشاد واللين وهاته القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة . قال الزهرى أول آية نزلت في الاذن بالقتال قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » فشرع صلى الله عليه وسلم حينئذ في تهيئة الجيوش وبعث البعث والسرايا ففزا بنفسه الكريمة هو وأصحابه حتى دخل الناس في دين الله أفواجا أفواجا وكان عدد مغازيه عليه الصلاة والسلام ثمانياً وعشرين ، قاتل في ثمان أو تسع منها بنفسه بدر وأحد والمريسيب والخذق وقرظة وحنين وفتح مكة الذي هو الفتح الاعظم وخيبر والطائف وغزوة بدر الكبرى وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل فيه الشرك وأهله . ومغازيه وسراياه مذكورة في كتب السير وغيرها ، غزوة غزوة ، وسرية سرية ، آخرها سرية أسامة بن زيد التي جهزها صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه ونفذها بعده أبو بكر رضي الله عنه وسياتي خيرا . وما أشير اليه من الغزوات والسرايا وتبليغ الدعوة وأسباب النزول ومعجزاته وفضائله وشمائله وسيرته وغير ذلك مما شرفه الله به وما حصل له من نشأته الى وفاته مذكور على وجه التفصيل في كتب السنة والسير المختصة لهذا الشأن بأبين بيان وأفصح لسان

خطبته عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع

في التاسع من ذى الحجة من السنة العاشرة توجه صلى الله عليه وسلم الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة . واليك نصها :

الحمد لله حمدته ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحتمكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد ايها الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم أشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به رباعي العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ، ان

الشیطان قد یئس أن یعبد فی أرضکم هذه ولكنہ قد رضی أن یطاع فیما سوی ذلك مما تحرقون بل تحرقون من أعمالکم . أیها الناس ، ان النسیء ^(١) زیادة فی الکفر یضل به الذین کفروا یجلونه عاما و یجرمونه عاما لیواطئوا عدة ما حرم الله ، وان الزمان قد استدار کهیئته یوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ثلاث متوالیات و واحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذی بین جمادی وشعبان ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . أیها الناس ، ان لنسائکم علیکم حقاً ولکم علیهن حق أن لا یوطئن فرشکم غیرکم ولا یدخلن أحداً تکرهونه بیوتکم الا باذنکم ولا یأتین بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لکم أن تعضوهن وتهجرهن فی المضاجع وتضربوهن ضرباً غیر مبرح فان اتھینن وأطعنکم فعلیکم رزقهن وکسوتهن بالمعروف وانما النساء عندکم عوان لا یملکن لأنفسهن شیئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بکلمة الله فاتقوا الله فی النساء واستوصوا بهن خیراً . ألا هل بلغت اللهم اشهد . أیها الناس ، انما المؤمنون اخوة ولا یحل لامریء مال أخیه الا عن طیب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدي کفاراً یضرب بعضکم رقاب بعض فانی قد ترکت فیکم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده کتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد . أیها الناس ، ان ربکم واحد وان أباکم واحد کلکم لآدم و آدم من تراب ، أکرمکم عند الله أتقاکم ، لیس لعربی فضل علی عجمی الا بالتقوی ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلیبلغ الشاهد منکم الغائب . أیها الناس ، ان الله قد قسم لكل وارث نصیبه من المیراث ولا تجوز لوارث وصیة ولا تجوز وصیة أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعی لغير أیه أو تولى غیر موالیه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعین لا یقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً . والسلام علیکم ورحمة الله

وفی هذا الیوم امتن الله علی المؤمنین بقوله فی سورة المائدة « الیوم أكملت لکم دینکم واتممت علیکم نعمتی ورضیت لکم الاسلام دیناً » فلا غرابة ان اتخذه المسلمون عیداً و یوماً سعیداً یظهرون فیہ شکر الله علی هذه النعمة الکبری . انتهى نور الیقین

ذکر مرضه ووفاته ﷺ

روی الشیخان عن أبی سعید الخدری رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس علی المنبر فقال : ان عیداً خیره الله بین أن یؤتیه من زهرة الدنیا ما شاء و بین ما عنده فاختار ما عنده

(١) قوله النسیء . كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاثة متوالیات ذی القعدة وذی الحجة والمحرم وشهر رجب ، وكانوا ربما استطلوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم الی الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفرًا من العام المقبل فهذا هو الذی عابه القرآن علیهم لاتباعهم الهوی فی عقیدتهم

فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال : يا رسول الله فدينك بآبائنا وأمهاتنا . قال فمجبنا له وقال الناس : أنظروا لهذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتبه الله من زهرة الدنيا ماشاء وبين ما عنده وهو يقول فدينك بآبائنا وأمهاتنا ؟ قال : فكان رسول الله ﷺ هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا به . فقال النبي ﷺ « ان من آ من الناس على بصحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الاسلام لا يبقى في المسجد خوذة الاسد الا خوذة أبي بكر » وكانت هذه الخطبة في ابتداء مرضه الذى مات فيه ولما اشتد به وجعه ﷺ قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة : يا رسول الله ان أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء . قال مروا أبا بكر فليصل بالناس . فعاودته مثل مقالتها ، فقال انكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له . وعند سالم بن عبد الله الاشجعي قال : « لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخذ بقاء سيفه وقال لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ الا ضربته بسيفي هذا . قال فقالت الناس : يا سالم أطلب لنا صاحب رسول الله ، قال فخرجت الى المسجد فاذا أنا بأبي بكر رضى الله عنه فلما رأيته أجهشت البكاء أى تهيأت . فقال يا سالم أمت رسول الله ﷺ ؟ فقلت ان هذا عمر بن الخطاب يقول : لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ الا ضربته بسيفي هذا . قال فأقبل أبو بكر حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فرفع البرد عن وجهه ووضع فاه على فيه واستنشى الريح ثم سجاه ، والتفت اليها فقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل - الآية » وقال « انك ميت وانهم ميتون » أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . قال عمر : فوالله لكأني لم أتل هذه الآيات قط » رواه الترمذى . قال الحافظ ابن رجب : كان ابتداء مرضه عليه الصلاة والسلام في أواخر صفر وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً في المشهور . وفي نور اليقين : لحق بربه يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ الموافق ليونيه سنة ٦٣٣ وعمره ثلاث وستون سنة وثلاثة أيام وتقدم في صدر المقصد ذكر نسبه وولادته كانت في يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ حسباً حقه العالم الفلكي محمود باشا في رسالة سماها نتائج الافهام في تقويم الغرب قبل الاسلام ، وقيل لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، وقيل لثمان وهو اختيار أكثر أهل الحديث .

الحالة الاجتماعية على عهد ﷺ

اعلم ان الاسلام جاء قاضياً بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية ، فشوه

مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب ، وأوغل كافرهم في منحى الخيال فخلق من ضعيف التصور أشكالاً من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار ، فتشكلت بأشكالها الأخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين ، فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم بين قرآئين وربانيين وسامريين وغيرهم ، والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزؤ في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الأهواء ، فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم وما أدراك ما فارس والروم أعرق الدول في المدنية وأقصاها غاية في التاريخ وأرهبا قوة في الأرض وأمدھا ظللاً عليها أشبه بشجرة تأصلت جذورها وتسامقت فروعها في الفضاء ، فجاءتها ريح عاصف تعمت أصلها وتلاعبت بأغصانها فقصفتها قصفاً وعصفت فيها عصفاً ، فزوت أفنانها وتفرقت مع الريح أغصانها ، فكانت دولة الروم غرضاً ترمى إليها الأهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومان والصقالبة وغيرهم ، ودولة الفرس كذلك تفككت أعضاؤها وتجزأت وحدتها ، فاستبد عملها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية ، ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت أهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها ، فانزوت شمس مدنيها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الأمم من فوضى الاجتماع وتفرق الأهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الا أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته ، لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس الى دينه ، دعاهم الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيئاً ينادى بعضهم بعضاً والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق والى توحيد المقصد فلا يتخبطهم شيطان الأهواء وتفرقهم عن الحق نزغات النفوس والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعاً أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب لملوكهم الذين ينتهى اليهم أمر الخلق بل الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة والله الحجة البالغة على الناس أجمعين وأجاب دعوة نبيه من أجب وأقبل عليها من أقبل وكان جلهم من العرب

الذين لم يلبثوا أن تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الامم اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون في القناعة بالكفاف عما بأيدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله أتباع النبي محمد ﷺ في كتابه العزيز « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » وقال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقال تعالى : « انما المؤمنون اخوة » الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين يومئذ تمثيلاً وتدل على مبلغ تأثير الاسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

الطبقة الثانية

طبقة الصحابة رضی الله عنهم

في البخارى باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه قال الحافظ ابن حجر العسقلاني قوله أصحاب أى بطريق الاجمال ثم التفصيل أما الاجمال فيشمل جميعهم وأما التفصيل فلن ورد فيه شيء بخصوصه وقوله أو رآه هو الراجح اه وقال الأبي في شرح صحيح مسلم الصحابة كلهم عدول لظاهر الكتاب والسنة واجماع من يقتدى باجماعه . القرطبي لم يختلف السلف في أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر . أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الاربعة على ترتيبهم في الخلافة ثم تمام العشرة ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم بيعة الرضوان ومعنى التفضيل كثرة الثواب ورفع الدرجة وذلك لا يدرك بالقياس وانما يدرك بالنقل اه باختصار ولشدة اعتناء الله تعالى بنبيه ﷺ وخصوصيته اليه وصف أتباعه في كتابه العزيز فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقال « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « خير أمتي القرن الذين يلونى ثم الذين يلونهم ثم يجي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » وفي البخارى عن أبي سعيد قال قال النبي ﷺ « لاتسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد

ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه « قال البيضاوى ومعنى الحديث لا ينال أحدكم بإففاق مثل
أحد ذهبا من الفضل والاجر ما ينال أحدهم بإففاق مد طعام أو نصيفه اهـ

واعلم ان فضل الصحابة لا مطمع فيه لمن جاء بعدهم لانهم حازوا قسبة السبق بصحبته صلى الله
عليه وسلم قال ابن حجر الهيتمى فى شرح الهمزية أفضلية الصحابة لا يعادها عمل انظره عند قوله :
لته خصنى برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

وفى الاعتصام ان أصحابه صلى الله
عليه وسلم كانوا مقتدين به مهتدين بهديه وقد جاء مدحهم فى القرآن
العظيم وأثنى على متبوعهم صلى الله
عليه وسلم الذى كان خلقه القرآن العظيم فقال « وانك لعلى خلق عظيم »
فالقرآن انما هو المتبوع فى الحقيقة وجاءت السنة مبينة له فالمتبع للسنة متبع للقرآن ، والصحابة
كانوا أولى الناس بذلك فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله
وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « ما أنا عليه وأصحابى » فالكتاب والسنة هو الطريق
المستقيم وما سواهما من الاجماع وغيره فنأشئ عنها هذا هو المذهب الذى كان عليه النبي صلى الله
عليه وسلم وأصحابه وهو معنى ما جاء فى الرواية الاخرى من قوله « وهى الجماعة » لأن الجماعة فى وقت
الاخبار كانوا على ذلك الوصف الا ان فى لفظ الجماعة معنى ستره بعد ان شاء الله . وفى الترمذى
عن ابن عباس رضى الله عنها قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ان الله لا يجمع أمتى على ضلالة ويد الله
مع الجماعة ومن شذ شذ الى النار » وأخرج أبو داود عن أبي ذر رضى الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله
عليه وسلم : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » وعن عرجة قال
سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « سيكون فى أمتى هنيات وهنيات ، فمن أراد أن يفرق أمر
المسلمين وهم جمع فاضربوه بالسيف كائنا من كان » واختلف الناس فى معنى الجماعة المرادة فى
هذه الاحاديث على خمسة أقوال (الأول) انها السواد الأعظم من أهل الاسلام وهو الذى يدل
عليه كلام أبي غالب ان السواد الأعظم هم الناجون من الفرق بما كانوا عليه من أمر دينهم
فهو الحق ومن خالفهم مات موة جاهلية سواء خالفهم فى شيء من الشريعة أو فى امامهم وسلطانهم
فهو مخالف للحق قال بهذا أبو مسعود الانصارى وابن مسعود فروى انه لما قتل عثمان سئل
أبو مسعود الانصارى عن الفتنة فقال عليك بالجماعة فان الله لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله
عليه وسلم على
ضلالة واصبر حتى تستريح أو يستراح من جائر وقال واياك والفرقة فان الفرقة هى الضلالة . وقال
ابن مسعود عليكم بالسمع والطاعة فانها الحبل الذى أمر به ثم قبض يده وقال ان الذى تكروهون
فى الجماعة خير من الذين يحبون فى الفرقة وعن الحسين قيل له أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم
فقال أى والذى لا اله الا هو ما كان ليجمع أمة محمد صلى الله
عليه وسلم على ضلالة . فعلى هذا القول يدخل
فى الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها ومن سواهم داخلون فى حكمهم
لانهم تابعون لهم ومقتدون بهم فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبه الشيطان
ويدخل فى هؤلاء جميع أهل البع لانهم مخالفون لمن تقدم من الامة لم يدخلوا فى سوادهم بحال

(الثاني) انها جماعة أئمة العلماء المجتهدين فمن خرج عما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية لان جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين وهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم « لن يجمع أمتي على ضلالة » وذلك ان العامة عنها تأخذ دينها واليهما تفرع في النوازل وهي تبع لها فمعنى قوله « لن يجمع أمتي » لن يجمع علماء أمتي على ضلالة ومن قال بهذا عبد الله بن المبارك واسحاق بن راهويه وجماعة ممن سلف وهو رأى الاصوليين قيل لعبد الله بن المبارك من الجماعة الذين ينبغي أن يقتدى بهم فقال أبو بكر وعمر ولم يزل يحسب حتى انتهى الى محمد بن ثابت والحسن بن واقد فقيل هؤلاء ماتوا فمن الاحياء فقال حمزة العسكري فعلى هذا القول لا مدخل في النوازل بل في السؤال عين ليس بعالم مجتهد لأنه داخل في أهل التقليد فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية ولا يدخل أيضاً أحد من المبتدعين لان العالم لا يبتدع وانما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتمد بأقواله وهذا بناء على القول بان المبتدع لا يقتدى به في الاجماع وان قال بالافتداء به فيه ففي غير المسألة التي يبتدع لانهم في نفس البدعة مخالفون للاجماع فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأساً

(الثالث) ان الجماعة هي الصحابة على الخصوص فانهم الذين أقاموا عماد الدين وهم الذين لا يجمعون على ضلالة أصلاً وقد يمكن فيمن سواهم . ألم تر قوله عليه السلام « ولا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله^(١) » وقوله « ولا تقوم الساعة الا على شرار الناس » فقد أخبر عليه السلام ان من الأزمان زماناً يجمعون فيه على ضلالة وكفر قالوا ومن قال بهذا عمر بن عبد العزيز فروى ابن وهب عن مالك قال كان عمر بن عبد العزيز يقول : من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها من اهتدى بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خلفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً . قال مالك فأصعبنى عزم عمر . فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الاخرى في قوله عليه السلام « ما أنا عليه وأصحابي » فكأنه راجع لما قالوه وما سنوه وما اجتهدوا فيه حجة على الاطلاق وبشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خصوصاً في قوله فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين وأشباهه أولانهم المتلقون لكلام النبوة المهتدون للشريعة الذين فهموا أمر دين الله بالتلقى من نبيه مشافهة على علم وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الاحوال بخلاف غيرهم فاذا كل ما سنوه

(١) قوله الله الله ضبطوها برفع اسم الجلالة فكل منهما مبتدأ محذوف خبره ليفيد العموم أي حتى لا يبقى أحد يسند الى الله تعالى ثناء كقول الله أكبر ولا عملاً كأن يقول الله شفاهاً هذا الغليل أو أغنى هذا الفقير وما أشبه ذلك

فهو سنة من غير نظر فيه بخلاف غيرهم فان فيه لأهل الاجتهاد مجالاً للنظر رداً وقبولاً فأهل البدع اذاً غير داخلين في الجماعة قطعاً على هذا القول . (الرابع) ان الجماعة هي جماعة الاسلام اذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه السلام أن لا يجمعهم على ضلالة فان وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه قال الشافعي : الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا عن سنة ولا قيس ولا عما تكون الغفلة في الفرقة وهذا القول يرجع الى الثاني وهو يقتضئ أيضاً ما يقتضئيه أو يرجع للقول الاول وهو الاظهر وفيه من المعنى ما في الأول من انه لا بد من كون المجتهدين فيهم وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلاً فهم اذاً الفرقة الناجية (الخامس) ملاحظاً اختاره الامام الطبري من ان الجماعة جماعة المسلمين اذا أجمعوا على أمر فلهذا عليه السلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم ثم نقل ما يؤيد ما ذهب اليه وحاصله ان الجماعة راجعة الى الاجتماع على الامام الموافق للكتاب والسنة . ثم قال فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وانهم المرادون بالحديث فلتأخذ ذلك أصلاً . اهـ اعتصام ببعض اختصار

فصل

في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ونبذة من فضائله

تقدم ذكر نسبه في أول المقصد ومما روى رسول الله ﷺ عن عبد الله وصديقنا الله بادر بتصديق النبي ﷺ ولقبه عتيقاً لجمال وجهه أولاً لأن رسول الله ﷺ قال له أنت عتيق من النار كما في حديث رواه الترمذي ، فهو صاحب في الغار وفي النسر والجهار في الليل والنهار والسابق الاول في الاسلام لم يعبد صنماً قط توفيقاً من الله وفطوره فطره الله عليها ولا شرب الخمر قط ، والمقدم للصلاة في الحياة النبوية والذي قدم نفسه وماله كله لله ، والخليفة الأول بعنه باجماع من يفتد به ، والذي أفتد الاسلام بعد الوفاة النبوية بعنه وتوفيقه وعمله وصرامته في الحق أفتد وصلاية رسول الله ﷺ كان قولاً بالحق صادعاً بالانصاف سبيل الصديق غير مائل ولا متخالف قائماً بالعدل لا تأخذه في الله لومة لائم عفيفاً لم يستأثر بحال ولا مال قط عن سنن الرسول ، وكان يوليها الرسول إمرة الجيوش موصوفاً بلصالة الزأى خطيباً مصقفاً ، وقد وجهه عليه السلام أمير الحج سنة تسع ولا يوجه الى هذه الوظيفة إلا من كان بالمكانة العليا قتها وإفئله ليعلمهم بها . ويقتضئهم فيما لم يعلموا . قال عليه الصلاة والسلام فيها رواه الترمذي عن حذيفة « اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر » الحديث . قال أبو سعيد الخدري كان أبو بكر أعلمنا . وقال الأجد

في شرح مسلم : هو أول من أسلم من الرجال ثم أسلم على يديه من العشرة المشهود لهم بالجنة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وجملة ما حفظ عنه من الاحاديث مائة واثنان وأربعون حديثاً في الصحيحين منها ثمانية عشر القرطبي ومن المقطوع به أنه حفظ من الاحاديث ما لم يحفظ غيره وحصل له من العلم ما لم يحصل لغيره لأنه الصفي والملازم في الحضر والسفر والليل والنهار وانما لم يتفرغ للحديث والرواية لاشتغاله بالأهم ولأن غيره قام عنه بذلك اه أجمعت الامة أنه هو المعنى بقوله تعالى « وسيجنبها الاتقى » قال الفخر الرازي : اذا ضمت هذه الآية الى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » انتج لنا أنه أفضل الامة بعد نبيها ﷺ . وقد ذكر البخاري واحداً وعشرين حديثاً في فضائله منها : « ولو كنت متخذاً خليلاً لا أتخذت أبا بكر خليلاً » وتقدم نصه قريباً . وأخرج عبد الرحمن ابن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر الا أن يكون نبياً »

قد علم مما تقدم قريباً أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه الديني والسياسي لذا كان أول مقاصد المسلمين وأهل السابقة والمهاجرين بعد وفاة النبي ﷺ واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متوجهاً الى وجوب نصب خليفة يجمع الامة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على قوى العبث بالنظام لانهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافاً ليس فيه ما ينفي المصلحة الاسلامية بل غايتها تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجتمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون اثبت قدماً في الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر رضى الله عنه وقالوا نرضى لديانا ما رضىه ﷺ لديننا حيث قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وخلاصة القول في انعقاد البيعة له رضى الله عنه أنه بينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي ﷺ وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبر باجتماع الانصار بسقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة وأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل اقتراق الكلمة ، فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة لمبايعة سعد بن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة . وكان مما قاله « يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل وان اعرب لاتعرف هذا الامر الا قريش هم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » وأخذ بيد عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح . فكثرت حينئذ اللغط بين الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين يجعل الخلافة في قريش وان الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله ، فقام الى ابي بكر وقال : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعه وبايعه عمرو وسائر الناس

في البخاري عن اسماعيل بن عبد الله مرفوعاً الى عائشة رضي الله عنها « أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح - قال اسماعيل : تعنى بالعالية - فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت وقال عمر : والله ما كان يقع في نفسي الا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم . فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ قبله ، فقال بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً ، والله الذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً ، ثم خرج فقال أيها الخالف على رسلك . فلما تكلم أبو بكر جلس عمر ، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . وقال « انك ميت واتهم ميتون » وقال « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » قال فنشج الناس يبكون . قال واجتمعت الأنصار الى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة فقالوا منا أمير ومنكم أمير . فذهب اليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول والله ما أردت بذلك الا انني قد هيأت كلاماً قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر . ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه : نحن الامراء وأنتم الوزراء . فقال حباب بن المنذر : ألا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر لا ولكننا الامراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب داراً وأعرفهم أحساباً فبايعوا عمر ابن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح . فقال عمر : بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا الى رسول الله ﷺ ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس . فقال قائل : قتلت سعد بن عباد . فقال عمر : قتله الله »

البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه سلم له النظر في أمر نفسه وفي أمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره . في صحيح مسلم « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا اثرة علينا وعلى أن لا تنازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم »

خطبة ابي بكر رضي الله عنه

لما استقرت الخلافة لأبي بكر صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس قدوليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له الحق ان شاء الله ، لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالنزل ، أطيعوني

ما طعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله
هذا كلام صدر من أول خليفة في الاسلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الاسلام تمثيلاً تستكن
امامه القلوب التي اشرأبت الى حب العدل

الكلام على جيش أسامة رضی الله عنه

أول جيش بعثه أبو بكر رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما الذي كان
جهزه رسول الله ﷺ وتوفي قبل بعثه وارتدت العرب حول المدينة بعد وفاته عليه الصلاة
والسلام ، وقبل بعثه اجتمع أصحاب النبي ﷺ وقالوا لأبي بكر رضي الله عنه رد هذا الجيش
كيف توجه هؤلاء وقد ارتدت العرب حول المدينة فأجابهم بقوله : والذي نفسي بيده لو ظننت
أن السباع تخطفني ما رددت جيشاً جهزه رسول الله ﷺ ولا حلت له لواء . وكان بعض
الصحابة استصغر أسامة أمير الجيش (١) وقالوا لعمر رضي الله عنه امض الى أبي بكر وأبلغه عنا
واطلب منه أن يولي أمرنا أقدم سنأ من أسامة . فلما بلغه عمر ذلك قال له : ثكلك أمك
يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله ؟ ثم خرج أبو بكر للجيش
وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب . فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو
لا تزلن ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه والله لا تزلن ولا ركبت وما على أن أغبر قدمي ساعة
في سبيل الله . فلما اراد ان يرجع اوصى اسامة ومن معه فقال : لا تخونوا ولا تغدروا ولا
تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ولا تقطعوا
شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لأكله . فسار أسامة فجعل لا يمر بقبيلة
يريدون الارتداد إلا قالوا لولا ان هؤلاء قوة ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم
حتى يلقوا الروم ، فلقوهم فهزموهم وانغار أسامة على ابني موضع في الجنوب الغربي من الشام
وغنم وعاد بعد أربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً . وهذا يدل على علو كعب أبي بكر رضي
الله عنه في السياسة وبعد نظره في مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهر القوة واستهان بانفاذه
بخطب الردة فنفت في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها
ومتردد بين الأمرين

(١) قوله استصغر : انتقد جماعة على تأميره وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشر من عمره على
جيش فيه كبار المهاجرين والانصار (انظر نور اليقين)

فصل في الكفر على اهل الردة وقتالهم

اعلم أن من أعظم فضائل أبي بكر رضي الله عنه قتال العرب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ والذين منعوا الزكاة وقالوا لله لا جاهدنا ما استمسك السيف بيدي وان منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ . فقال له عمر رضي الله عنه : وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحمها وحسابه على الله تعالى » فقال أبو بكر رضي الله عنه والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال « الا بحمها » قال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق . قال الشيخ محيي الدين بن العربي في المسامرة : لما توفي رسول الله ﷺ وطلب أبو بكر رضي الله عنه الزكاة كفر بها قوم وقالوا قد كنا ندفع أموالنا الى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا والله لا نعطيه منها شيئاً أبداً . فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ فاجمع القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم ، ونخبوا أنهم لا يقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر رضي الله عنه : لو لم أجد أحداً يؤازرني لجاهدتهم بنفسى وحدى حتى أموت أو يرجعوا الى الاسلام ، ولو منعوني عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى . فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يجاهد بأصحاب رسول الله ﷺ حتى عاد الناس جميعاً الى الاسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه

نهض رضي الله عنه بعزيمة ماضية ، وحكمة سامية ، ونهض لتهضته رجال قريش فاستقبلت بصدورها حوادث الردة المريفة ونيرانها المتأججة ، وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة وخاصة الا ثقباً وقريشاً فافتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك العجاج الذي يرتج بأهل الردة ارتجاجاً وخاضت بنخيلها ورجلها حروب القوم بجرأ أجاجا . ولم يلبث أبو بكر رضي الله عنه أن أطفأ نيران الردة برجال قريش وأمثالهم حتى رمى بهم جيوش القياصرة وجنود الاكاسرة وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنه فكان من قوادها في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدوين تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام منهم خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان وأخوه معاوية وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري وسعد بن أبي وقاص وأضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذلوا الصعاب وقطعوا من العقبات ولاقوا من الاهوال ، ما لا يحلم بذكره انسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم بدان . كما ستري ان شاء الله

بلغ بعزيمة أبي بكر رضى الله عنه وعظيم رأيه بعد إذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم أن
ألى على نفسه أن لا يدع العرب يقر لهم قرار الأ والسيف آخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم
بجرانه . وبينما هو يطاول فى الامر انتظارا لرجوع أسامة و جيشه أعجلته عبس و غطفان و أسد
وطىء ، وكان بعضهم نازلا بنى القصة و بعضهم بالبرق فأرسلوا اليه وقدأ يبذلون الصلاة
و يمتعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا و أخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم
و أعماهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الايمان و اليقين و فيهم من الصناديد ^(١) وليوث الحرب
الشجعان مثل عمرو على و طلحة و الزبير الذين لا يقل لهم حد ولا يدرك لهم جد خشى أبو بكر
بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة عليا و طلحة و الزبير و ابن مسعود و أمرهم
بملازمة المسجد خوف اغارة من العدو فما لبثوا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارة ليلا و خلفوا
بعضهم بنى حسى ليكونوا لهم رداء . فوافقوا ليلا الانقلاب و عليها المقاتلة فمنعهم و أرسلوا الى
أبي بكر فخرج بالمسلمين على الواضح فردوا العدو و اتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى ^(٢) فخرج عليهم
أهل الردة بأنحاء قد نفخوها و فيها الجبال ثم دهبوها على الارض فنفرت إبل المسلمين و هم عليها
و رجعت بهم الى المدينة و لم يصرع أحد منهم ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبئة فما طلع الفجر الا
وهم و العدو على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار و اتبعهم
أبو بكر رضى الله عنه حتى نزل بنى القصة و كان أول الفتح و وضع فيها النعمان بن مقرن فى
عدد و رجع للمدينة ، و قدم فى أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على
المدينة و جنده معه ليسترىحوا و يريحوا ظهورهم ثم خرج فيمن كان معه فقام عليه على و المسلمون
و ناشدوه الله ليقيم فأبى و قال والله لا و اسينكم بنفسى . و صار الى ذى حسى و ذى القصة حتى
نزل بالأ برق فقاتل من به فهزمهم و غلب على بنى ذبيان و بلادهم و حماها لدواب المسلمين ثم
رجع للمدينة . فلما استراح أسامة و جنده بادر أبو بكر رضى الله عنه الى تسيير الجيوش الى
أهل الردة فعقد أحد عشر لواء (الاول) لخالد بن الوليد و أمره بطليحة الاسدى و مالك بن
نويرة (والثانى) لعكرمة بن أبى جهل و سيره لمسيلمة (والثالث) للمهاجر بن أبى أمية المخزومى
القرشى و أمره بمجنود العنسى فى اليمن و معونة الابناء على قيس ثم يمضى الى كندة بمحضر موت
(الرابع) لخالد بن سعيد بن العاص و بعثه الى مشارف الشام (الخامس) لعمر بن العاص
القرشى و أرسله الى قضاة (السادس) لخديفة بن محسن و أمره بأهل دبا (السابع) لعرجة بن
هرثة الازدى و أمره بمهرة (الثامن) لشرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة و أرسله فى إثر

(١) صناديد بوزن قنديل السيد الشجاع و جمعه صناديد

(٢) قوله ذو القصة و ذو حسى أما كن قرب المدينة وقوله دهبوها أى نفخوها

عكرمة بن أبي جهل واذا فرغ يلحق بقضاة (التاسع) لعن بن جابر السلمي وأمره بنى سليم وهو ازن (العاشر) لسويد بن مقرن وأمره بتهامة (الحادى عشر) للعلاء بن الحضرمي حليف بنى أمية ووجهه الى البحرين

سير أبو بكر رضى الله عنه هؤلاء الامراء وكتب لهم عهداً كما كتب للمرتدين تركنا ذكرها اختصاراً . ثم انتهت حروب الردة بعد تدليل عقبات وأهوال في أخبار طوال بانتصار جيوش المسلمين في كل الوقائع انتصاراً باهراً وذهبت دعوة النبوة التي ظهرت بين العرب كأمس الدابروهي التي ادعاها أربعة رجال وامرأة على عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم : الاسود العنسي في اليمن ، وطلحة في أسد وغطفان ، ومسيلمة في بنى حنيفة ، ولقيط بن زرارة في عمان ، وسجاح في أخوالها من بنى بكر ورهطها من بنى نعيم . ورجع العرب للركون بعد أن علموا ان الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله فنصرهم على اعدائهم ومكن لهم السلطان في الارض وحصل لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة

لا ينكر ما لأبي بكر رضى الله عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا أنحاء القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالاً وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقاً وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غرباً . ولم تكن غيبتهم إلا كما يغيب المرتاد للمناجح ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن وجمعوا سكانها على كلمة الايمان وتنج عن ذلك أن وقعت عصبية الاسلام في قلوب العرب وأيقنوا أنه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئته ولا ينجح شائئه . فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلهم المتفرقة عليه

ثم التفت أبو بكر رضى الله عنه للفتوح ورأى أن لا يدع لبعض المناققين الذين لا يروق لهم مموشان الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة في جسم تلك الامة العظيمة التي جمعها كلمة الاسلام وأن يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعمياً للدعوة الاسلامية وبتأرواح العدل والحرية بين الامم ، فما هو الا أن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفئوا على الامم التي مزقت أحشاءها سيوف الاهواء والاهوام وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والاجسام فلم يلبث أن واظها المسلمون بحملون لفريق أهل الكتاب منها « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً » وفريق الصابئة ومن على نحلهم من المشركين الاسلام أو الجزية أو السيف حتى اشرأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس ودانت لدينهم الشعوب وخضعت لسلطانهم فعمروا المسالك وشادوا الممالك ومصروا والامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى كما يأخذون على الظالم متى يتعدى

أول ما التفت إليه أبو بكر رضي الله عنه فتح العراق والذي حركه لذلك هو البطل الجليل
المتني بن حارثة بن ضمضم الشيباني بن بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقي وقومه
على الاسلام وسهل اليه الامر ورغبه بغزوهم فكتب اليه أبو بكر رضي الله عنه عهداً وسار
الى بلاده ثم ان أبا بكر رضي الله عنه استدعى خالد بن الوليد في اليمامة سنة ١٢ وأمره بالمسير
الى العراق وأن يبدأ من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح
الجزيرة وأرمينيا أن يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً
رضي الله عنهم أن لا يضرأ بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه على منابع الثروة وعلماً بأن
العمران لا تقوم بدونه الدولة والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران
المالك . لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المتني بثمانية آلاف
ثم أمد أبو بكر خالداً بالفتح بن عمرو بطل المسلمين المغوار قبيل له أتمده برجل واحد
فقال : لا يهزم جيش فيه مثل هذا . وأمد عياضاً بعبد يعوث الحميري وكتب الى المتني يأمره
بالسمع والطاعة لخالد وأمر مندوراً بن عدى العجلي أن ينضم مع قومه الى خالد وكذلك
سويد بن قطبة الدهلي من بكر وائل واستنفر رضي الله عنه العرب وأذن لعامتهم بالانضمام الى
جيوش الفتح ، وكان لزعماء الردة منهم - كطليحة الاسدي وعمرو بن معدى كرب
والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس وأمثالهم - البلاء الحسن في فتوح العراق
والشام والاخلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح
واختلف المؤرخون في أول بلد قصده خالد قبيل الابله وقيل الحيرة وان الابله كان على
عهد عمر رضي الله عنه وعليه فالحيرة هي أول فتح بعده فاذنبي رضي الله عنه ثم ان خالداً بعد أن استخضع
أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت يحكم العراق من قبل الالكاسية وقاعدتها الحيرة
وأنتم فتح العراق العربي بلداً بلداً وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمسة الى
أبي بكر مع خير الفتح . ثم انصرف خالد بعد هذا الفتح الى الشام واستخلف المتني بن حارثة
على جند العراق

لما انتهى فتح العراق العربي وجلس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس
الملك والسلطان وأخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للاجهاز على ممالك الفرس
انصرفت همه أبي بكر رضي الله عنه الى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب
ومدخر الخيرات ، وكانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم وكان سلطانهم في تقلص ونفوذهم
في اضمحلال ولما توجهت أنظاره الى فتحها استنفر المسلمين من أطراف البلاد العربية وأخذوا
يفنون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ، وفي مستهل صفر سنة ١٣ عقد ألوية
فلواء يزيد بن أبي سفيان ووجهه الى البلقاء ولواء لعمرو بن العاص ووجهه لفلسطين ولواء

لشرحبيل بن حسنة ووجهه الى الاردن ولواء لابي عبيدة بن الجراح ووجهه الى حمص وكان
العقد في بدء الأمر لكل أمير على ثلاثة آلاف فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار
مجموعهم أربعة وعشرين ألفاً ساروا ولهم قوة العزيمة والصبر والاعتماد على الله في السر والظهر
وعدم المبالاة بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ونصرة الاسلام والتعفف عما بأيدي الناس
وحماية المال والنفس واطلاق الحرية في العوائد والدين وأضيف الى هذا ما يصاحب أولئك
المجاهدين من حسن الرأي فمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ
كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ومعاوية ويزيد ابني أبي سفيان رضي الله عنهم
ومن ورأهم مثل أبي بكر رضي الله عنه يمدحهم بالرأي ويتابع النصائح وحسبهم من وصاياه وصيته
ليزيد المذكور التي تعجز أقطاب السياسة وتتفجع قادة الجيوش وساسة الأمم في كل عصر وأوصاه
بها لما شايه ماشياً كما أوصى سائر الامراء ، ونصها :

« انى قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك وان أسأت
عزلتك فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك وان أولى الناس
بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً اليه بعمارة وقد وليتك عمل خالد بن سعيد
فاياك وعيبة الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها واذا قدمت على جنك فأحسن صحبتهم
وابدأهم بالخير وعدم اياه واذا وعظمتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح
نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتجشع فيها واذا
قدم عليك رسل عدوك فأكرهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به ولا
تريثهم فيروا خالك ويعلموا عمك وانزلم في ثروة عسكري وامنع من قبلك من مجادتهم وكن
أنت المتولى لكلامهم ولا تجعل شرك لعلايتك فيخلط أمرك واذا استشرت فاصدق الحديث
تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتوتى من قبل نفسك واسهر بالليل في أصحابك
تأنتك الأخبار وتنكشف عنك الاستار وأكثر حرسك وبدد في عسكري وأكثر مفاجاتهم
في محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط
واعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطولاً من الاخيرة فانها أيسر لها لقبها من النهار
ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفماً ، ولا تفعل عن
أهل عسكري فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم : ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف
بعلايتهم ، ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن
الناس ، واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في
الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له اه

لما سار أمراء الاجناد المتقسم ذكرهم وكتبوا الى هرقل عظيم الروم يدعونه الى الاسلام

أو الجزية أو الحرب — وهو يومئذ بالقدس — جمع له البطارقة وكبار القواد وشاورهم في أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه إلا الحرب ، ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ في اعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه . أما أمراء المسلمين فانهم أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد ولهم وقائع كثيرة قبل وقعة اليرموك كوقعة مرج الصفر على وزن سكر ووقعة اجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها وهو بأخر رمق ووقعة العربية من فلسطين وبصرى وهوران وغيرها

اقتحم المسلمون بجيوشهم البلاد اقتحام المجرين في الحرب العارفين بمواقع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد ، فانهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطره الواحد في الجنوب الغربي في فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر في الجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة الى الغرب وهو مع شرحبيل وهو في الاردن بحيث يمد بعضهم من بعض بقرب ومن ورائهم يزيد يحفظ خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات على هاته الصفة افتتح كل أمير مامر عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى أخذت الصيحة الروم من كل مكان فانتبهوا من غفلتهم فضرب هرقل البعث على العرب الذين هم تحت حمايته والروم فاجتمع لديه منهم زهاء مائة وخمسين ألفاً ولما تفرق المجاهدون في البلاد وراعهم ما جمعه هرقل من الجموع استشاروا عمرو ابن العاص فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمع الامراء والجيوش باليرموك وكتبوا الى أبي بكر رضى الله عنه فأمدهم بخالد بن الوليد ولما وصل تأمر عليهم ورتب الجيوش ترتيباً على غاية من النظام وتعبئة يعجز عنها حذاق الامراء ثم نشب القتال بين الفريقين وكانت حركة عظيمة انجلت عن انكسار الروم وانهمزاهم شر هزيمة بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء الثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة ابن أبي جهل وابنه وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى وخالد بن سعيد وهم ممن أبلى بهند الحرب ومنهم أبو سفيان بن حرب ذهبت فيها عينه وبيناهم في اليرموك في أشد حالات الحرب قدم البريد بخبر وفاة أبي بكر وتولية عمر رضى الله عنهما ومعه أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر على المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولى الروم أدبارها . وقد اختلفوا هل المؤرخون هل جاء الخبر بموت أبي بكر والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا هل فتح شيء من الشام قبل اليرموك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه أو لا . ومما لا ريب فيه ان جيوش المسلمين لما اوغلت في القسم الجنوبي من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد وربما بلغت حصص شمالاً ، إلا ان انجلاءهم بعد عن البلاد وتقهقرهم لليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لا تتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم ، لهذا عول المؤرخون في سياق

أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك في خلافة عمر رضي الله عنه . وفي كلا الحالين فإن الفتح الحقيقي للديار الشامية تم في زمن عمر . ولأبي بكر الفضل العظيم في سبقة اليه واعداده مثل جيش اليرموك له ، وأما عزل خالد بن الوليد فالأصح أنه جاء وهم على دمشق كما ستري بعد إن شاء الله . واختلف في اليرموك هل كانت قبل وقعة اجنادين أو بعدها واليرموك من عمل الاردن وهو واد بناحية الشام واجنادين من عمل فلسطين

فصل

كان أبو بكر رضي الله عنه كثيراً ما يعمل بما يشير به على رضي الله عنه عند بعث الجنود ولا يأذن له في الخروج مع المجاهدين حرصاً على بقاءه معه للانتفاع برأيه ومشورته ، وكذلك لم يأذن في الخروج لعمر وعثمان رضي الله عنهما للاستعانة بكل منهما على تدبير أمور المسلمين ولا يفعل شيئاً الا بعد مشورتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبي ﷺ وكان رضي الله عنه من العلم بقوانين الشريعة والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا يطاؤها مماء ومع هذا لا يبرم أمراً في حادثة الا بعد أن تتداولها آراء الجماعة من الصحابة . أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها فان أعياء خرج يسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمت أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء فر بما اجتمع اليه نفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فان أعياء ان يجد في سنة رسول الله ﷺ جمع رهوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك فان أعياء ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رهوس المسلمين فاذا أجمعوا على أمر قضى به

اولياته

من مناقبه الكريمة ومآثره العظيمة جمعه القرآن ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجتريء فيه على الكذب على رسول الله ﷺ وهم جماعة القصاص والوعاظين الذين شوشوا على الأمة في الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جر على الأمة من البلاء ولولم ينهض أئمة الحديث وحفاظه أو اخر القرن الثاني وما بعده الى تلافى هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع من الصحيح لكان الخطب أعظم والمصيبة أشد . أما القرآن فله الحمد والمنة على أنه سبحانه تكفل بحفظه فقال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقال « كتاب لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » لهذا كان أول ما أُلهم إليه أبو بكر النهوض إلى جمعه من صدور الرجال وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل وقد تقدم شرح ما ذكر في المقدمة ، وهو أيضاً أول من سمى خليفة وأول من أسلم من الرجال وأول من وضع بيت المال ولما مرض رضى الله عنه مرضه الذى توفى فيه عهد بالخلافة لعمر رضى الله عنه . وكتب له عهداً فى ذلك ونصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) « هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمى به ورأى فيه وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت فلا علم لى بالغيب ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » توفى رضى الله عنه فى مرضه المذكور . روى الحاكم أن سبب موته وفاة رسول الله ﷺ كذا بما يجرى - أى ينقص - حتى مات . قال الحافظ ابن حجر : وهو مرض السل . وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها « أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين . قال فان مت فى ليلتى فلا تنظروا فى الغد فان أحب الأيام والليالى الى أقربها من رسول الله ﷺ وتوفى من ليلته تلك وهى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشر من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته أسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعاً ودفن الى جنب رسول الله ﷺ . وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه : أن أبا بكر صلى عليه ليلاً ودفن ليلاً وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وكان نقش خاتمه : نعم القادر الله وكان فصيح اللسان قوى الحجّة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه روى عن الزبير بن بكار أنه قال سمعت بعض أهل العلم يقول أفصح خطباء رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب

خطبة على فى تابين ابى بكر رضى الله تنهما

أجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ وجاء على مسرعاً باكياً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاماً وأخلصهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وصمتاً فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله ﷺ صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا وقت معه حين قعدوا ومماك الله فى كتابه صديقاً فقال « والنبي جاء بالصدق وصدق به » تريد محمداً ويريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللکافرین ناكياً ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك

ولم يجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيه القواصف ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قويا في دينك متواضعا في نفسك عظيما عند الله جليلا في الارض كبيرا عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوى وتأخذ للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك ﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن الاخبار عن علي رضي الله عنه بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكونهما خيري الأمة بعد النبي ﷺ ثبتت عنه من طرق كثيرة بروايات كثيرة من الثقات العدول منهم : ابنه محمد بن الحنفية بحيث يجرم من يتبعها بصدور ذلك القول من علي رضي الله عنه جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ريب . قال الحافظ الذهبي : تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك في الخلوّة والملا وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ، ولهذا اتفق الأئمة الاربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبتية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته . قال سفیان الثوري : من قال ان علياً رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء . وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مثل ذلك

الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر

اعلم أن الحالة الاجتماعية التي كانت على عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وقد نهض أبو بكر بعد الرسول ﷺ بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً يعلم من سيرته . فرمى رضي الله عنه بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة على القوة في عهد رسول الله ﷺ . فخالط المسلمون تلك الامم البالغة منتهى درجات الرفاهة والتنعم المنعمسة في حما الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة الواضحة التي تركهم عليها نبيهم لاسيما وان القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه ، وكان جل أمره منصرفاً الى اقامة شعائر الدين ، والتأدب بأداب النبي ﷺ خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف ، هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين ، وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بأداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاص الى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شيء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتألف القلوب ، ونصرة العدل والحق ، ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم في أمة حديثة عهد في الدين من قبل ولن يأتي أمة سواهم من بعد

روى الغزالي في الاحياء : أن تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم أن كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

كان أبو بكر رضى الله عنه خير قدوة للمسلمين وكان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة اللبس مع غناه ووفرة دخله من املاكه فقد اقتدى به المسلمون ونحوشنوا في ما كلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التمتع بدخلهم . في تاريخ المسعودى : لما قدم على أبي بكر زعماء العرب وأشرفهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشى الثقيل بالذهب والتيجان والخبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوار والهيبة ، ذهبوا مندهبه ونزعوا ما كان عليهم . وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه الف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا التي ما كان عليه وتزيابزيه حتى انه رأى يوماً في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففرغت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال : أفأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع والزهد . قال المسعودى : وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر لا جرم أن قدوة الامم رؤساؤها ، وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكت بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسود قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه على وجه الاجمال « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

غرفة سيدنا عمر ^{رضي الله عنه} ونبذة من سيرته

الخليفة الثاني الفاروق الاعظم أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه تقدم ذكر نسبه في صدر المقصد . شب على الشجاعة والنجدة . كان المسلمون في أوائله في حاجة الى قوى العصبية والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبينهم وكان ممن عرف

في قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام » يعني أبا جهل . فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين إليه عمر بن الخطاب فأسلم في ذى الحجة لمضى ست سنين من البعثة . أخرج الحافظ ابن الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أنه قال قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي قال كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فيينا أنا في يوم شديد الحر بالهجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الامر في بيتك قال قلت وما ذاك قال اختك قد صبأت قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان في طعامه وقد كان ضم الى زوج أختي رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ فقلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرءون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي اختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم قال قامت المرأة ففتحت لي الباب فقلت يا عدوة نفسها قد بلغت أنك صبأت وضربت بها بشيء كان في يدي فسال الدم فلما رأته المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل قد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطنييه فقالت لا لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطنييه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الى نفسي فاذا فيها « سبح لله ما في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم » قال فكلمت مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الى نفسي حتى بلغت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » حتى بلغت الى قوله « ان كنتم مؤمنين » قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحدوا الله عز وجل ، ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فان رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال « اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين اما عمر بن الخطاب واما عمر بن هشام » قال فقلت لم أخبروني بمكان رسول الله ﷺ . قالوا : هو بيت أسفل الصفا وصفوه . قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . قال وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامي ، قال فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب . قال فقال رسول الله ﷺ افتحوا له الباب فانه ان برد الله به خيراً بهمه . قال ففتحوالي وأخذ رجلان بعصدي حتى أدنوت من رسول الله ﷺ ، قال أرسلوه فأرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجميع قبصي فجذبني اليه ثم قال :

اسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده . قال فقلت : أشهد أن لا إله الا الله وأنت رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة اه . وروى أن عمر لما أسلم قال يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا . فقال عمر : والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالايمن . ثم خرج رسول الله ﷺ في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهن كآبة شديدة ، ومن يومئذ سماه رسول الله ﷺ الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم ، وأنزل الله « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى في البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا » أخرجه في أسد الغابة . وأخرج البخارى عن ابن مسعود أيضاً « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » كان قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله ﷺ مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبنضاً لمن أبغضه ، وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً لصدق لهجهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي ﷺ « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » رواه الترمذى . وفي رواية لأبي داود عن أبي ذر قال « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وكان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته نيفاً وعشرين ، منها آية تحريم الخمر فانه لما قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً نزلت آية التحريم . ومنها آية الحجاب ، ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال : اللهم حرم الدخول ، فنزلت آية الاستئذان . وفي البخارى خمسة عشر حديثاً في فضائله . وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : أتانى جبريل آنفاً فقلت يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب . فقال : لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبي بكر رضى الله عنهما وقال الابى سمى الفاروق لأنه فرق باسلامه بين الحق والباطل ونزل جبريل فقال يا محمد استبشر أهل السماء باسلام عمر . حفظ له من الحديث خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً في الصحيحين منها واحد وثلاثون . قال الشعبي : اذا اختلف الناس فخذوا بما قال عمر وقال : قضاة هاته الامة عمر وعلى وزيد بن ثابت وأبو موسى

تقدم أن أبا بكر رضى الله عنه عهد اليه بالخلافة فولياها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة . ولما تلا كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار . وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة

الامم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية أن كانا مثلاً لما بعدها يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقتهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء . في أسد الغابة عن علي رضي الله عنه قال : ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما اتعباً شديداً فذكرهما حزن للامة وطعن على الائمة اه . وحسب عمر رضي الله عنه من خلافته أن يكون مثلاً في العدل وحجة على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبته من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على أنه أعدل من ساس الامم وأعظم رجل في الاسلام . روى أن معاوية رضي الله عنه قال لصعصعة بن صوفان : صف لي عمر . فقال : كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته عارياً عن الكبر فابلاً للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريراً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محاب للقوى وغير جاف للغريب والحاصل أن فضائله رضي الله عنه كثيرة جداً شهيرة خصت بالتأليف وسنقص عليك بعضها

فتوح الشام

قد علم مما تقدم أن أول عمل قام به عمر رضي الله عنه عزل خالد بن الوليد عن الامارة العامة وتوسيدها لابي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه وعلم أن المسلمين انتصروا في وقعة اليرموك ولما هزم الله جند العدو وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاحماس وسرحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد اتباع الفلاة ولا يدري مجتمعون أو يتفرقون فاتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وان المبدد قد أتى أهل دمشق من حمص فحولوا يدرى أبادمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الاردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفير فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها وكان هرقل قبل انكسار جيشه باليرموك بأورشليم ولما جاء خبر انكسار جيشه رحل الى حمص

لما بلغ أبا عبيدة رضي الله عنه كتاب الخليفة بالذي ينبغي أن يبدأ به وهو دمشق امتثل وسرح عشرة قواد وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص وبعث علقمة بن حكيم وسروقا فكانا بين دمشق وفلسطين والأمير يومئذ يزيد بن أبي سفيان فقدم خالد ابن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخليل عياض بن أبي غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا دمشق ونزلوا حواليتها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية

ويزيد على ناحية فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً حتى تم فتحها والفضل في ذلك لأولئك الامراء وبالخصوص خالد . واتفق كثير من الرواة والمؤرخين على ان الذي تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد وأمضاه أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب الخليفة بعزله على امارته وهذا يدل على ان خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل أتى وهم على دمشق وكتبه أبو عبيدة ريثما تم الصلح

تفنيه : — ومن جميل سياسة عمر انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة وكان عماله جميعهم عرفوا باللين كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم ومع شدته رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بالرفق والعدل وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به كره الايغال في العقوبة أن أرسل الى أبي موسى الأشعري وقد شدد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

لما انتهى فتح دمشق أخذ أمراء الاجناد في فتح بقية الشام قرية قرية ومدينة مدينة كعجلون وبيسان وطبرية ومرج الروم وحمص وبعلبك وبيروت وأجنادين وغزة وناבלس وبيت جبرين وايليا (أى بيت المقدس) . والذي عقد الصلح مع أهل بيت المقدس الخليفة عمر رضى الله عنه قدم بطلب من الاهالى وصلى الصبح ببيت المقدس وعقد الصلح بنفسه اجابة لمطلبهم ثم وقع فتح حماه واللاذقية وقفسرين وانطاكية وغيرها من البلاد السورية وتم هذا الفتح بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضوناتها من العناء أشده وبدلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد غالباً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرفها في حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الاخرى وقتل منهم عدد كثير لاسيما في وقعة اليرموك ومن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه وخالد بن سعيد وهشام بن العاص وسهيل بن عمرو وابان بن سعيد وأضرابهم من صنديد قريش وأشرفها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال . روى الطبراني أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان وهند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان وبالجملة فقد لاقى المسلمون أشد الأهوال وصادموا عدواً استمات في حوزة الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه

القواد الذين حضروا هاته الفتوحات وهم من أنجاد قريش وسادتها ومن كان له البلاء الحسن خالد بن الوليد وأبو عبيدة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ومعاوية ووالدهما أبو سفيان وحبيب بن مسلمة وعياض بن غنم وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وابان بن

سعيد والذين هم من غير قريش فذو الكلاع الحميري وشرجيل بن حسنة والتعقاع بن عمرو والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مجزز وعلقمة بن حكيم وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشر النخعي وأبو أيوب المالكي ومعاذ بن جبل وغيرهم وقد كان لهم حسن ترتيب للجيش والمم بطرق البلاد وتقتن بأساليب الحرب وكان الخليفة وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء كيف يسرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما ينظر الى القطر على خريطة مصورة بين يديه

جغرافية سوريا

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (أى كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات والبادية وجنوبا جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بنى اسرائيل وغربا البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين والحثيين والآشوريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحوا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس والرومانيين واليونانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان من سنة ٦٥ قبل المسيح الى سنة ٦٣٣ م حيث ابتداء الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته سنة ٦٣٨ م أو سنة ١٧ هـ وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وكان على عهد الرومانيين متمسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهي فلسطين وتوابعها وانطاكية وتوابعها ودمشق وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه الاسلام أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر الى أربعة أقسام الاول قسم الثغور وهي حصص وقسرين وحلب وانطاكية وقاعدته حصص والثاني دمشق والثالث الاردن وحاضرتة طبرية والرابع فلسطين وهذا ينقسم الى قسمين قسم حاضرتة الرملة وقسم حاضرتة ايليا أى القدس

انتداب عمر رضي الله عنه لفتح العراق وفارس

اعلم ان عمر أول عمل قام به أيضا انتداب الناس لحرب الفرس وذلك ان المثنى بن حارثة رضي الله عنه كان منذ وفوده على أبي بكر رضي الله عنه في أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى ولاء قتالهم ثم ولي خالدًا مقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثنى أميراً على ما وقع فتحه من العراق دفعه الاقدام الى أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين

مملكة الأكلسة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر رضى الله عنه في حال مرضه ففاوضه في أمر الهجوم على فارس الا ان أبا بكر رضى الله عنه لم يسعه اجابة مطلبه لمرضه وأوصى عمر أن يندب الناس بعد توليته الخلافة مع المثنى وفي صبيحة الليلة التي دفن فيها أبو بكر قام عمر فانتدب الناس وأول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي انتدبه رضى الله عنه أميراً على الجيش وخرج في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ ومعه سعيد بن عبيد وسليط بن قيس والمثنى ابن حارثة فتقدمهم للحيرة ووقع القتال بين المسلمين والعدو بالتمارق وكان النصر حليف المسلمين ولما انهزم العدو أخذ في أثره الى كسكر ثم الى الحيرة ووقعت مقاتلة على جسر الفرات انهزم فيها المسلمون وقتل فيها أبو عبيد وسليط وجرح المثنى ولما انتهى خبر الهزيمة الى عمر رضى الله عنه اشتد عليه الامر ثم ان المثنى جمع القبائل التي حوله وبعث عمر رضى الله عنه بالبعوث وأمر عليهم أمراء كعرجة بن هرثة من زعماء العرب . أما الفرس فانهم لما أحسوا باجتماع العرب جمعوا كلمتهم بعد أن كانت في حال ارتباك وجمعوا جيشاً كثيفاً بالبويب أميره مهران ثم التحم القتال بين الفريقين واشتد الحال الى أن آل الامر الى اضطراب جيش العدو وقتل مهران وتم ذلك بحسن قيادة البطل الجليل المثنى بن حارثة ومات من أعلام المسلمين في هاته الواقعة ناس منهم خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى ولما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت أمور الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد وأخذ يستنضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون ما شاءوا من متاع ومال وبلغت غارتهم شرقاً قرب مدائن فارس وشمالاً الى الجزيرة فأوقعوا الرعب في قلوب الأعداء حتى قام لذلك الفرس وقعدوا وأجمعوا على تأمير يزيدجرد والتجهيز لحرب المسلمين ولما بلغ المثنى ذلك كتب للخليفة بذلك ولما وصل اليه الخبر كتب الى عماله على العرب والركور يستحثهم على الاستنفار ووافاه بعض القبائل الى المدينة وبعض القبائل انضموا الى المثنى ورأى من السداد أن لا يفوته أمر خاصة المسلمين وعامتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه والخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه بالمدينة وبعد استشارتهم قام خطيباً فقال :

« أما بعد فان الله عز وجل جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما أجمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . أيها الناس ، انى كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوى الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت لهذا الأمر من قدمت ومن خلفت » اهـ . ويعنى

بن خلف عليا وطلحة لانيهما لم يحضرا الرأي الاول ولما انتهى من خطبته أشار عليه طلحة وعلى
 بما أشار اليه العامة ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني أقم
 وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس
 كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم في آنف الامر خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا ان
 لا إله إلا الله أبداً اه . فأخذ رضى الله عنه برأى عبد الرحمن رضى الله عنه وأمر على الجند
 سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عامله على هوازن ودعاه وأوصاه بوصية ثم خرج سعد ومعه
 أربعة آلاف من اليمن وغيرهم وفيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم خبيصة بن النعمان
 البارقي وشداد بن ضمضج الحضرمي وعمرو بن معدى كرب وشرحبيل بن السمط الكندي
 وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها وخطب خطبة عند مشايعتهم وسار الجند حتى انضم الي
 جند العراق الذين كانوا مع المثنى فكان عدد الجند الذي شاهد وقعة القادسية ثلاثين ألفاً
 وفي أثناء ذلك توفي المثنى بن حارثة الشيباني أمير جيش العراق من أثر انتقاض جراحة أصابته
 في وقعة الجسر المتقدم ذكرها وكان رضى الله عنه على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والنظر
 البعيد في شئون الحرب لا يدانيه الا خالد بن الوليد ولما تم لسعد الاستعداد انقشب القتال
 بينه وبين عدوه وانتهى بفل جموع الفرس وفتح القادسية وأقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب
 للخليفة فيما يفعل فكتب اليه يأمره بالمسير الى المدائن فسار اليها لأيام بقين من شوال سنة ١٥
 أو سنة ١٦ وفتح في طريقه بابل ثم دخل المدائن وهي عاصمة الاكسرة بعد حصار شهرين
 وهرب منها كسرى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس ما لا يعد وجعل
 سعد ايوان كسرى مسجداً . وموقع المدائن على دجلة من الجنوب الغربي من بغداد ولم يبق
 غربي دجلة الا أرض العرب وكلهم آمنوا واغتبطوا بملك الاسلام ثم أرسل جيشاً بقيادة ابن
 أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وفتحها بعد ان فر كسرى منها الى الرى وفي
 أثناء اقامة سعد بالمدائن وقع فتح تكريت والموصل ثم تحول للكوفة بعد ان اختطها بأمر من
 الخليفة وسنشرح الكلام على تكريت عند التعرض لفتح الجزيرة ثم وقع فتح الأهواز
 وسوس وئسّر . والأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس وكان بها الهرمزان
 وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس فانهزم بهزيمتهم فجاء
 الى الأهواز فتولى أمرها وكانت وقعت منه عهد أثناء وقائع تقدمت فنقضها ولما وقع فتح الأهواز
 طلب الهرمزان الامان على أن ينزل من القلعة التي اعتصم بها على حكم أمير المؤمنين عمر رضى الله
 عنه فتزل على حكم ذلك واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سبهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل في وقعة
 الأهواز جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بيدهم وسند كرام آل
 اليه أمر الهرمزان ان شاء الله بعد . ثم وقع فتح جندى سابور بعد أن حاصرها زر بن عبد الله بن كليب

ثم ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اهتم بفتح بقية ممالك الفرس فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش والامراء ، فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة وبعث ألوية مع سهيل بن عدي فقدم بها ، ودفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ، ولواء سابور الى مجاشع بن مسعود السلمي ، ولواء اسطخر الى عثمان بن العاص الثقفي ، ولواء نهاوند الى سارية بن زعيم الكنانى ، ولواء كرمان الى الحكم بن عمير التغلبي ، وسارت هاته الجيوش كل جيش الى وجهته بعد أن أمدهم بامدادات . وفي غضون خمس سنين تم الفتح الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً و حرباً فبلغت ولاية أذربيجان شمالاً وسجستان من ولاية افغانستان ومكران من ولاية السند شرقاً وبحراً الهند وخليج فارس جنوباً وكرديستان والجزيرة غرباً ، واختلف في فتح خراسان هل كان في خلافة عمر أو عثمان رضى الله عنهما ، وكانت وقعة نهاوند أعظم الوقائع وأحسن فتح وفيها من القواد العظام وزعماء العرب جماعة منهم حذيفة بن اليمان وأميرهم البطل الجليل النعمان بن مقرن المزني ، وكان فتحها بعد حصار طويل ، ومن قتل في هاته الوقعة طليحة الأسدي وعمرو بن معدى كرب الزبيدي ، ودخل الجيش المدينة بعد هزيمة الفرس واحتوا على ما فيها وجمعوا الأسلاب الى أمين المال السائب بن الأقرع وجاءهم الهرم بن صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فأعطاه حذيفة بن اليمان فأخرج له تلك الذخيرة التي كان أعدها لنوائب الزمان ، فأجمع رأى المسلمين على رفعها لعمر رضى الله عنه . ولما تم الفتح طلب الفرس الامان وأجيبوا لذلك على شروط منها : ارشاد ابن السبيل واصلاح الطرق ، وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الرجل ألفين ورفع ما بقي من الاخماس الى السائب بن الأقرع وهو خرج بها الى عمر رضى الله عنه مع ذخيرة كسرى ، وتقدم الرسول بنخبر الفتح وهو طريف ابن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر ينتظر أخبار نهاوند فلما جاء وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان رضى الله عنه بكى حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضى الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين حريصاً على حياة القواد ويحزن حزناً شديداً اذا أصيب أحد منهم ، ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت بالمسجد وأمر عمر نفرأ من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وهي جوهر ثمين وأخبره خبرها وأن الناس رضوا بأن يكون له . فقال له عمر : يا ملىكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمها على من أفاءها الله عليه . فأقبل راجعاً حتى انتهى الى حذيفة فباعها فأصاب أربعة آلاف ألف (أربعة ملايين) وذلك غاية في عفة عمر رضى الله عنه

قلت : وأخلاقه رضى الله عنه كاخلاق الانبياء عليهم السلام الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها وفي قصة الهرمزان الآتية قريباً ما يصدق ذلك ، فانه لما رأى عمر رضى الله عنه ورأى ما رأى

من أخلاقه قال : ان عمر ينبغي أن يكون نبياً . فقالوا : ليس بنبي ولكنه يعمل عمل الانبياء .
 فقد بان لك من تلك المقالة أخلاق هذا الخليفة العظيم الذي دوخ ملك فارس والروم وأرعبت
 سطوته الأمم وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وافريقية الشمالية غربا ومنحه الله هذا
 الملك العريض والسلطان ومع هذا فإنه لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى
 رعاياه إن هذا هو العدل الذي ليس فوقه عدل ، فيمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملا
 الاذهان خبره حتى عدته المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى أننا لنفخر به على ملوك
 الارض رضى الله عنه وأرضاه

رجوع الى خبر الهرمزان

تقدم أن الهرمزان نزل من القلعة التي تحصن بها بامان على حكم أمير المؤمنين وبعد نزوله
 أوفد أبو سبرة الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما
 اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ، ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هاته
 الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً في ميمنة المسجد متوسداً برنسه
 فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره فقال الهرمزان أين عمر ؟ فقالوا هو ذا . فقال أين حرسه
 وحجابه ؟ فقالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال ينبغي أن يكون نبياً فقالوا يعمل
 عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان
 فقال نعم فتأمل وتأمل ما عليه وقال الحمد لله الذي أذل بالاسلام هذا ، يا معشر المسلمين تمسكوا
 بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فاتها غرارة . هيه يا هرمزان كيف رأيت
 وبال الغدر وعاقبة أمر الله . فقال : يا عمر ، انا واياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم
 فقلبتنا كم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية
 باجتماعكم وتفرقتنا

وحاصله أن استقلال الامم وتفرقتها تابع لاجتماع الكلمة وتفرقتها

فتح الجزيرة

وهي القسم الشمالي من الارض الواقعة بين الفرات ودجلة والجنوبي منها هو العراق العربي
 وكلاهما كان من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب لهذه البلاد من أزمنة
 متطاولة قيل انها تمتد الى ما بعد سيل العرم وقاعدة الجزيرة الموصل وكان فتحها وفتح تكريت
 على يد عبد الله بن المعتم وربيع بن الافكل وكان بينهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل

بل كان فتح الموصل على يد عياض بن غنم الفهري القرشي لما فتح الجزيرة سنة ١٨ وهو من أكبر الفاتحين وأبو عبيدة ابن الجراح بن عمه وهو أمير الجيوش ولما توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس في السنة ١٨ تولى عياض عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف إليه عمر الجزيرة وأمره بفتحها ففتحها . والحاصل أن فتحها قيل كان من قبل سعد وهو بالعراق وقيل من قبل أبي عبيدة وبلغ عياض في الفتح بادية الشام غرباً وأرمينيا وكرديستان شرقاً وتوفي سنة ٢٠ . ولما تم الفتح صلحاً كتب لأهل الرها بذلك ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا الى على كل رجل ديناراً ومدى قمح فاقم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال واصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلم . شهد الله وكفى بالله شهيداً

فتح مصر وبرقة

كان عمرو بن العاص رضى الله عنه شديد التطلع الى مصر راغباً فتحها لأنه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم الخليفة عمر رضى الله عنه الجاية في سنة ١٨ اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهون عليه أمر مصر ورغب إليه أن يوليها فتحها فتردد عمر رضى الله عنه في الأمر لان جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجرز معه أربعة آلاف فارس كلهم من عك وقال له سر وانا مستخير الله في مسيرك ثم أمده بأربعة آلاف ثم بأربعة آلاف آخرين وكتب إليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير ابن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وان معك اثني عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة وكان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شئ معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شئونها وترتيب خراجها وتقدير أسباب الراحة والامان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله عثمان بن عفان رضى الله عنه وستأى ترجمة هذا الفاتح العظيم وزبدة القول في هذا الفتح ان المقوقس لما أحس بالغلبة فر بجنده من حصنه بعد حصار شديد الى منف وبعث لعمرو كتاباً طالباً فيه توجيه رجال ليكون الاتفاق على يدهم فأرسل

عمر وكتاباً مع عشرة نفر رئيسهم عبادة بن الصامت وكان هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار فتقدم اليه عبادة في صدر أصحابه فهابه المقوقس وطلب تقديم غيره فأجابوا ان هذا الاسود أفضلنا وأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا ونرجع جميعاً الى قوله ورأيه وقد أمر الأمير أن لا يخالف له فقال للمقوقس لعبادة تقدم وتكلم برفق فألقى عبادة خطبة أتى فيها على المراد بأفصح عبارة وألطف إشارة ولما انتهى كلامه قال المقوقس لمن حوله بلغتهم ما سمعت مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لا هيب . ثم قال له عبادة بيننا وبينك خصلة من ثلاث خصال فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا : اما الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته ، أمر الله أن نقاتل من غلبه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فان قبلت أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل إذا كم ولا التعرض لكم وان أيتيم إلا الجزية فأدوها الينا وأن نعاملكم على شيء نرضى به ونحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم وأن نقاتل عنكم من نأواكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم وتقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان أيتيم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم هذا ديننا ولا يجوز لنا غيره فانظروا لانفسكم . وبعد محاورات دارت في النازلة تركنا ذكرها اختصاراً ، قال المقوقس : أعلم أميرك اني لا أزال حريصاً على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال وانى أريد أن نجتمع به مع جماعة من أصحابي فان استقام الأمر بيننا تم والارجعنا الى ما كنا عليه . ثم اجتمع عمر والمقوقس وكتبوا الصلح بأن يعطوا الأمان للمصريين وهم يدفعون الجزية . ولما استتب لعمر والامر بمصر صار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه أهلها على الجزية وصار الى طرابلس الغرب ففتحها وكتب الى الخليفة عمر رضى الله عنه : أما بعد ، انا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افرقية تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل . فنهأ عمر وولى على برقة عقبة ابن نافع الفهري . هاته خلاصة أخبار هذا الفتح في خلافة عمر رضى الله عنه

تنبيه : — اعلم ان العرب أمة حربية قل أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والاقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وجهم للفارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الا انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أى آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضهم بعضاً ويثب بعضهم على بعض

ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح إلا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعادتهم حظ بلجيد من أنواع هذا السلاح لفقروهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقهم في الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ، ولما جاء الاسلام جمع هذه الأئمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا أن دب فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك أن خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا في قتال جنود الدولتين من التقنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم في كل مكان

فمن ذلك أنهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون في داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم ردةً أى مرداً يحصى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم ومنها أنهم كانوا لا يحاصرون مدينة ما لم يقطعوا عنها طرق المواصلات مع جيش العدو ومنها أنهم كانوا يبدأون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية حتى اذا أصابتهم هزيمة تكون جزيرة العرب من وراءهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم ومنها براعتهم في اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو والاستعداد لصد غاراته

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كما تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ ، وتفوقهم في أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسبأ الخليفة عمر رضى الله عنه الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد في الاعمال الحربية وكيفية الهجوم والدفاع على وجه يدل على أنه من أعظم قواد الجيوش في العالم ، هذا فضلاً عما كان يوصى به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالأيذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهرة والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم في المهالك والترتيب في الحرب والتبصر في أمور القتال الى غير ذلك

وأما تعبئة العرب للجيوش في ابان الفتح الذي مر ذكره في هذا الكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام ، ولندكر لك كيفية تعبئتهم للجيوش في وقائهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهاما تظهر لك مرتبتهن في فنون الحرب ومكانتهن من البصيرة في تعبئة الجيوش التي تشبهها من كل الوجوه تعبئة الجيوش في هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء والمدد والرجل (المشاة)

والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو وصاروا في الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون في المراتب فمنهم الامير العام (المشير الآن) وويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبئة كأمر الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الأولوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الامير الايات الآن) ويليهم أمراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وامراء الأعيان (الجاويز والنقباء) ولعلمهم رؤساء المائة . وفضلاً عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد يرتاد المواضع المواقفة لنزول الجيش والقاضي وأمر الاقباض الذي ينتهي اليه حفظ الغنائم وقسمة الفداء والترجمان والسكراتب والاطباء لمداواة الجرحى

روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد عبي جيش المسلمين يوم اليرموك تعبئة لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو ابن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وجعل عليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القمعاق بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومدعورا بن عدى على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن أبي جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش ، وأما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميري والسمط بن الأسود الكندي وضرار بن الأزور الاسدي وأضرابهم من صناديد العرب وكان القاضي أبو الدرداء وابن مسعود على الاقباض وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال . هكذا كانت تعبئة جيش اليرموك

وأما القادسية فكانت أحسن من ذلك وأرق نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص قدر الناس وعبأهم كما أمره عمر رضي الله عنه فأمر أمراء الاجناد وعرف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ . قال الطبري: وكذلك كانت الى أن فرض العطاء وأمر على الرايات رجلا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاشرار رجلا من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى الحرب رجلا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أى من شراف) الا بتعبئة فأما أمراء التعبئة فاستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم واستعمل على الميسرة شرحبيل ابن السمط الكندي وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن

ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل جمال بن مالك الاسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذى
السهمين الخنمى فكان أمراء التعبئة يلون الامير (أى بعده فى المرتبة) والذين يلون امراء
التعبئة امراء الأعشار و الذين يلون امراء الاعشار اصحاب الرايات والذين يلون اصحاب
الرايات والقواد رؤوس القبائل . قال الطبرى : وبعث عمر رضى الله عنه الاطباء وجعل على
قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة النىء وجعل
داعيهم ورائداهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجرى والكاتب زياد بن ابى سفيان

وبالجملة فان تعبئة الجيش على عهد عمر رضى الله عنه كانت وافية بالغرض من كل الوجوه
وصرف العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ، ويرفع شأن الخلافة ويضاف اليه
براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعم الاخرى الذى كان
يجب اليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء وصبرهم على المكاره
وتحملهم لشظف العيش ، ورضاهم بالكفاف من القوت ، واستخفافهم بمجنود الاعداء قلوبا او
كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس
وهذا من أهم الاسباب التى رجحت جانب المسلمين على جانب الاعداء ، ومهدت طرق
الغلبة بجيوش من العرب والذى وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم
على كلمة الاسلام بعد التخاذل والاتقسام

أوليائه - فيها كتابة التاريخ الهجرى

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت
بمناسبة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك فى عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا
وهلم جرا واستمر ذلك فى الاسلام الى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر رضى الله عنه فرأى
لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث حيث انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط
الشئون والاعمال فى الحكومة الاسلامية ، فجمع الصحابة واستشارهم فى ذلك وسألهم من أى
يوم نكتب التاريخ ؟ فأشار عليه على رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر فيها
رسول الله ﷺ الى المدينة ففعل

ومنها - تدوين الدواوين وفرض العطاء

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة
الاسلام فى خلافة أبى بكر وصدرأ من خلافة عمر فى مبادئ الظهور وعدم اتساع السلطان ولم

يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التي كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وأما المغنم والنيء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التي يبعث بها الى المدينة الى صرف العناية في ترتيب الشؤون الادارية على اصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم . وانما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ، ولما توسع المسلمون في الفتح انتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد النىء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وامرأته بضبطها ، ولا قبل لهم باحصاء مستحقيها ، وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على اصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة . دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم في تدوين الديوان ، وحيث كانت النتيجة الموافقة على رأيه دعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا . والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما فى القاموس ، وتوسعوا بسماء فأطلقوه على كل دفتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذى يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ومنها ترتيب العمال وتقسيم الولايات ، ومنها اتخاذ دار الدقيق يعين به المنقطع ، ومنها توسعة المسجد النبوى ، ومنها ضرب النقود . كان العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدراهم واستمر ذلك الى صدر من خلافة عمر فلما كانت سنة ١٥ هجرية ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها ، غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله . وفى بعضها محمد رسول الله وجعلها كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل ذكر ذلك المقرئى فى النقود الاسلامية ، ولم يضرب رضى الله عنه الدينار وضربها انما كان على عهد عبد الملك بن مروان . ومنها اتخاذ بيت المال ، ومنها قيام شهر رمضان ، ومنها العقاب على الهجاء ، ومنها الجلد فى الخمر ثمانين ، ومنها وضع البريد وهو اسم للمسافة التي بين كل محطة من محطات البريد وهى أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا فيه الآن فأطلقوه على أكياس البريد وأصله من وضع الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الامم ثم استعمل فى الاسلام وأول من استعمله عمر رضى الله عنه ، ثم ان معاوية بن أبى سفيان رتبته على اصول معروفة ووضع له الخليل وأقام له المحطات ، ومنها جمع الناس فى صلاة الجنائز ، ومنها تمصير الامصار ، ومنها التسمية بأمر المؤمنين ، ومنها اقامة الجسور والطرق وحفر الترع وارشاد الضال . فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له . » أى رضى فعله وقبله منه وأثنى عليه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قلت : يا نبي الله علمنى شيئاً أنتفع به . قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » الأذى : عزل الأذى عن

الطريق من شعب الايمان ، ويلحق بالشوك كل مؤذ من حجر يعثر به أو جيفة أو قدر أو غير ذلك ويدخل فيه كل من أدخل نفعاً على المسلمين أو أزال عنهم ضرراً لأن ذلك من النصيحة الواجبة للمسلمين بعضهم على بعض التي يابح النبي ﷺ أصحابه على النصيح لكل مسلم في حضرته وغيبته فيما يرجع لدينه ودنياه اهو ومنها اقامته والياً للحسبة ومنها استقضاء القضاة في الامصار

قضاة

كان رضى الله يتولى القضاة بنفسه وينيب غيره لما هو معروف من أن القضاة في الاسلام وظيفة من وظائف الامام له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره ، وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريره في انتخاب الولاة لا يراعى في كليهما إلا الاهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم أن إثم الظالم اذا ظلم على موليه ، فقد أخرج ابن الجوزى في المناقب عن عبد الملك بن عمير قال قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطالح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس . ففي كثر العمال عنه رضى الله عنه أنه قال : ردوا الخصوم حتى يصطالحوا فان فصل الخصومة يورث الضغائن بين الناس

كتابه في القضاة الى أبي موسى الأشعري

اعلم أن الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا . فصاحب الشرع يتصرف في الامرين : أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشرى وهو ضرورى للبشر وان رعايته مصالحه كذلك لئلا يفسد ان أهملت . وتصرفه الدينى يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين ، منها : الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة . وأول خليفة دفع القضاء لغيره وفوضه فيه عمر رضى الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وكتب اليه كتاباً تركنا ايراده هنا اختصاراً وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له الكتاب المشهور الذى تدور عليه احكام القضاء ونصه :

اما بعد : فان القضاء فرضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك (١) ، وانفذ اذا تبين

(١) قوله أدلى : رفع لك الامر وجيء به اليك

لك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، وسو بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس وراجعت فيه نفسك وهديت فيه لشكك أن ترجع عنه الى الحق فان الحق قائم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتلجلج^(١) في صدرك ما ليس في كتاب ولا سنة اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفي للشك وأجلى للعمى وابلغ للعذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنياً^(٢) في ولاء أو قرابة فان الله سبحانه قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات ، وإياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه هتك الله ستره وأبدى فعله . اه بعد التحرى

وقد نقل هذا الكتاب غير واحد منهم ابن خلدون والتسولى والبيان والتبيين وله رضى الله عنه كتب كثيرة بارعة وخطب عزيزة غزيرة نافعة تركنا ذكرها اختصاراً الى هنا انتهى ما أردت ايراده من أخبار عمر رضى الله عنه . ومنها تعلم كيف كان هذا الرجل العظيم والشهم الهام الفخيم فيتمثل لك في صورة من النور وجسم من الفضيلة والكمال وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الامم ويقتدى بسيرتهم أرباب الهمم ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل أن تجتمع في عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب وكل أخلاقه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع والتكلف وأخباره كثيرة لا يمكن استقصاؤها وكانت فيه خلال رضى الله عنه جعلت الأمة تحبه فقد عرفوا منه قبل كل شيء أنه فنى في مصلحة أمته لا يهيمه في أمر نفسه شيء إلا أن يكون مع الله في جميع أمره لا يرى لنفسه حقاً أن يتمتع في هذه الدنيا بأكثر مما يتمتع به أفقر رجل من أمته ، تجد ذلك في ما كله وملبسه ومشربه ، ثم عرفوا منه أنه للعامة قبل الخاصة بكل هؤلاء الى ما لهم من الجول والحيلة في الحياة الدنيا ويقبل على عامة الناس وضعفتهم فيقويهم ويسودهم وينظر في صغار أمورهم وكبارها ، لا يبالي بما يصيبه من تعب الجسم فيما هو بسببه ، لذلك كانت قوة الامة معه ، وعرفوا منه أيضاً خلاصاً أدبه فيها القرآن وهى : الحق والعدل والصدق والصبر على البأساء والضراء والوفاء بالعهد

(١) قوله يتلجلج : أي يتردد

(٢) قوله ظنياً هو المتهم بسبب قرابة أي ولاية

وهي صفات تحلى بها عمر رضی الله عنه فأعجب من بعده ، وكان من أخص صفاته الجدا المصحوب بالحزم مع التأنى في الامور والاستشارة في جليها وصغيرها ، لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور ، من ذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده الذي توفق اليه صاحبه من أول عهده بالخلافة الى وفاته . وسبب هذا التوفيق هو الجدا والحزم وعدم التردد في الامر وتمحيص الاشياء ، شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد ، ولو بحثنا في التواريخ القديمة والحديثة لوجدنا في كل أمة رجلا أو رجلا من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم لكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيهم الخصال السامية والأخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر رضی الله عنه

نعم ان من مشهورى الرجال رجلا أسسوا ملكا عظيما أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثير فوق ما نال ، لكن هل كان منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً لا عن ضعف شجاعاً غير متهور قنوعاً غير شره زاهداً بغير تصنع حلماً من غير جبن تقياً غير متنطع ؟ كلا لا سيما اذا نشأ بين قوم كقومه خالم من البداوة معروف . والحاصل ان التاريخ حكم عدل وقد جاء تاريخ عمر حافلاً بالخصال الحميدة والامور الجسام التي جعلته سابقاً على كل من أتى بعده وجعلت كبار أصحاب رسول الله ﷺ يشعرون بأن الاسلام قد بقده أثبت أركانه

وفاته رضی الله عنه

استشهد رضی الله عنه من طعنة بمنجبر من أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وقت صلاة الغداة روى المؤرخون انه شكا الى عمر ارتفاع الخراج الذي ضرب به عليه مولاه المغيرة ورجاه في تخفيفه واختلف المؤرخون في جواب عمر رضی الله عنه فقال بعضهم انه وعده خيراً أو عزم أن ينادى كرمغيرة في تخفيف الخراج عنه . وهناك روايات أخرى تختلف في جوهرها عن هذه ، ويؤخذ من أقوال المؤرخين ان قتل عمر لم يكن نتيجة حقد الغلام عليه وعدم تخفيف الخراج عليه ولكنه كان نتيجة مؤامرة سياسية كان أكبر العاملين فيها الهرمزان وجفينه وكعب الاحبار الذين حقدوا على عمر تدوينه لبلادهم مما هو مفصل في التاريخ وقد اصطنعوا أبا لؤلؤة لتنفيذ غرضهم في العقد الفريد عن ابن عباس رضی الله عنهما قال دخلت على عمر في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة نصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجى نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض بيديه ورجليه وأشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول

ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة في أكلها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائي درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً ثم بكى وبكى الناس معه فقلت أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وإن المسلمين راضون عنك قال رضي الله عنه المعروف بالله من غررتموه أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطمع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال لما طعن عمر قيل له أمير المؤمنين لو استخلف قال إن تركتكم فقد تركتكم من هو خير مني وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فإن سألتني ربي اقلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له لو أنك عهدت الى عبد الله فإنه أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال فحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا على ثم قالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال كنت أجمعت بعد مقاتلي لكم أن أولى رجلاً أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار الى علي بن أبي طالب ثم رأيت أن لا أحمليها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي ﷺ أنهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلاً فاذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته أي معاوونته

وروي انه لما ثقل قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلى ويلى أمي ان لا يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلى عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله ﷺ ودفن بجانب أبي بكر وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك على وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا إله إلا الله ما أحرضكما على الامرة أما علمتا أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب

وفي أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد قال طعن عمر يوم الاربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت خلافته عشر سنين وخمسة اشهر وواحداً وعشرين يوماً وقال غيره هذا وهم توفي لأربع ليال بقيت من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة وكانت ولادته بمكة سنة ٣٧ قبل الهجرة

وصيته لمن يخلفه

اخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع الى عمر كتابا فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقراءه مني السلام فاذا فيه اوصى الخليفة

من بعدى بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم وأوصيه بالانصار خيراً « الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » الى قوله « المغلحون » ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن سيئهم وان يشركوا في الامر وأوصيه بذمة الله وذمة محمد ﷺ « وهم اهل الذمة » ان يوفى بعهدهم ولا يكافوا فوق طاقتهم يقاتل من وراءهم « اى بحميهم » اهـ

هكذا كانت حياة هذا الرجل العظيم الطاهر السريرة الذى فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط العدل وبث روح الجد والنشاط في العرب واسس لهم ذلك الملك العريض وقل بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العقاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررتة شريعة محمد عليه الصلاة والسلام سعدت بحياته الرعية ودخل الامم في طور جديد من الحرية والعدل والامن والراحة وبلغ به الحرص على ذلك البزار الطيب الذى بزره في المسلمين الذى يدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التى اكتسبها من النبي عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

الحالة الاجتماعية على عهد

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضى الله عنهما اذ توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الامة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر فى التاريخ بانها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة المليية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتمتزله أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الامة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك المجاورة لها وهى فارس والروم على نحو ما تقدم ذكره

ثم خالط العرب تلك الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أهبة الحضارة واستشعروا بلزوم الحالة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر والشرع الالهى الذى دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاورهم فى العادات وبدأوا يبارزونهم فى مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاورهم فى الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة التاريخ ودون الدواوين ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض

الاعطيات وقرر مصروف النىء فى غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الامن واقام ميزان العدل وقرر اصول الجباية بلا اجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وابتدت مظاهر العمران تتجلى فى انحاء المملكة وانهاى الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتخوشن فى المأكل والملبس والتوسط فى العيش والقصد فى الانفاق والامسك عن البذل خوف الاخذ على ايديهم من عمر رضى الله عنه كما اخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من اشراف العرب هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضى الله عنه لم يدع للعرب بعد اذ دفع بهم فى غمار الحضارة وقذف بهم فى مضمار الحروب وقتاً للاخلاق الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح والهامم بادخار الغنائم عن التمتع بها ريثما يأمن غائلة الامم المغلوبة وله بهذا ما رب اخرى وهى اشغال العرب بالحرب وزجهم فى مضمار الفتح ليانسوا باصول الاجتماع والحضارة وتتبدل اخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم اسباب التنافر والاقباء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشرق واستفتحوا اغلاق الكنوز وملكوا ممالكها من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرم الغنى والسلطان بالنعيم ولم ييطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الا خطى قليلة الى الامام فكانوا وسطاً فى المعيشة فى كل الامور لان عمر رضى الله عنه يريد على البطء فى السير فى طريق الترقى ويحملهم على التوسط فى العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعا اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته فى التشفى وشظف العيش . وبالجملة فان الحالة الاجتماعية على عهد عمر رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها فى تسم ذرى الارتقاء تمثلها سيرته فى قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك فى مظهر النهوض الى ارتقاء قم المجد التى انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعناء السفر الشاق المتلذذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال

فضائل عثمان رضى الله عنه

هو الخليفة الثالث أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان القرشى الاموى . تقدم ذكر نسبه فى صدر المقصد يكنى أبا عمرو وأبا عبد الله لم يختلف فى صحة خلافته وكان من حديثها ما هو مسطر فى كتب السنة وغيرها فى البخارى فى باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان عن عمرو ابن ميمون ونص محل الحاجة منه قال قال عمر رضى الله عنه لابنه عبد الله انطلق الى عائشة أم المؤمنين قتل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل

يستأذن عمر بن الخطاب ان يرفق مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال
 اقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن ان يرفق مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى
 ولاؤثرنه به اليوم على نفسى. فلما أقتل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فأسنده
 رجل اليه فقال مالديك فقال الذى تحب يا أمير المؤمنين اذنت قال الحمد لله ما كان شىء أهم الى
 من ذلك فاذا انا قبضت فأحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان اذنت فأدخلوني وان ردتني
 ردوني الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فوجلت
 عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجل فوجلت داخلهم « أى مدخلا كان فى الدار » فسمعنا
 بكاءها من الداخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحق بهذا الامر من
 هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فسمى عليا وثمان
 والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شىء
 كهيئة التعزية له فان أصابت الامرة سعدا فهو ذلك والا فليستعن به أيكم ما أمرتني لم أعزله عن
 عجز ولا خيانة. وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حتهم ويحفظ
 لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوأوا الدار والايان من قبلهم أن يقبل من محسنهم
 وأن يعفو عن سيئهم وأوصيه باهل الامصار خيرا فانهم رده الاسلام وجياة المال وغيبظ العدو
 وأن لا يأخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب ومادة
 الاسلام أن يأخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بدمه الله وذمة رسول الله
 ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكافوا إلا طاعتهم . فلما قبض خرجنا به
 فانطلقنا عشى فسلم عبد الله بن عمر قال يستأذن عمر بن الخطاب قالت ادخلوه فوضع هناك مع
 صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن اجعلوا الى ثلاثة منكم فقال الزبير
 جعلت امرى الى على فقال طلحة قد جعلت امرى الى عثمان وقال سعد قد جعلت امرى الى عبد الرحمن
 ابن عوف فقال عبد الرحمن أيكما تبرا من هذا الامر فنجعله اليه والله عليه « أى رقيب »
 وكذا الاسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أتجعلونه الى والله
 على أن لا آلو عن أفضلكم قالا نعم فاخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ
 والقدم فى الاسلام ما قد علمت بالله عليك لكن امرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن
 ولتطيعن . ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك . فلما أخذ الميثاق فقال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع
 له على وولج أهل الدار فبايعوه

كان رضى الله عنه من السابقين للاسلام هاجر المهاجرين وصلى القبليتين يقال له ذو النورين
 لانه تزوج ابنتي رسول الله ﷺ رقية فلما ماتت زوجته أم كلثوم فلما ماتت قال لو كان
 عندي ثلاثة لزوجتكها وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن أصحاب النبي ﷺ الذين توفى

وهو عنهم راض وكان في قريش يوصون اليه ويعظمونه وكانت المرأة في العرب لترفع صبيها وهي تقول: أحبك والرحمن ، حب قريش عثمان
 وكان عادلاً في بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيئاً لأنه كان غنياً وغناه مشهور في حياة النبي ﷺ وبعده كثير الانفاق في نهاية الجهد والسباحة والبذل في القريب والبعيد وكان من أكبر المساعدين للنبي ﷺ بكثير من ماله عند شدة احتياج الاسلام اليه وما أثره في ذلك مشهورة
 جهز في جيش العسرة ثلاثمائة بعير بأسلحتها وأقتابها وأنزل الله فيه « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
 روى الحكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة وحين جهز جيش العسرة ولما قدم النبي ﷺ المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال ﷺ من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشترها عثمان رضي الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين وكانت بقعة الى جنب المسجد فقال النبي ﷺ من يشتريها ويوسعها في المسجد فله مثلها في الجنة . فاشترها عثمان رضي الله عنه بعد ذلك فوسعها في المسجد وقال ﷺ رحم الله عثمان تستحيه الملائكة وكان كثير العتق للرقاب وجملة ما أعتقه ألفان وأربعمائة وكان يطعم طعام الامارة ويدخل بيته ويأكل الخبز والزيت وينام في المسجد ورداؤه تحت رأسه ويخطب الناس وعليه رداء غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة يصوم النهار ويقوم الليل ويحتم القرآن في ليلة . كان ذا عقل رصين وشرف أثيل وعلم غزير ولم يتقل عنه الكثير منها لاشتغاله بغير ذلك شديد الحياء والحلم ما تلا الى السلم زاهداً في الدنيا فقد صح عنه ﷺ أنه قال : رحمتك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك

ومن أعظم آثاره جمعه الناس على مصحف واحد بعد أن تعددت القراءات واختلف فيها أهل الامصار . وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جمع القرآن وقد مر بيان ذلك في مقدمة هذا المؤلف وكثرت الفتوحات في مدته فقد فتح افرقية وسواحل الاردن وسواحل الروم واصطخر وطبرستان وسجستان والقوقاز وغير ذلك من الاقطار والامصار وكثرت أموال الصحابة في خلافته حتى بيعت جارية بوزنها وفرنس بمائة الف ونحلة بألف . قال الحسن البصري : كانت الارزاق في زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً وظهر الرفه الكثير في الامة بما لم ير مثله ، لم يحضر بديراً باذن من النبي ﷺ ولا بيعة الرضوان وذلك لما أرسله رسول الله ﷺ الى أهل مكة رسولا ليخاطبوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بأن عثمان قتل فجمع أصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بأن عثمان لم يقتل وهذا يدل على مكانته عنده وحبه له . أخرج الترمذي عن أنس قال : لما أمر رسول الله

ﷺ ببينة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ الى أهل مكة فبايع الناس .
 فقال النبي ﷺ « إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله » فضرب بإحدى يديه على الأخرى
 فكانت يد رسول الله ﷺ خيراً من أيديهم لأنفسهم
 إلا أنه رضى الله عنه كبر سنه وضعف جسمه وكان له ثقة في قرابته بنى أمية فتغلبوا على
 أمره وتولوا أعظم الولايات وانتقموا وراء ذلك بسعة العيش ووجاهة في الدولة حسداً
 عليهم غيرهم ، فوجدت الجمعيات السرية التي كانت تكيد الاسلام بالطعن فيه مع استغنائهم بينى
 أمية عن مشاورة أكابر المهاجرين والانصار ونعم الطاعنون عليه أشياء بعضها لها مخرج
 وبعضها مكذوب عليه ذكرها الأبي في شرح مسلم ، وجماعة من العلماء كلام طويل الذيل في
 الاعتذار عن عثمان منهم حافظ الحجاز المحب الطبري في كتابه الرياض النضرة في فضائل العشرة
 ومنهم محمد بن يحيى الأشعري المعروف بابن بكر في كتابه التمهيد والبيان في مقتل عثمان استوفى
 فيه الكلام على ما نسب لعثمان من الاحداث وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث
 التي تسبب عنها حصره في داره وطلبوا منه التخلي عن الخلافة فامتنع واستشهد رضى الله عنه
 لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته ثنتي عشر سنة إلا اثني
 عشر يوماً وكان عمره اثنين وثمانين على أحد الاقوال . أخرج الترمذى عن ابن عمر رضى الله
 عنهما قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة يقتل فيها هذا مظلوماً لعثمان رضى الله عنه . وأخرج
 أيضاً : أن النبي ﷺ قال لعثمان « إن الله مقصك قيصاً فان أرادك المناقون على خلعه فلا تخلعه
 حتى تلقانى » فلما حصره المناقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث وقال ان
 رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً فأنا صابر عليه . قال الأبي ققلا عن ابن العربي : كانت قتلة
 عمر مصيبة في الاسلام خاصة وقتلة عثمان مصيبة في الاسلام عامة عزاؤها المصيبة برسول الله
 ﷺ . قتل رضى الله عنه ورحمه وطالبوه أربعة آلاف وفي المدينة أربعون ألفاً كلهم لا يريد
 قتله ويريد نصره لكن منع الكل واستسلم الأمر للعهد الذي كان من رسول الله ﷺ ولم
 يرض أن يراق بسببه دم ورضى أن يكون عند الله المظلوم ولا يكون عنده الظالم وكل من في
 المدينة برىء من دمه إلا أربعة آلاف المكاشفين بالحصار والانكار وما أنكروا إلا معروفاً .
 وقد وصف المؤرخون في كتبهم أخبارهم فحذاراً أيها الرهط المتطلبون العلم أن تعولوا على تاريخ
 فانكم تلاقون الله متقدمين في الجهل متأخرين في العلم

الحالة الاجتماعية على عهدنا

لما استكمل الفتح على عهدنا ونزع الناس بالضرورة على طلب الراحة وأخذوا بقسطهم من
 السيادة على الشعوب وجاوروا الترفين من أهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستغلوا

ثمرة الضرع دون الحرث والزرع ، وكان عثمان رضى الله عنه ليس من الشدة عليهم والاختذ على شكائهم بالمكانة التي كانت لعمر قبله طمحت الى ذلك نفوسهم وأجهت بمجاورة الشعوب الاخرى رغائبهم فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه في استئثار الارضين التي جلا عنها أصحابها فأقطعهم اياها فقاموا على حرثها وأخذوا باستئثارها . روى أن عثمان لما ولي معاوية على الشام والجزيرة أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتيال الارضين التي لاحق فيها لاحد ، فأنزل بنى نعيم الراهية وأنزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله ، وفي ذلك دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم الى السكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم الى الاستعمار ، وكان عثمان غنياً جداً محبباً للعمران ميالاً الى التأنق في المعيشة والتداول في البنيان وانفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وقرابته فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه ، وكانوا في عصر عمر لا يجرأون على اقتناء الضياع والدور والاكتار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فقد بنى لنفسه ولنسائه واولاده بضع دور بالمدينة وشيد داره بالحجارة والكس وجعل أبوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد رسول الله ﷺ بالعمد المرفوعة وتأنق في بنائه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب وتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى وجنحوا الى الحصول على المال والتنعم في المعيشة ، فاقتنى سعيد بن العاص ومروان بن الحكم القصور خارج المدينة وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمنهبه ، ذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا على مال كثير ونعم وفيرة ، منهم الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة وداراً بمصر ومثلها بالاسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وأكثرها كانت من التجارة لانه كان تاجراً محظوظاً ، وكذلك طلحة ابن عبيد الله وكانت ثروته من التجارة أيضاً ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية ، وأنهم بنوا الدور وشيدوا القصور وتركوا أموالاً وضياعاً كثيرة وان سعد بن أبي وقاص ابنتى داراً بالمعيق فرغ سمكها ووسع فضاءها ومثله فعل المقداد بداره بالجرف على أميال من المدينة وهذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال في عصر عثمان وجنوحهم الى التنعم بنعيم الحضارة وهو أثر محمود من آثار الشكر للنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس الى المنكرات . ومما لا ريب فيه ان عصر الصحابة مها انطلق أهله في مجال السعة والنعم لا يتجاوزون الحد الشرعى ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بد من صرفه في وجوه التنعم بما أحله

الله من الطيبات دون المنكر والشهوات . استكمل الفتح في عهد عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سيامة الممالك فساروا في الناس سيرة سميعة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاه الخلفاء وتبعهم فيها الولاة والامراء ، فازدهى أمر الدولة الجديدة وعمت كلمة العدل وكثر المال وامتد رواق العمران وراجت التجارة وتضاعفت أمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشترى بنسبة كثيرة النقد ، فبيعت جارية بوزنها وفس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم . قتل هذا المحب الطبري في الرياض النضرة عن ابن سيرين . هذا غاية ما اتصل اليه الممالك في ترقى العمران وترقى أسباب الكسب ونمو الثروة بين طبقات الناس فبينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يتمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الامم ويتسمنون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ويسيرون سيرهم الخيث في الفتح ويرفعون لاخلافهم ببيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الفرس والروم صار اليهم وعثمان في مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم في لجج من التخاصم ما بلغوا ساحله الا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة . فكان عصر عثمان بهذا عصرأ جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة والراحة والتعب والغنى وضده والقوة والضعف ومنها بدأت سلسلة الاحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الاسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية . ان الدول اذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناسر القومي ونشأت على أساس الوحدة في الاعتقاد والفكر بين أصناف الامة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الاخرى قل أن تعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الاحزاب والشيع لهذا فان اضطراب الدولة وتفرق أغراض الامة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في أرجاء ممالكها القاصية والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والامم المغلوبة بل كأن الامم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة انها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بها تمحيص الحق وتدعيم أمر الخلافة فلبثت على الحياء تنتظر غاية الامر ولا تمد الى الدولة يد الغدر حتى أنجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام على والاحزاب الاخرى ثم مصير الخلافة الى بني أمية ولولا ما حجب الى الناس من خلافة الراشدين وما بهرهم من قوة أولئك الفاتحين لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ نارا واستفز الطيش الاشرار ، لكن الملك الذي ينهض بالعدل ، والدولة التي تقوم على الاساس الذي ذكرنا لايزعزها تفرق المالكين الى أحزاب وشيع ولا يطمع في جانبها الطامعون

فضائل علي القرشي الهاشمي رضي الله عنه

هو الخليفة الرابع أمير المؤمنين سيدنا أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً أصغر أولاد أبي طالب الثلاثة جعفر وعقيل وطالب . ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وأسلم وهو ابن عشر سنين خلى الراجح واتفق الجمهور على انه أول من أسلم من الصبيان لحديث « أولكم وارد على الحوض أولكم اسلاماً علي بن أبي طالب » وعن علي قال « عبدت الله تعالى قبل أن يعبده أحد من هذه الامة بخمس سنين » وعنه « ما كان يصلي مع رسول الله ﷺ غيره وغير خديجة » يبيع بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان واجتمع على بيعته أهل الحل والعقد من المهاجرين والانصار وتزاحم الناس عليه وتحلف عن بيعته معاوية في أهل الشام والتحمت بينها حروب لم يسمع بمثالها في الاسلام ولم يزل له فيها الظهور على الفئة الباغية الى أن وقع التحكيم وندع فيه وخيفئذ خرجت الخوارج فكفروه وكفروا من معه وقالوا حكمت الرجال في دين الله والله يقول ان الحكم الا لله ثم اجتمعوا وشقوا عصي المسلمين ونصبوا راية الخلاف فسفكوا الدماء فخرج اليهم بن معه وطلبهم الى الرجوع فأبوا الا القتال فقاتلهم بالنهروان واستأصل جميعهم ولم ينج منهم الا اليسير فاتدب اليه رجل من بقية الخوارج يقال له عبد الرحمن بن ملجم فسفل عليه قتله في التاسع عشر من رمضان سنة أربعين وقصة استشهاده مشهورة فهو رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد ستة الشورى وأحد العلماء الربانيين والشجعان والزهاد والخطباء^(١) والشعراء ، ومناقبه وما أرتبه من الاجتهاد والفهم معلوم . وكان صاحب شورى عمر في أفضيته وكذلك كان مع أبي بكر وعثمان وكان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن وفي البخاري احاديث سبعة في فضائله منها حديث عمر « علي أقضانا » ومنها حديث قتاله البغاة « تقتل عمارة الفئة الباغية » وكان عمار مع علي ومنها حديث قتاله الخوارج وهذان الحديثان من علامات النبوة . قال الحافظ ابن حجر بعد نقله ما ذكره وأوعب من جمع مناقبه من الاحاديث الجياد النسائي في كتاب الخصائص وأما حديث « من كنت مولاه فعلي مولاه » فقد أخرجه الترمذي النسائي وهو كثير الطرق جدا وقد روينا عن الامام أحمد قال : ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي . وروى من فضائله قوله عليه الصلاة والسلام « أنا مدينة العلم وعلي بابها » قال مسروق شافيت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهي الى ستة علي وعبد الله ابن مسعود وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي بن كعب ثم شافيت الستة فوجدت علمهم

(١) قوله الخطباء اذا اردت الوقوف على بعض خطبه وحكمه فعليك بكتاب نهج البلاغة

يفتخى الى علي وابن مسعود . شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ الا تبوك فانه استخلفه فيها على المدينة وقال له « أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي » وفي البخاري « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وزوجه ﷺ ابنته فاطمة سيدة أهل الجنة ولما نزل قوله تعالى « وتعيها أذن واعية » قال النبي ﷺ اللهم اجعلها أذن علي قال علي رضي الله عنه ما نسيت بعد ذلك شيئاً . وله من العلم والشجاعة والحلم والزهد والورع وكرم الاخلاق ما لا يسعه كتاب . وبالجملة فان فضائله كثيرة قد جمعها الناس ودونوها وأجمعها لنعته ما وصفه به ضرار الصدائي اذ قال له معاوية صف لي علياً فقال اعفني يا أمير المؤمنين قال لتصفه قال أما اذا لا بد من وصفه : « فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يتوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان منبئاً كأحدنا يجهيننا اذا سألناه وينبئنا اذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه ايانا وقربه منا لانكاد نكلمه هيبة له ، يعظم الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد بالله لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً على لحيته يتململ تعلم السليم (أي اللديغ) ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غري غيري ، إلى تعرضت أم إلى تشوفت ، هيات هيات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فمرك قصير وحظك قليل ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . فبكي معاوية وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار فقال حزن من ذبح ولدها في حجرها

الكلام على الفتنة

اعلم ان الفتنة المذكورة هي فتنة عثمان وعلي وطلحة والزبير ومعاوية التي تحزب فيها المسلمون أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها عقل الحكيم حائراً بين الاقدام على خوض عباها واستكناه كنه خباياها وبين الاحجام عنها والقاء أخبارها على علائها وعض الطرف عما انطوى في ثناياها لا لأنها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلا ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود أحزاب ينصرون النازع الى الملك وأعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم وعصر وانما صبح السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لجرى السنن الطبيعية في الدول اذ ما دامت شؤون البشر لا تستقيم الا بالوازع ، والمجتمعات لا تقوم الا بحاكم يدير أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها . فالخلاف في رياسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه في كل أمة وجيل وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الاشياء

خلاصة فيما عليه أهل السنة في هاته الفتنة

تقدم ان الطاعنين في عثمان رضى الله عنه نعموا عليه أشياء وعابوه ، منها ثقته في قرابته بنى أمية فتغلبوا عليه وتولوا أعظم الولايات وذلك لا يعاب عليه فيه لانه كان باجتهاد منه وطلباً لاطهار العدل لانه رأى ان اقاربه يعينونه على اظهار العدل واقامة الحق وهكذا جميع الاشياء التي عابوه بها كلها كانت اجتهادية وله فيها اعذار ومخارج تدل على انه انما أراد بذلك العدل واطهار الحق وكلها مبسوطة في كتب السنة ، ولما حصره الناقمون وقتلوه بايع الناس بعده على بن أبي طالب وبايعه أيضاً القوم الذين حصر وا عثمان وقتلوه فوَقعت الفتنة بين الصحابة رضى الله عنهم لذلك فقال الذين امتنعوا من بيعته لانبياءك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم فقال على بايعوني أولاً ثم بعد ذلك تتبع قتلة عثمان فمن ثبت عليه شرعاً وجب القصاص نقتص منه وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم في البيعة فانه عسير جداً لأن لهم قبائل وعشائر يتعصبون لهم فتنشر الفتنة وتزداد . هذا هو السبب في الخلاف الذي وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين وتمسك كل من الفريقين لحجج وأدلة وتعرضت الأدلة عند بعضهم وهم نحو العشرة آلاف فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وبقى الامر مشتبهاً بين الناس الى زمن الائمة الأربعة فنظروا في الحجج والأدلة التي تمسك بها كل فريق فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد على رضى الله عنه وتخطئة اجتهاد غيره لكن لما كان ذلك انحصاراً ناشئاً عن اجتهاد لم يثبتوا به لقول النبي ﷺ « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » فلا سبيل الى الحكم بنائهم أحد منهم فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسیناً للظن بهم لأن الله تعالى أنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بأنه رضى عنهم ورضوا عنه وكذلك جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وزد على ذلك ما سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الاسلام وتدوين الممالك والبلدان وتأسيس بنيان الدولة الذي نشر على معظم الارض جناح السلطان ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل وقليل من الانصاف أن يقدرهم قدرهم ولا يبخسهم من الثناء حقهم ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الامر منهم اعلاء لشأنهم وتنويهاً بجميل عملهم وجميل صحبتهم وسداً لذرائع القدرح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم واستصغار أقدارهم وتكذيب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والواجب أن يحمل ما صدر منهم على الاجتهاد الذي لا يتم فيه واليه ذهب أهل السنة وهو المذهب الحق الذي من عدل عنه فقد زاع وضل ومن تمسك به فقد نجح

وأول التشاجر الذي ورد ان خضت فيه واجتنب داء الحسد

فضائل الستة بقية العشرة المبشرين بالجنة^(١)

سيدنا أبو عبيدة (رضي الله عنه)

هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري — كان اسلامه هو وثمان بن مضعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة الاسدي في ساعة واحدة — أحد العشرة المبشرين بالجنة هاجر الهجرتين وشهد براءً وما بعدها . في الصحيح عن النبي ﷺ « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » قال الأبي : أصحابه فضلاء مختارون وإنما أخبر عن كل واحد بما هو الأغلب فيه ، ففي الترمذي « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم زيد وأقراهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة ابو عبيدة » قتل اباه يوم بدر ونزلت فيه « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » الآية كانت له عند رسول الله ﷺ حظوة لصدقه وحببه واتباعه امره وطاعته له ، تقدم انه تولى الامارة العامة على جيوش فتح الشام وكان اكثر فتحه على يده ، تولى تلك الامارة لالدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الامة ورجاء رضا الله ، مات على ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سيفه وترسه ورحله ولم يكن في بيته ما يأكل الا كسيرات من خبز ، وهو الذي قال له عمر : أتفر من قدر الله اقل قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدير الله تعالى الى قدر الله تعالى . وذلك دال على جلالة عند عمر . وبالجملة فانه من كبار الصحابة ومن لازم النبي ﷺ وتخلق بأخلاقه متواضعا زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب عادلاً مخفوض الجناح علماً بالشرع ذا دربة في أمور الحروب ، أخرج الحاتم في المستدرک قال : لما طعن أبو عبيدة قال يا معاذ صل بالناس فصلي ثم مات أبو عبيدة نخطب معاذ فقال : انكم فجعتم برجل ما أزعم والله اني رأيت في عباد الله قط اقل حقداً ولا أبر صدراً ولا أبعث غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة منه فترحموا عليه . مات في طاعون عمواس سنة ١٨ وسنه ثمان وخمسون على أحد الاقوال وأوصى أن يدفن حيث مات

عمواس : بين الرملة وبيت المقدس على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهوره سنة ١٨ وانتشر في البلاد فاجتاح السكان . وفي رواية ابن عساكر : كان ابو عبيدة في ستة وثلاثين الفاً من المسلمين فلم يبق منهم الا ستة آلاف رجل مات به كثير من الاعلام منهم ابو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن ابي سفيان

(١) قوله بقية العشرة ، الخ وحديث تبشيرهم جيداً بالجنة رواه الترمذي .

سيدنا عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه)

هو أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي الزهري كان اسمه عبد الكعبة ويقال عبد عمرو فغيره النبي ﷺ ، أحد العشرة وأحد ستة الثورى هاجر المجرتين وشهد بدرآ فإ بعدها ولاء النبي ﷺ بمث دومة الجندل وهو الامين على أزواج النبي ﷺ فى حجبن ، ولاء عمر ذلك وقال فيه : هو سيد من سادات المسلمين ذورأى مسدد ، وهو الذى رجع عمر بمجيشه من سرغ ولم يدخل الشام من أجل الطاعون والحديث عن ذلك مذكور فى الصحيحين ، وهو أحد المشهورين بالثروة فى الاسلام كان محظوظا فى التجارة والعقل والعلم ، له اعانات مالية شهيرة وصدقات وأعمال بر كبرى . فى الاصابة قال جعفر بن برقان : بلغنى أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين الف نسمة . أخرجہ أبو نعيم فى الحلية ، وكان حرم الخمر فى الجاهلية وذكر البخارى فى تاريخه من طريق الزهري قال : أوصى عبد الرحمن بن عوف لكل من شهد بدرآ باربعائة دينار فكانوا مائة رجل ، وبالجملة فثنافه جمه . مات سنة ٣٢ على الاشهر وعاش ٧٢ سنة على أحد الاقوال

سيدنا طلحة (رضى الله عنه)

هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشى التيمى أحد العشرة وأحد الثمانية الذين سبقوا للاسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر وأحد ستة الثورى ، شهد المشاهد كلها إلا بدرآ فان رسول الله ﷺ كان بعثه هو وسعيد بن زيد يتجسسان على عير قريش ولقيا رسول الله ﷺ منصرفاً من بدر فضرب لهما بسهميهما واجريها فكانا كمن شهدها ، سماه رسول الله ﷺ طلحة الخير ويوم ذات العسرة طلحة الفياض ويوم حنين طلحة الجود وثبت يوم أحد مع رسول الله ﷺ ووقاه بيده فثلت اصبعاه وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جرحاً وأبلى فيها البلاء الحسن ، قال فيه رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على وجه الارض فلينظر الى طلحة » . قتل يوم الجمل فى جمادى الاولى سنة ٣٦ وهو ابن ستين سنة على أحد الاقوال

سيدنا الزبير (رضى الله عنه)

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى وفيه يجتمع

مع رسول الله ﷺ وهو ابن عمته ﷺ ، اسلم وهو ابن ثمان سنين وعذبه عمه بالدخان ليرجع فأنى وهاجر المجرتين وشهد الشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو اهل من سل سيفاً في سبيل الله ، وكان يوم بدر على الميمنة وعليه عمامة صفراء فزات الملائكة بعائم صفر على سباه ، وهو احد العشرة واحد ستة الشورى ومن الشجمان المشهورين وكان له الفضل في فتح مصر مع عمرو بن العاص . وفي الصحيحين قال النبي ﷺ : « ان لكل نبي حواري وان حواري الزبير بن العوام » وقتل في جمادى الاولى سنة ٣٦ حين انصرف من وقعة الجمل تاركا القتال قتله غدراً عمرو بن جرهموز وله ست او سبع وستون سنة

سيدنا سعيد بن زيد (رضي الله عنه)

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى . كان والده زيد يقول :
 إلهي إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ، وكان ترك عبادة الاوثان وترك كل ما يذبح على المصب ،
 وكان يقول : اللهم لو اعلم احب الوجوه اليك لعبدتك به ولكنى لا اعلمه ثم يسجد على الارض
 براحتة . وفي البخارى عن اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنهما قالت : رأيت زيد بن عمرو
 ابن نفيل قائماً مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم
 غيرى ، وكان يحبى المؤودة ويقول للرجل اذا اراد ان يقتل ابنته : لا تقتلها انا كفيك مؤنتها
 فياخذها فاذا ترعرعت قال لا بها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيك مؤنتها
 وابنه سعيد احد السابقين المشهود لهم بالجنة شهد أحداً والمشهد بعدها ولم يشهد بديراً
 حيث كان غائباً بالشام وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منها ، شهد اليرموك وفتح دمشق .
 قال سعيد بن حبيب كان مقام ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد
 الرحمن بن عوف مع النبي ﷺ واحداً كانوا امامه فى القتال وخلفه فى الصلاة ، وكان سعيد
 من فضلاء الصحابة مجاب الدعوة وقصته مع أروى بنت أنيس مشهورة فى اجابة دعائه عليها
 وهو ابن ابن عم عمر بن الخطاب وكان اسلامه عنده فى بيته لانه كان زوج أخته فاطمة . توفى
 بالعقيق وحمل الى المدينة وذلك سنة ٥٠ او ٥٢

سيدنا سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه)

هو أبو اسحاق سعد بن أبى وقاص مالك القرشى الزهرى أحد العشرة وآخرهم موتاً من
 السابقين الاولين مكث ثلاثة أيام وهو ثالث الاسلام وأحد ستة الشورى وأول من رعى سبهاً

في سبيل الله ومن شجعان قريش وكاتبهم من خيرة اصحاب النبي ﷺ مخلصاً في ايمانه . شهد للمشاهد كلها وكان بحباب الدعوة حيث دعاه رسول الله ﷺ أن يسدد رميته ويحجب دعوته وكان صادق الحديث والرواية لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق . روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه مسح على الخفين وأن ابن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ فلا تألن عند غيره . وروى الشيخان والترمذي والنسائي من حديث عائشة قالت : لما قدم النبي ﷺ المدينة أرق فقال لبت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني ، اذ سمعنا صوت السلام فقال من هنا ؟ قال أناسد ققام ، ولما قتل عثمان احتزل الفتنة ، وهو لذي كوف الكوفة وأمره عمر عليها سنة ٢١ . كانت له قيادة الجيوش في حرب الفرس وقد مر الخبر عن مسيرته الى القادسية والوقائع التي وقعت هناك وكانت من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ ، قتل فيها من المسلمين نحو السبعة آلاف وخمسمائة ، وأما من قتل من الفرس فعدد كثير بالغ فيه المؤرخون وكان النصر حليف المسلمين وحصل فيها وهن للفرس ووقع بها فتح المدائن عاصمة الكاسرة فأنحدرت تلك العاصمة من شاهق عزها الى هاوية الخراب وقامت مقامها في تلك الاصفاع بغداد دار الخلافة العباسية وانبعثت منها أشعة التمدن الاسلامي العظيم

وإذا نظرت الى البلاد رأيتها تثنى كما تثنى العباد وتسعد

على أن ماضته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك السابعة والامصار النائية لم تضمه المدائن على عهد الكاسرة والفضل في ذلك لسعد واضرابه من أقبال الصحابة السابقين ورجال الخلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين . مات سنة ٥٦ على الاثر بالعقب وحمل الى المدينة وصلى عليه مروان والى المدينة وأدخل للمسجد وصلى عليه أزواج النبي ﷺ وهن في حجرهن وأوصى ان يكفن في جبة صوف لقي المشركين بها يوم بدر ودفن بالبقيع

ذكر بعض العبارات من أعجابه الصحابة وفضيلتهم

سيدنا حمزة رضی الله عنه

هو ابو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي عم النبي ﷺ واخوه من الرضاة ارضعتها ثويبة كما في الصحيحين ، اسلم في السنة الثانية من البعثة ، لازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه وشهد بدرأ وابل في ذلك وعقد له النبي ﷺ لواء وارسله في سرية وذلك اول لواء عقد في الاسلام واستشهد بأحد وكان ذلك في النصف من شوال سنة ٣ ولقبه

رسول الله ﷺ اسد الله وسماه سيد الشهداء ودفن وعبد الله بن جحش في قبر واحد ، ولما استشهد قال رسول الله ﷺ : رحمتك الله اى عم ، لقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات .
ورثاه كعب بن مالك بأبيات منها :

بكت عيني وحق لها بكها وما يفتى البكاء ولا العويل
على اسد الآله غداة قالوا لحمة ذاكم الرجل القليل

أخوه سيدنا العباس رضى الله عنه

هو ابو الفضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان العباس اسن من النبي ﷺ بستين او ثلاث وكان اسلامه على المشهور قبل فتح مكة وضاع وهو صغير فنذرت امه ان وجدته ان تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي اول من كساه ذلك ، وكان اليه في الجاهلية السقاية والعمارة وشهد الفتح وثبت يوم حنين . وقال النبي ﷺ « من آذى العباس فقد آذاني فان عم الرجل صنوايه » اخرجه الترمذى . وكان اعظم الناس عند رسول الله ﷺ والصحابة يعترفون له بالفضل ويشاورونه ويأخذون رايه ، وفي حديث انس : ان عمر كان اذا قحطوا استسقى بالعباس . مات بالمدينة في رجب او في رمضان سنة ٣٢ وله بضع وثمانون سنة

سيدنا جعفر رضى الله عنه

هو أبو عبد الله جعفر بن أبي طالب وكان أكبر من شقيقه على رضى الله عنه بعشرين سنة وهو من السابقين الاولين هاجر المهجرتين ونشر الدين بالحبشة وعلى يده كان اسلام النجاشي وقدم من الحبشة سنة سبع على رسول الله ﷺ وعانقه وقال ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا بقدم جعفر أم بفتح خيبر وأسهم له ولأهل السفينة من فيء الفتح المذكور كما في الصحيحين واختط له رسول الله ﷺ الى جنب المسجد وقال له أشبهت خلقى وخلقى ثم غزا غزوة مؤتة بضم الميم وسكون الواو وبهمز وبدونه وهى محدود الشام وكانت سنة ثمان وقتل فيها بعد أن قاتل حتى قطعت يدها معاً فقال رسول الله ﷺ « ان الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء » فمن ثم قيل له ذو الجناحين . ولما بلغ النبي ﷺ نعى جعفر آتى امرأته أسماء بنت عميس فعزاها فيه ، فدخلت فاطمة تبكى وتقول واعماه فقال رسول الله ﷺ : على مثل جعفر فلتبكي البواكى . وجدت فيه نحو تسعين جراحة ليس فيها شيء فى ظهره . وهاته الغزوة

من أعجب ما سطره التاريخ للاسلام كان المسلمون ثلاثة آلاف خاضوا بجرأ من جيش الروم يتجاوز مائة ألف وهي فاتحة المعارك بين الاسلام والروم وأول نصر عليهم . في البخارى أن رسول الله ﷺ نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتهم خبرهم قتل : أخذ الراية زيد فاصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فاصيب وعيناه تدرقان ثم أخذها سيف من سيوف الله تعالى حتى فتح الله عليهم . وفي رواية : ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح عليهم

سيدنا زيد بن حارثة «رضى الله عنه»

هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى أصابه سبي في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فوهبته للنبي ﷺ قبل أن يوحى اليه وزيد حينئذ ابن ثمان سنين فأعتقه ﷺ وكان من أحب الناس اليه وتبناه وكان يطوف به على حلق قریش ويقول : هذا ابني وارثاً وموروثاً قال الزهري : لا أعلم أحداً أسلم قبله . وقال ابن عمر ما كنا ندعو زيدا إلا زيدا ابن محمد حتى نزلت « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله » كما في البخارى ولم يذكر أحد في القرآن باسمه من الصحابة سواه . هاجر وشهد بدرأ وكان ﷺ يؤمره على الجيوش وأمره على جيش مؤتة فقاتل حتى قتل قبل جعفر فلما أتى النبي ﷺ موت جعفر وزيد بكى وقال : اخواى ومؤنساي ومحدثاي . استشهد وهو ابن خمس وخمسين سنة

سيدنا عبد الله بن رواحة «رضى الله عنه»

هو أبو عبد الله بن رواحة الانصارى الخزرجى أحد قواد الاسلام في البعوث والسرايا وفي النقباء شهد بدرأ وما بعدها وكان الخليفة بعد جعفر في غزوة مؤتة فاستشهد بعد الاميرين قبله وكان من شعراء الصحابة ينافح عن رسول الله ﷺ بلسانه ولسانه . ومن ذلك أنه أنشد بين يدي رسول الله ﷺ عند دخوله مكة :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

قال عمر يا ابن رواحة أفي حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر فقال خل عنه يا عمر فوالذي نفسي بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبل . وفي الزهد لأحمد أن النبي ﷺ قال « رحم الله ابن رواحة انه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة »

سيدنا خالد بن الوليد «رضي الله عنه»

هو أبو الوليد خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي يجتمع مع النبي ﷺ في مرة أسلم على الأصح سنة سبع لم يشهد مع النبي ﷺ إلا ما كان بعد الفتح كان موصوفاً في قومه بالشجاعة محبباً فيهم مقدماً عندهم بالحروب موقفاً للنصر عارفاً بأحوال الحرب شهد وقعة مؤتة المذكورة آنفاً وأخذ الراية بعدما استشهد امرأه ثلاثة قبله وأبلى فيها البلاء الحسن حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ، ثم مازال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيشي المسلمين . وفي هذه الوقعة معاه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله . له رواية في الصحيحين وغيرهما وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد ظهرت فيها نجابته ، وهو الذي أخضع أهل الردة ، وقتل مسيلة الكذاب ومن أبي من دفع الزكاة وكان على يده فتوح الكثير من البلاد الكبار بالعراق والشام وكان له بعد من جميل الأثر ما رأيت في فضائل أبي بكر وكان فتحه للعراق تمهيداً إلى تدوين فارس وإدالة دولة الأكرسة ، وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً إلا أنها بلغت من الكبر عتياً ومن فشل السياسة مكاناً قصياً فجاءها جند الإسلام بإدى الشباب ناعم الأعصاب فارس ملكه الجديد . وكانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب بالعراق وجند فارس على حرب المسلمين ، وبعد ما تم له ذلك الفتح أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام فسار وحصل له من الفتح هناك ما قد علم . قال بعض المؤرخين : قل أن يوجد فارس في العالم يوفق للنصر في كل واقعة كما وفق خالد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئن عن انخذه إلا في وقعة واحدة من وقائمه مع أهل الردة أو في العراق أو في الشام وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب . وقد علمت كيف قل جموع الروم في أيرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والخيرة منذ سلموا قيادتهم له مع أن فيهم من الصيد الحذيد وأهل البصيرة والرأي كعمرو بن العاص وأبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وأنهم من كوة الإسلام وقادة الجيوش العظام . انخذ رضي الله عنه بعد تمام تلك الفتوحات مقراً له حص وفيها توفي سنة ٢١ ومدفنه هناك لم يزل معروفاً يزار إلى الآن . ولما حضرته الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء . وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأ. مترسها

سيدنا خالد بن سعيد «رضي الله عنه»

هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية الاموي من أشرف قريش وأعيانهم وهو أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم ومن السابقين الاولين أسلم بعد أربعة وهاجر المجرتين وصلى القبلتين ورجع من الحبشة هو وزوجه وأخوه وابنته مع جعفر بن أبي طالب وكان استعمله النبي ﷺ على صدقات مدحج وأمره أبو بكر على مشارف الشام في الردة استشهد في أجنادين او مرج الصفر

سيدنا سالم مولى أبي حذيفة «رضي الله عنهما»

هو أبو عبد الله سالم بن معقل كان من فضلاء الصحابة وخيارهم وكبرائهم من السابقين الأولين هاجر مع عمر ونفر مع الصحابة فكان يؤمهم لأنه أكثرهم قرآناً وكان يؤم المهاجرين بقباء وفيهم عمر شهد بدرا . روى البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رفعه «خذوا القرآن من أربعة ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل» وروى عن عائشة رضي الله عنها «احتبست على النبي ﷺ فقال ما حبسك قالت سمعت قارئاً يقرأ فذكرت من حسن قراءته فاخذ رداءه وخرج فاذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال الحمد لله الذي جعل في أمي مثلك» شهد بدرا فما بعدها وكانت بيده راية المهاجرين يوم اليمامة فقطعت يده اليمنى فاخذها باليسرى فقطعت أيضاً . مات فيها هو ومولاه حذيفة ووجد رأس أحدهما عند رجلى الآخر وذلك سنة ١٢

سيدنا معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن امام الفقهاء وسيد العلماء . شهد بدرا والعقبة وكان أميراً للنبي ﷺ على اليمن وخرج معه رسول الله ﷺ ماشياً ومعاذ راكباً منعه رسول الله ﷺ من أن ينزل . أخرج ابن حبان والترمذي من طريق أبي هريرة رفعه : نعم الرجل معاذ بن جبل . كان عقيباً بدريا من فقهاء الصحابة وأخرج الترمذي وابن ماجه «أرحم أمي أبو بكر وفيه وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ» وفي الصحيح استقرئوا القرآن من أربعة ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي ابن كعب ومعاذ بن جبل وصح عن عمر انه قال من أراد الفقه فليأت معاذا وقال ايضا عجزت

النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ هلك عمر وقال من أراد الفرائض فليأت زيد بن ثابت وكان من أجل الرجال قانتا عابدا مجتهدا ورعا محققا شهد اليرموك ومات شابا عن نيف وثلاثين سنة في طاعون عمواس سنة ١٨

سيدنا يزيد بن أبي سفيان رضى الله عنه

هو ابو خالد يزيد الخير بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي كان من فضلاء الصحابة من مسلمة الفتح استعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس وكانوا أخواله. أحد أمراء الأجناد بالشام ومن كان تحت رايته ابوه ابو سفيان وأخوه معاوية . وأمره عمر على فلسطين ثم على دمشق . مات في طاعون عمواس سنة ١٨ وقيل ١٩

سيدنا أبي بن كعب رضى الله عنه

هو ابو المنذر أبي بن كعب بن قيس النجاري الخزرجي أسلم قديما شهد العقبة الثانية وبيع فيها وشهد بدرًا والمشاهد بعدها وهو اول من كتب الوحي لرسول الله ﷺ بعد الهجرة وكان من فقهاء الصحابة وقرائهم وحسبك ان الله سبحانه وتعالى امر نبيه ﷺ ان يقرأ عليه القرآن وقال فيه ﷺ اقرأ كم أبي وقال خذوا القرآن عن أربعة وعد منهم أباوهوا أحد الاربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويسأله عن المعضلات ويتحاكم اليه اذا وقع خلاف بين الصحابة وتوفى في خلافة عمر على الاكثر سنة ١٩ وقيل سنة ٢٥

تذبيبه

تخصيص هذه الاربعة بالذكر دون غيرهم من حفظ القرآن وهم كثير لانهم هم الذين تفرغوا لتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك من العلوم أو العبادات أو الجهاد . ويحتمل لانه ﷺ علم انهم هم الذين ينتصبون لتعليمه فأحال عليهم لعله بأن الامة ترجع اليهم كما أظهر الوجود اذ هم أئمة القراء والى روايتهم ينتهى غالب أسانيد الائمة الفضلاء . اهـ من الأبي

سيدنا عبد الله بن مسعود الهذلي رضى الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن هو سادس من أسلم كان يلج على رسول الله ﷺ ويلبسه نعله ويمشي معه وامامه ويستتره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام وقال له اذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع

سوادى (بكسر السين اسرارى) حتى أنهاك . وكان يشبه في هديه وصمته رسول الله ﷺ شهد له بالجنة . هاجر الى الحبشة مرتين ثم الى المدينة وصلى القبلتين وشهد المشاهد كلها ، شهد له كثير من الصحابة انه أعلمهم بكتاب الله تعالى قراءة وعلماً وكان من أعظم الامور عليه ان الصحابة لما عزموا على كتب المصحف غينوا لذلك أربعة ولم يكن منهم ابن مسعود وكتبوه على لغة قريش ولم يعرجوا على ابن مسعود لانه كان هذلياً وكانت قراءته على لغتهم وبينها وبين لغة قريش تباين عظيم فلذلك لم يدخلوه معهم . حدث عن النبي ﷺ بالكثير وروى عنه الكثير من الصحابة والتابعين وكان يقول أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة أخرجه البخارى وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وفي البخارى خذوا القرآن عن أربعة عن ابن أم عبد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة . وشهد فتوح الشام وسيره عمر الى الكوفة ليعلمهم أمورهم وبعث عمار بن ياسر أميراً وقال انهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ فاقتموا بهما ثم أمره عثمان على الكوفة ثم عزله واستقدمه الى المدينة قال حذيفة ما أعلم أحداً سواه أشبه دلاً وهدياً برسول الله ﷺ ، وكان زاهداً صالحاً له مزايا كثيرة . وقد انتشر العلم والدين عن أصحاب أربعة من أعلام الصحابة ابن مسعود وأصحابه وهم أهل العراق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأصحابها وهم أهل المدينة وابن عباس وأصحابه وهم أهل مكة . توفى بالمدينة سنة ٣٢

سيدنا أبوذر رضى الله عنه

هو أبوذر جندب بن عمرو الغفارى من كبار الصحابة أسلم بعد أربعة وقصة اسلامه في الصحيحين ثم انصرف الى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم عام الحديبية بعد ان مضت بدر وأحد والخندق . غلب عليه التعب والتزهد فكان يمتنع ان جميع ما يفضل عن الحاجة كثر فامساكه حرام (١) ودخل الشام بعد موت النبي ﷺ وهو ممن نشر العلم به والدين وكان في رتبة ابن مسعود في العلم ووقع بينه وبين معاوية نزاع في قوله تعالى « والذين يكتزون الذهب والفضة » الآية فشكاه معاوية الى عثمان فأقدمه عثمان المدينة واستأذن عثمان في اقامته بالربرة موضع منقطع عن المدينة ومات هناك سنة ٣٢ وهو أول من حيى النبي ﷺ تحية الاسلام وهي السلام عليكم وذلك لما دخل عليه ليسلم روى ابن عساكر عن أبي الدرداء ان رسول الله ﷺ قال ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر

(١) قوله فامساكه حرام مذهبه في ذلك اشتراكه وله قصة في شأن ذلك مع معاوية وعثمان رضى الله عنهم

سيدنا المقداد بن الأسود رضی الله عنه

هو أبو الأسود المقداد بن عمرو بن ثعلبة الحضرمي تبناه الأسود واشتهر بذلك فلما نزلت « ادعوهم لآبائهم » قيل له المقداد بن عمرو . أسلم قديماً وهاجر المهجرتين وشهد بدرًا وما بعدها وكان فارساً يوم بدر ولم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره . روى الترمذي مرفوعاً عن النبي ﷺ « ان الله عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم علي والمقداد وأبو ذر وسلمان » شهد فتح مصر وهو أحد الرجال الأربعة الذين بعثهم عمر مدداً لمصر وقال الواحد منهم مقام الألف مسلمة والمقداد والزبير وعبادة بن الصامت مات سنة ٣٣

سيدنا عبادة بن الصامت رضی الله عنه

هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أحد النقباء شهد بدرًا وما بعدها كان من أعلام الصحابة وقضاتهم وشهد فتح مصر وكان أمير ربيع المدد وقال فيه عمر مقامه من الرجال مقام الألف في الصحيحين قال أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الحديث وروى ابن سعد أنه ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذًا وعبادة وأبا الدرداء فقام عبادة بفلسطين وهو أول من تولى القضاء بفلسطين مات بالرملة سنة ٣٤

سيدنا أبو الدرداء رضی الله عنه

هو عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي أسلم يوم بدر وشهد المشاهد كلها وآخى عليه الصلاة والسلام بينه وبين سلمان فكانا من الزهاد العباد وهو معدود من الفقهاء الحكماء قال فيه النبي ﷺ أنه حكيم هذه الأمة وقال فيه ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء . تولى قضاء دمشق في خلافة عمر وعثمان وقيل إن عمر وولاه قضاء المدينة أيام خلافته توفي سنة نيف و ثلاثين

سيدنا حذيفة بن اليمان رضی الله عنهما

هو حذيفة بن اليمان بن جابر بن عمرو العبسي حليف بني عبد الأشهل من الأنصار من كبار الصحابة له ولايته صحبة من السابقين الأولين شهد أحداً وما بعدها وبها استشهد أبوه وله

أياد في الاسلام بعلمه وسيفه وكان على يده فتح الكثير من البلاد كالدينور وهمدان والري وغيرها وهو الذي أشار على عثمان بنسوخ المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد وتحرير ما سواه روى عن النبي ﷺ الكثير تولى بعض امور الكوفة وولاه عمر المدائن وبقى بها الى أن مات بعد قتل عثمان بيسير سنة ٣٦

سيدنا سلمان الفارسي (رضي الله عنه)

يكنى أبا عبد الله ويعرف بسلمان الخير وكان ينسب الى الاسلام فيقول أنا سلمان ابن الاسلام ويعد من موالى رسول الله ﷺ لانه كان السبب في عتقه ونسبه ﷺ الى بيته فقال سلمان منا أهل البيت . أصله فارسي وأبوه مجوسي فنبهه الله تعالى الى قبح ما كان عليه أبوه وقومه وجعل في قلبه التشوف الى طلب الحق فقر عن أرضه الى أرض الشام فلم يزل يجول في البلدان ويختبر الأديان ويكشف الاحبار والرهبان الى أن دل على راهب الوجود بالوصول الى المقصود بعد الصبر على المشاق والمكاره حسبما ذلك منقول في اسلامه في كتب السير وأول مشاهدته الخنق وهو الذي أشار بحفره ولم يفته بعد ذلك مشهد وكان خيراً فاضلاً عالماً حبراً زاهداً متشفاه قتل الحسن كان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان اذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده حال كونه أميراً على المدائن عاصمة الاكاسرة وقال النبي ﷺ « لو كان الدين في الثريا لئله سلمان » وفي رواية « رجال من الفرس » وعن عائشة كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به من الليل حتى كاد يغلبنا عن رسول الله ﷺ « وقال رسول الله ﷺ « ان الله أمرني أن أحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم : علي وأبو ذر والمقداد وسلمان » وعن علي رضي الله عنه « ان سلمان مثل لقمان » وعن أبي هريرة قال « كان سلمان صاحب الكتابين » قال قتادة يعني الانجيل والفرقان . له أخبار حسان وفضائل جمة توفي في آخر خلافة عثمان سنة خمس أو ست وثلاثين قال الشعبي وتوفي بالمدائن ، قيل عاش مائتين وخمسين سنة وقيل أكثر

سيدنا عمار بن ياسر (رضي الله عنه)

هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر العنيسي حليف بني مخزوم ، شهد المشاهد كلها من السابقين الاولين هو وأبواه وكانوا ممن يعذب في الله وماتت أمه في ذلك التعذيب وكان النبي ﷺ يهر عليهم فيقول « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » وأول من أظهر اسلامه سبعة منهم

ياسر وعن علي رضي الله عنه قال « استأذن عمار على النبي ﷺ فقال اذنوا له مرحباً بالطيب المطيب » وفي رواية ان علياً قال ذلك وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان عمارا مليء ايماناً الى حشاشته » أخرجه الترمذي وابن ماجه . كان من أعلام الصحابة وفتهايمهم روى عن النبي ﷺ الكثير وعنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وفي الترمذي مرفوعاً « ماخير عمار بين أمرين الا اختار أيسرهما » وأخرج الترمذي عن حذيفة رفته « اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار » وتواترت الاحاديث عن النبي ﷺ ان عمارا قتلته الفئة الباغية وأجمعوا على انه قتل مع علي رضي الله عنه بصفين سنة ٣٧ وعمره ٩٣

سيدنا عمرو بن العاص « رضي الله عنه »

هو أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي وأخوه لأمه عقبة بن نافع النهري داهية العرب عتلا ورأيا ولسانا وكانت له مكانة عند قومه لشهرته بالدهاء والمكيدة وكان حريصاً على الامارة يحب الظهور ويميل الى الاتيان بالاعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس جامعاً بين أجرى الدنيا والآخرة . تأخر اسلامه وكان قبل فتح مكة بسنة أشهر وكذلك خالد بن الوليد وكان حسن الصحبة محباً لرسول الله ﷺ شديد الحياء منه لا يرفع طرفه اليه اجلالاً له كما في الصحيح روى عنه انه قال « ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت » رواه ابن عساکر وذلك بلا ريب لثقتة باسلامها في أمور الحرب وحسبها فضيلة فتوحهما العظيم بالعراق والشام ومصر . بعثه رسول الله ﷺ رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وذلك في غزوة ذات السلاسل وأرسله ﷺ الى عمان واليا على الصدقة وأن يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فآمنوا وحسبه الفضيلة العظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب الا انه عيب عليه دخوله غمار الفتنة العظمى وكونه اليد القوية فيها ومن مكائده في الفتنة اشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب علي وخذاعه لأبي موسى الأشعري يوم التحكيم وبعد أن تم له فتح مصر والاسكندرية جعل مقره الفسطاط بأمر من أمير المؤمنين عمر بعد أن أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشداهم قياماً على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبها أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيماً وامارتها اليه محببة ، وفي امارته وقع حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند وهذا الخليج قديم جدا قبل

الاسلام وتعطل قبل الفتح وسبب فتحه ان الناس أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة فكتب الى عمرو بن العاص « سلام عليك أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت أنت ومن معك وأهلك ومن معي ، فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه « من عبد الله عمرو الى أمير المؤمنين أما بعد فياليك ثم ياليك فقد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً » فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس واصاب كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام فلما رأى عمر ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه مع جماعة من اهل مصر ولما قدموا قال لهم « ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقى في روعي لما احببت من الرفق لاهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ان أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر فهو اسهل لما تريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا يبلغ به ما تريد » واجابوه لذلك فانصرف عمرو وجمع الفعلة فاحترف في حاشية القسطنطين مسافة من النيل الى السويس فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل عليها ما اراد من الطعام الى الحرمين وصمى خليج أمير المؤمنين ولم يزل على ذلك الى مدة عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعده اما الخليج المعروف بالبرزخ وهو يصل البحر الاحمر بالبحر الابيض فأبى عمر فتحه خوفاً من وصول الروم الى البحر الاحمر وهذا الخليج كان موجوداً في عهد البطالسة وآثاره باقية الى عهد عمر ولم يزل عمرو واليا على مصر الى خلافة عثمان فعزله وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم ولها في زمن معاوية وتوفى عليها يوم الفطر سنة ٤٣ وهو ابن ٩٠ سنة ودفن بالمقطم وترك دنيا عريضة وثروة واسعة ولما حضرته الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله ما يبكيك وأجابه بما هو مذكور في حديث قصة اسلامه بطوله في صحيح مسلم

سيدنا زيد بن ثابت « رضي الله عنه »

هو أبو سعيد زيد بن ثابت الانصاري النجاري الخزرجي شهد أحداً فما بعدها وأعطاه صلى الله عليه وسلم راية بني النجار في غزوة تبوك ، وهو الذي تولى قسم غنائم اليرموك ، وكان كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي وغيره ، ثم استكتبه أبو بكر فعمل ، وهو الذي بشر جمع المصحف الشريف أيام أبي بكر كما في الصحيح ، وتولى نسخ المصحف زمن عثمان ومعه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام القرشي الخزرجي المتوفى سنة ٤٣ : كان زيد رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والفرائض قال فيه عليه الصلاة والسلام « أفرضكم زيد » كان عمر يستخلفه وكذلك عثمان واستعمله أميناً على بيت المال ، وكان من الراغبين في العلم ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . قال مالك : كان امام الناس بالمدينة

بعد عمر زيد بن ثابت ، وكان امام الناس بعده عبد الله بن عمر وقد أخذ بر كابه يوم ما ابن عباس وقال هكذا أمرنا أن نفعل بعلما لنا فتبّل زيد رأسه وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا . توفي سنة نيف وأربعين وفي تحرير النيف أقوال وفي خمس وأربعين قول الأكثر . ولما مات قال أبو هريرة : مات حبر هذه الامة ، وعسى أن يجعل الله في ابن عباس منه خلفاً . وورثاه حسان بقوله :
فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت

سيدنا سعيد بن العاص (رضي الله عنه)

هو أبو عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الاموي كان من فصحاء قريش ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن قال ابن أبي داود في المصاحف ان عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص انه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ . ولي الكوفة وغزا طبرستان وجرجان وكان في عسكره حذيفة وغيره من كبار الصحابة وولي المدينة لمعاوية وكان حليماً وقوراً مشهوراً بالكرم والبر . روى عن ابن عمر أنه قال جاءت امرأة الى النبي ﷺ ببردة قتالت اني نذرت أن أعطي هذه البردة لا أكرم العرب . فقال : أعطها لهذا الغلام وهو واقف يعني سعيداً هذا . مات بقصره بالعقيق سنة ثلاث وخمسين

سيدنا أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه)

هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري من علماء الصحابة وأعيانهم ومن السابقين الاولين هاجر المهجرتين ، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالها واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة فافتتح الاهواز واصبهان وغيرهما ثم استعمله عثمان على الكوفة وبه تفقه أهلها . روى له من الحديث ستائة وستون حديثاً في الصحيحين منها ثمانية وستون حديثاً كان حسن الصوت بالقرآن . وفي الصحيح : « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » وكان عمر اذا رآه قال : شوقاً الى ربنا يا أبا موسى فيقرأ عنده . قال الشعبي : انتهى العلم الى ستة فذكره فيهم . وقال ابن المديني : قضاة الامة أربعة عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت شهد فتوح الشام ، وكان أحد الحكمين بصفين وخدع فيه حتى كان ما كان ، ثم اعتزل الفريقين . مات سنة اثنتين أو أربع وأربعين أو ثلاث وخمسين قيل بمكة وقيل بالكوفة وهو ابن نيف وستين

سيدنا الحسن وسيدنا الحسين ابنا سيدنا علي

(رضى الله عنهم)

قال الحافظ ابن حجر وقع جمعها لما لها من الاشتراك في كثير من المناقب وكان مولد الحسن في رمضان سنة ثلاث من الهجرة عند الأكرام ومات بالمدينة مسوماً سنة خمسين وقيل قبلها وقيل بعدها ودفن بالبقيع الى جنب قبر أمه ، وصلى عليه سعيد بن العاص . وقد تواترت الاحاديث الصحيحة أنه عليه السلام قال في الحسن « ان ابني هذا سيد سيصلح الله به بين فئتين » الحديث . كان حلياً فاضلاً ورعاً دعاه فضله وورعه الى ترك الملك رغبة فيما عند الله تعالى ، وظهر صدق ذلك فانه لما قتل أبوه على بايعه أكثر من أربعين ألفاً وكثير ممن تخلف عن أبيه ومن نكث بيعته . فبقي خليفة بالعراق وما وراءها من خراسان خمسة أشهر . ثم سار الى معاوية في أهل الحجاز وسار اليه معاوية في أهل الشام فلما التقى الجمعان بالانبار كره الحسن القتال لعله أن احدى الظائفتين لا تغلب حتى يهلك أكثر الاخرى فسلم الامر الى معاوية على شروط وأما الحسين فكان فاضلاً كثير الصوم والصلاة حج خمساً وعشرين حجة ماشياً . وقال عليه السلام وفي الحسن « سيدا شباب أهل الجنة » وقال « هما ريحانتي في الدنيا » . شهد مع أبيه الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج وبقى معه الى أن قتل . ثم مع أخيه الى أن سلم الامر الى معاوية فتحول مع أخيه الى المدينة واستمر بها الى أن مات معاوية فخرج الى مكة ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد موت معاوية فأرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب فأخذ بيعتهم وتوجه اليهم وكان من قصة قتله ما كان وقتل معه جماعة من أهل البيت في موضع يقال له كربلاء ويقال له الطف قرب الكوفة في يوم عاشوراء سنة ٦١ . مولده في شعبان سنة اربع على قول الاكثر

سيدنا أسامة بن زيد «رضى الله عنها»

تقدم ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا محمد ويسمونه رجب رسول الله صلوات الله وتبرك في بيت النبوة مع اولاده وكان يجمله في حجره هو وسبطه الحسن ويقول « اللهم اني احبها فأحبهما » توفي النبي صلوات الله وتبرك وهو ابن عشرين سنة وولاه على جيش عظيم فيه ابو بكر وعمر فمات النبي صلوات الله وتبرك قبل ان يتوجه فأنفذه ابو بكر وتقدم الكلام على هذا الجيش في فضائل ابي بكر . وكان اسامة ممن اعتزل الفتنة . وتوفي آخر ايام معاوية

سيدنا عبد الله بن سعد «رضي الله عنه»

هو أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث القرشي العامري أخو عثمان بن عفان من الرضاة ، شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة في الحرب مع عمرو بن العاص وله مواقف محموددة في الفتوح برأً وبحراً وأمره عثمان على مصر وافتتح أفريقية زمن عثمان وكانت ولايته مصر سنة ٢٥ ، وكان فتح أفريقية من أعظم الفتوح باغ منهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة ٢٨ وقيل كانت ولايته على مصر سنة ٢٧ بعد عزل عمرو بن العاص ، فغزا أفريقية ومعه العبادلة ، وقيل كانت ولايته سنة ٢٥ وغزوة أفريقية سنة سبع وكان محمود السيرة ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ولم يبايع لأحد . روى البغوي بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب قال : خرج ابن أبي سرح الى الرملة فلما كان عند الصبح قال اللهم اجعل آخر عملي الصبح فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ثم ذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه . وذكره البخاري من هذا الوجه ، وأخرج السراج عن عبد العزيز بن عمران قال : مات ابن أبي سرح سنة ٥٩ في آخر سني معاوية

سيدنا معاوية رضي الله عنه

هو أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان تقدم ذكر نسبه في مناقب أخيه يزيد . كان من كتبة الحسبة الفصحاء حليماً وقوراً ، قال المدني : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي ومعاوية يكتب للنبي ﷺ فيما بينه وبين العرب ، ولاء عمر الشام بعد أخيه يزيد وأقره عثمان ثم استمر فلم يبايع علياً ثم حاربه واستقل بالشام ثم أضاف إليها مصر ثم تسمى بالخليفة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع اليه الناس فسمى ذلك العام عام الجماعة مات في رجب سنة ٦٥ على الصحيح

سيدنا مسلمة بن مخلد «رضي الله عنه»

هو أبو سعيد مسلمة بن مخلد بن علي وزن محمد الانصاري الخزرجي . قال ولدت حين قدم النبي ﷺ المدينة ، وهو أحد الرجال الاربعة الذين بهم عمر رضي الله عنه مدداً لفتح مصر وقال : الواحد منهم مقام الالف ، وهو أول من جمعت له اماراة مصر والمغرب مات سنة ٦٢

سيدنا مروان بن الحكم (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الملك مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي وهو ابن عم عثمان وكاتبه في خلافته . ولد بعد الهجرة بسنتين وقيل بأربع كان يعد من الفقهاء ، شهد فتح إفريقية وكان من أسباب قتل عثمان وشهد الجمل مع عائشة ثم صفين مع معاوية ثم ولي أمرة المدينة لمعاوية ولم يزل بها إلى أن أخرجه ابن الزبير في أوائل امرة يزيد بن معاوية فبايعه بعض أهل الشام في قصة طويلة ثم كانت الواقعة بينه وبين الضحاك بن حنين وكان أميراً لابن الزبير فاتصر مروان وقتل الضحاك واستوثق له ملك الشام ثم توجه لمصر فاستولى عليها ثم بغته الموت فعهد إلى ولده عبد الملك فكانت مدته في الخلافة نحو نصف عام ومات في رمضان سنة ٦٥ وهو أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها « قل هو الله أحد »

سيدنا عبد الله بن العباس رضي الله عنه

هو أبو العباس عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ وأمه أم الفضل لبانة بنت الحارث الهلالية . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وهو أثبت الأقوال ، كان من أعيان علماء الصحابة ومن أعلمهم بتفسير القرآن وكان عمر يقدمه مع الأشياخ وهو شاب . أورد في حديثه قال : ضمنى النبي ﷺ وقال « اللهم علمه الحكمة » وفي لفظ « علمه الكتاب » وفي رواية « فقهه في الدين » وفي رواية « فاعلمه في الدين وعلمه التأويل » وفي رواية « اللهم بارك فيه وانشر عنه واجعله من عبادك الصالحين » واختلف في تفسير الحكمة هنا فقيل الكتاب وقيل الاصابة في القول ، وقيل الفهم عن الله ، وقيل ما يشهد العقل بصحته ، وقيل نور يفرق به بين الالهام والوسواس ، وقيل سرعة الجواب بالصواب ، وقيل غير ذلك وكان ابن مسعود يقول : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . وكان ابن عمر يقول : ابن عباس فقي الكهول له لسان سئول وقلب عقول . وقال مسروق : كنت اذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس واذا تكلم قلت أفصح الناس واذا تحدث قلت أعلم الناس وكان يسمى الخبير لغزارة علمه والبحر لاتساع حفظه ونفوذ فهمه ، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وسبائة وستون ، في الصحيحين منها مائتان وأربعة وثلاثون ، وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ أبو هريرة وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة . وأحد العبادة الأربعة عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير ، والحاصل أن دعوات رسول الله ﷺ فيه قبلت وظهرت بركاتها عليه فاشتهرت

علومه وفضائله فارتحل طلاب العلم اليه وازدحموا عليه ورجعوا عند اختلافهم لقوله وعولوا على نظره ورأيه ، وكان يقال له حبر العرب ويقال ان الذي لقبه بذلك جرجير ملك الغرب وكان قد غزا مع عبد الله بن أبي سرح افريقية فتكلم مع جرجير فقال له ما ينبغي إلا أن تكون حبر العرب ذكر ذلك ابن دريد في الاخبار المنتورة . قال ابن يونس : وكانت هاته الغزوة سنة ٢٧ فضائله جمة وتوفي بالطائف وفي وفاته أقوال والصحيح وهو قول الجمهور سنة ٦٨

شقيقه أبو محمد عبيد الله كان من فضلاء الصحابة وكان جميلاً سخياً جواداً ، استعمله علي بن أبي طالب وحج بالناس سنة ٣٦ ومات بالمدينة سنة ٥٨ وبه جزم أبو نعيم

سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

تقدم ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن أسلم قبل أبيه وفي الصحيحين قصته مع النبي ﷺ في نهيه عن مواظبة قيام الليل وصيام النهار وأمره بصيام يوم بعد يوم وبقراءة القرآن في كل ثلاث وهو مشهور وفي بعض طرقه أنه لما كبر كان يقول يا ليتني كنت قبلت رخصة رسول الله ﷺ وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة حديثاً في البخاري عن أبي هريرة ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة وعنه الكثير من الصحابة والتابعين . شهد فتح مصر وأفريقية ومات سنة ٦٩ على أحد الأقوال وهو ابن اثنين وستين

سيدنا عبد الله بن الزبير « رضي الله عنهما »

تقدم ذكر نسبه في فضائل والده يكنى أبا عبد الله أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ولد عام الهجرة وحفظ عن النبي ﷺ وهو صغير وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وأبي بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وغيرهم وهو أحد العبادلة وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة حنكه النبي ﷺ بسمرة مضعها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ ودعاه وبرك عليه وهو أحد الاربعة الذين اتبدي بهم عثمان لنسخ المصحف . شهد اليرموك مع أبيه والجل مع عائشة ثم اعتزل حروب علي وشهد فتح أفريقية وبويع له بالخلافة سنة ٦٤

عقب موت يزيد بن معاوية ولم يختلف عنه أحد إلا بعض أهل الشام ثم جهز عبد الملك بن مروان جيشاً أميره الحجاج إلى ابن الزبير فقاتله إلى أن قتل في جمادى الأولى سنة ٧٣ في خبر طويل الذيل

سيدنا عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما)

مر ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا محمد ولد بالحبيشة لما هاجر أبوه إليها . روى عن النبي ﷺ وعن أبويه وعمه وأبي بكر وعثمان وعمار بن ياسر وعنه جماعة روى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ وأما عبد الله فيشبهه خلقى وخلقى ثم أخذ بيدي فقال اللهم اخلف جعفرا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه قالها ثلاث مرات وكان كريما وأخباره في السكرم كثيرة شهيرة . شهد فتح أفريقية والمشهور أنه مات سنة ٨٠

خلاصة

اعلم أن الفتوحات الإسلامية امتدت واتسعت في الجهات الشرقية والغربية زمن الخلفاء الراشدين لطهارة سيرتهم وصفاء سريرتهم ولعلمهم في بيت المال وغيره وكان الصحابة رضي الله عنهم هم الوسطة العظمى في انتشار الدين وتبليغه بنقل أقواله وأفعاله وأحواله وأخباره وبت العلم وانتشاره وبهم أشرقت على العالم أنوار النبوة المحمدية على صاحبها أشرف السلام وأذكى التحية واعترفت الأمة لله الواحد القهار بالوحدانية وبلغت من الرقى أعلاه ومن المجد أسناه وبسطت الخلافة الإسلامية يدها على مشارق الأرض ومغاربها كل ذلك بواسطة الصحابة ثم التابعين رضوان الله عليهم أجمعين فهم الذين مهدوا لنا المسالك وفتحوا لنا الاقطار والممالك وذلوا الامم وأقاموا منار العدل ومحوا آثار الفساد والبغى والظلم وقد كانوا أسود نزال وعلما حرب وقاتل وكانت لهم الحرية الحقيقية لا يسكتون على منكر ولا يقرون على ضيم وكانوا غير مستبدين في الاعمال لا يبرمون أمراً من أمور الدولة الا بعد المشاورة فيه مع عطاء الأمة وكان اختيار الاعمال المنوطة بهم يوكل اليهم والخليفة ينفذ ما استقر عليه رأيهم لأنه أرجى في نجاح الامور لان الأمة لا تجتمع على ضلالة فكانت الاعمال منظمة والرياسة في أهلها والنجاح متأصل الاطراف مأمون مما يخاف

واعلم اني أشرت فيما تقدم للفتوحات الشرقية والغربية التي وقعت زمن الخلفاء الراشدين وهي في الحقيقة تمهيد للفتوحات الغربية وذكر أمراء أفريقية . وحيث كان ذلك هو الغرض

الوحيد من تأليف هاته التتمة وقد آن الاوان فلنشرع في الغرض المقصود ، مستعينا بالواحد المعبود ، فنقول :

الفتوحات الغربية على يد الصحابة

أول أمير تأمر على جيوش أفريقية هو البطل المشهور المحجوب الدعوة سيدنا عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وتحرير الخبر في ذلك كان استعمل على الحرب في مصر عبد الله بن سعد وأمره بغزو أفريقية سنة ٢٤ أو ٢٥ وقال له : ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري الصحابي بالمولد على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجا الى أفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ، ثم ان عبد الله بن سعد شكوا عمرو بن العاص الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل عبد الله بن سعد على امارتي الخراج والحرب في مصر ، وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد أفريقية ثانية ويستمده فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم في ذلك فأشاروا عليه بغزوها فنذب الناس الى ذلك فتسارعوا وخرج المهاجرون الاولون وفيهم جماعة أعيان الصحابة وأبناء الصحابة منهم العبادة الاربعة ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين ومروان بن الحكم ، ولما اجتمع المسلمون على السير جمع عثمان الناس وخطب خطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه : أما بعد ، فاني قد عهدت الى عبد الله ابن سعد أن يحسن الى محسنكم ويتجاوز عن سيئكم وأن يرفق بكم ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد استعملت عليكم الحارث بن عبد الحكم حتى تقدموا الى عبد الله ، فلما قدموا خرج بمن كان معه ومن قدم عليه وذلك سنة ٢٦ ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالا خفيفاً وبعث عبد الله السرايا في كل ناحية وساروا الى أفريقية تونس فقاتله عند مدينة يعقوبة - وفي رواية سبيطلة - حاكم أفريقية الشمالية من قبل امبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب جرجيراً بمائة وعشرين الف مقاتل واشتبك بينهما القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير مدداً من قبل عثمان بفتح الزاي وهو غير الزبير بضم الزاي بن العوام فشهد الحرب وقدغاب عنهما عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادى جرجير يقول من يقتل ابن أبي سرح فله مائة الف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له عبد الله بن الزبير تنادى أنت بأن من قتل جرجيراً نفلته مائة الف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سقط ما في

يده إلا انه جالد المسلمين جلاداً عظيماً فلما أبطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبد الله ابن سعد أن يترك جماعة من أبطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاوم العدو بباقي العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى اتبعوهم ثم افترقوا وقد أنهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحلوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله ابن الزبير جرجيراً وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد سبيطة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله ، ثم أن عبد الله بن سعد بعث سراياه الى أنحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا في أقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً ، فأغاروا من جهة الجنوب على إقليم بين اسنه المعروف ببلاد النخل أو الجريد ومن الشمال والغرب على اقليمى نوميدايا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فارس ومرآكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد الى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لم الجزية التي كانوا يؤدونها لقيصر الروم كما ذلك في خلاصة تاريخ العرب. أما مؤرخو الاسلام فقد اختصروا وأخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذي عرضه عظماء افريقية على ابن سعد وهو أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أى مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيقاً قبيل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس الى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة الف دينار ، ولما أصاب ابن سعد من افريقية ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل انبراطور القسطنطينية اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد أن يهاجم به الاسكندرية على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التي كان يريد بها قسطنطين والظن أنه كان يريد افريقية بدليل التجاء الانبراطور الى جزيرة صقلية بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قريبة من تونس ، ولما بلغ المسلمين خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته في البحر أسطولان أسطول من الاسكندرية مع عبد الله بن سعد وأسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقىا معه في عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتلوا قتالاً شديداً حتى استبحر القتل فانهزم قسطنطين جريماً الى صقلية بما بقي معه من الروم ولما علم أهل صقلية فراره قتلوه وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري ، ثم أن الانبراطور فونستانس الثاني غضب على أهل افريقية لما أعطوه من المال لابن سعد لانه أكثر مما كانوا يعطونه لانبراطورة الروم واغتم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذي ولوه عليهم من قبل المسلمين بعد جرجير فالتجأ الى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الأمر فنصره وبعث جيشاً أميره معاوية بن حديج بلحاء المهلة مصغراً الكندى

له صحبة ورواية ووفادة وذلك سنة ٤٥ لتدويح البلاد وطرदारوم عنها ثانية ولما وصل الجيش افريقية انتشب القتال بينه وبين جيش العدو قرب قصر اجم وكان النصر حليف المسلمين ، وبعد هذا الفوز بعث معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير لسومة ففتحها وفتح بنزرت وجولوا ووجه أسطولا مهولا لصقلية وغنم غنائم كثيرة ثم رجع معاوية لمصر بعد أن خلد آثاراً حسنة وعزله الخليفة معاوية عن افريقية وأقره على مصر ثم عزل عن مصر سنة ٥١ وتوفي بها في السنة بعدها . أخرج ابن عبد الحكم عن سليمان بن سفيان قال : غزونا افريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والانصار ثم غزا افريقية عقبة بن نافع ومعه جماعة من الصحابة ، وفي هذه الغزوة استشهد أبو زمعة عبيد الله بن أرقم البلوي نسبة لابي كعلي قبيلة من قضاة وهو صاحب المقام المعروف به خارج القيروان ودفنت معه شعرات من شعر النبي ﷺ فعظم بذلك قدر افريقية واختط عقبة القيروان وبني بها الجامع الاعظم المشهور وكان تأسيسه لها سنة ٥٠ وتم سنة ٥٥ وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية وولى مصر وافرريقية مسلمة بن مخلد الانصاري فوجه لافرريقية مولاة أبا المهاجر ديناراً سنة ٥٦ وغزا جزيرة شريك وغيرها ولما توفي الخليفة معاوية وبويح لابنه يزيد رجع هذا الخليفة عقبة المذكور الى عمل افرريقية ووصل القيروان سنة ٦٢ . غزا كثيراً من الجهات وفتحها وشتت جموع البربر وغيرهم . قال ولي الدين بن خلدون وصل عقبة الى جبال درن وقاتل المصامدة بها وكانت بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبال درن فنهض اليهم جموع زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ اسلام مقراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة فأئخن فيهم حتى حملهم على طاعة الاسلام ودوخ بلادهم ثم دخل السوس لقتال من بها من صنهاجة وهي يومئذ على دين الجوس فأئخن فيهم وهزم جموع البربر وقتل راجعاً وكان كسيلة الاروبي في جيوش عقبة قد استصحبه في غزواته وكان يستهين به ويمتعضه حتى صار في نفسه شيء بسبب ذلك على عقبة وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة فبعث اليه ينهيه ويقول له كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد الى رجل جبار في قومه وبتدار عزه وحديث عهد بالشرك فتستفسده وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته فهاون عقبة بقوله . فلما قتل من غزواته هاته وانتهى الى أرض الزاب ، وكسيلة أثناء هذا كله في صحبته ، صرف العساكر الى القيروان أفواجا ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر وبقي في قليل من الجند فلما وصل الى تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر اليه الفرنجة وطعموا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وأرسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاقتفوا أثر عقبة وأصحابه حتى اذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر واستاحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء الثلاثمائة من كبار الصحابة

والتابعين ، واستشهدوا في مصر واحد ، فيهم أبو المهاجر دينار . واجدائهم رضى الله عنهم بمكانهم بأرض الزاب لهذا العهد ، واتخذ على المكان مسجد يعرف باسم عقبة هو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مرور من الاجداث في بقاع الارض لما توفي فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه . وكان ذلك سنة ٦٣ ثم بعد الوقعة زحف كسيلة الى القيروان وبها يومئذ جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهير بن قيس البلوى فيهم خطيباً وقال : يا معشر المسلمين ان أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم فخالفه قيس بن عبد الله الصنعاني لما علم أنه لا طاقة للمسلمين لما دهمهم من أمر البربر ورأى أن النجاة بمن معه من المسلمين اولى ونادى في الناس بالرحيل فاتبعوه إلا قليلا منهم وانتقل زهير الى برقة واجتمع الى كسيلة جميع اهل المغرب من البربر والفرنجية وعظم امره وتقدم الى القيروان واستولى عليها في محرم سنة ٦٤ وفر منها بقية العرب ولحقوا بزهير ومن بقي بها آمنه كسيلة ، وثبت قدمه بالقيروان واستمر اميراً على البربر ومن بقي من العرب خمس سنين ، وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية واذا ذاك امر الخلافة في الشرق في اضطراب الى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وازهد آثار الفتنة بالشرق فالتفت الى المغرب وتلافى امره على نحو ما سند كره في الطبقة الآتية

ص لة

اعلم انه دخل افريقية مئات من الصحابة ووقع التصريح بأسماء بعض من دخلها غير أنهم قليلون بالنسبة لمن دخلها وقد اقتطفت أسماءهم من الاصابة والاستيعاب والاستقصى والخلاصة النقية وغيرهم وهم نيف وأربعون من الطراز الأول وعليهم في الامور المعول والواجب أن نظرز ما جمعته وتزوج ما أسلفته بذكر أسمائهم اهتماماً بشأنهم رضى الله عنهم :

عبد الله بن عمر بن الخطاب

عبد الله بن عمرو بن العاص

عبد الله بن الزبير

عبد الله بن العباس

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

عبد الله بن مسعود

عبد الله بن سعد بن أبي مروح

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وريحاتنا رسول الله ﷺ

المقداد بن الاسود

سروان بن الحكم

سعيد بن العباس

مسلمة بن مخلد

أبولبابة

هؤلاء ترجمت لبعضهم في هاته التتمة وبعضهم في الطبقة الثانية في المقصد . ولذكّر من لم
نترجم له فيما سلف من هذا الكتاب

عبد الله بن نافع بن الحصين وجيه عثمان مع ابن أبي سرح لشدة بطشه واصابة رايه
أبو ذؤيب خالد بن خويلد الهذلي الشاعر المشهور كان فصيحاً متمكناً من الشعر ، وعاش
في الجاهلية دهرأ وأدرك الاسلام وأسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره . روى ابن عبد البر أن
أبا ذؤيب قال : ياغنا أن رسول الله ﷺ عليل فاستشعرت حرباً وبت بأطول ليلة لا ينجاب
ديجورها ولا يطلع نورها حتى اذا كان قرب السحر غفيت فهتف بي هاتف يقول :

خطب أجل أذناخ بالاسلام بين النخيل ومقل الآطام

قضى النبي محمد فعيوننا تدرى الدموع عليه بالنسجام

قال فوثبت من نومي فزعا فنظرت الى السماء فلم أر الا سعد الذابج فتفاءلت به ذبحاً يقع في
العرب وعلمت أن النبي ﷺ مات ، فركبت ناقتي وسرت . وروى أنه لما وصل وجد النبي
ﷺ ميتاً وحضر الصلاة عليه ودفنه ، وشهد بيعة أبي بكر وسمع خطبته . ورث النبي ﷺ
بقصيدة منها :

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها ونزعزعت آطام بطن الابطح

كان أصاب الطاعون خمسة من أولاده فماتوا في عام ولهم بأس ونجدة فقال في قصيدته
التي أولها :

أمن النون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها :

ونجلى للشامتين أريهم اني لريب الدهر لا أتضعضع

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمه لا تنفع

والنفس راغبة اذا رغبها واذا ترد الى قليل تقنع

سئل حسان بن ثابت من أشعر الناس قال رجلاً أو قبيلة قالوا قبيلة قال هذيل . في طبقات أبي
العرب محمد بن تميم : من أعيان الصحابة الذين شهدوا افرريقية عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد
الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبو ذؤيب الهذلي وتوفي بافرريقية وقام بأمره

عبد الله بن الزبير ونزل في حده

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يكنى أبا محمد وأبا عبد الله وهو أسن ولد لابن بكر وكان صالحاً لم يجرب عليه كذبة قط شجاعاً رامياً شهيداً بدرًا واليمامة والجلج وأفريقية كما في طبقات أبي العرب . كان من أعلام الصحابة . مات بمكان على عشرة أميال من مكة وبها دفن سنة ٥٤ على أحد الأقوال

عبد الرحمن بن الزبير بفتح الزاي وكسر الموحدة . بعثه عثمان مع جيش مدناً لابن أبي سرح بأفريقية

عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان من شجعان قريش وفرسانهم ولما قتل أبو لؤلؤة والده عمر عمد عبيد الله هذا إلى الهرمزان وجماعة من الفرس وقتلهم حيث اتهمهم بالمؤامرة على قتل والده عمر رضي الله عنه في خبر تركنا إرادته خشية التطويل . شهد إفريقية وقتل بصفين مع معاوية سنة ٣٦

أخوه عاصم دخل إفريقية ومات بالرعدة سنة ٦٨ على أحد الأقوال

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشي استشهد بأفريقية وفي الإصابة مات سنة ٤٣ وهو أحد الأربعة الذين تولوا نسخ المصاحف زمن عثمان

معبد بن العباس بن عبد المطلب استشهد بأفريقية

حمزة بن عمرو الأسلمي

أبو نعيم معاوية بن حديج بضم الحاء المهملة مصغراً كان من فضلاء الرجال . شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وأمره معاوية على الجيش الذي جهزه لمصر والامير عليها محمد بن أبي بكر الصديق من قبل على رضي الله عنه ولما قتل بايع المصريون معاوية وتولى غزو المغرب مراراً آخرها سنة ٥٠ ومات بمصر سنة ٥٢

بلال بن الحارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمن من أهل المدينة اقتطعه النبي ﷺ العقيق وكان صاحب لواء مزية يوم الفتح . مات سنة ٦٠ وله ثمانون سنة

جرهد بن خويلد الأسدي يكنى أبا عبد الرحمن من أصحاب العفة مات في خلافة يزيد جبلة بن عمر الأنصاري هو أخو أبي مسعود البدرى . غزا إفريقية مع ابن حديج شهد أحداً وفتح مصر وصفين مع علي وكان فاضلاً من فقهاء الصحابة

حيزان بكسر الحاء المهملة وموحدة بعثه عمر بن الخطاب لمصر ليقتله الناس ومات بأفريقية خالد بن ثابت العجلاني الفهمي شهد مصر وغزا إفريقية مع مسleme بن مخلد

رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري ولاء معاوية على طرابلس سنة ٤٦ وغزا إفريقية من قبل مسleme بن مخلد ومات ببرة وهو أمير عليها من قبل مسleme المذكور



مسلمة بن الاكوع الاسلمى كان شجاعاً رامياً سابقاً يسبق الفرس على قدميه مات بالمدينة سنة ٧٧ وهو ابن ثمانين سنة

ربيعة بن عباد بكسر العين وتخفيف الباء مات في خلافة الوليد
أبو أيمن سفيان بن وهب الخولاني ولي امرة افريقية زمن عبد العزيز بن مروان ومات سنة ٨٢
مسعود بن الاسود القرشي العدوي المعروف بابن العجاء
المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولأبيه صحبة مات سنة ٦٤
المسيب بن حزن القرشي المخزومي والد سعيد بن المسيب له ولأبيه صحبة
المطلب بن أبي وداعة القرشي السهمي له ولأبيه صحبة
المنيزر الاسلمى دخل افريقية والاندلس ولم يدخلها أحد من الصحابة سواه
أبو المتندر أو المتندر دخل افريقية

أبوزمعة عبيد الله بن أرقم وقيل عبيد بن آدم البلوي صاحب المقام المشهور خارج
القيروان من أصحاب الشجرة وله رواية مر ذكره قريباً

أبو المهاجر دينار كان من الشجعان وذوى الرأي المصيب ولما تولى مسلمة بن مخلد أمر مصر
وافريقية بعث مولاه أبا المهاجر سنة ٥٦ لافريقية عوض عقبة بن نافع ودخلها وتولى أمرها
وقاتل البربر وفي سنة ٦٢ رجع يزيد بن معاوية عقبة لافريقية وبقى أبو المهاجر عنده معقولا
الى ان استشهد مع عقبة سنة ٦٣ ومر ذكره قريباً وفي صحبته توقف وهو عقبة بن نافع بن عبد
القيس القرشي الفهري خاله عمرو بن العاص له صحبة بالمواد . شهد فتح مصر واخطب بها ثم ولاء
يزيد بن معاوية امرة العرب وغزا البربر وشردهم وهو الذي اخطب القيروان وجامعها الاعظم
قدم على عثمان بن عفان بفتح افريقية بعثه ابن ابي سرح وأوصى أولاده بأن لا يقبلوا الحديث
عن رسول الله ﷺ الا من ثقة ولا يكتبوا ما يشغلهم عن القرآن . وبالجملة فان فضائله جمة
قتله البربر هو وأصحابه سنة ٦٣ ومرت الاشارة الى ذلك قريباً

أبو شداد زهير بن قيس البلوي يقال له صحبة كان من العابدين الصالحين ومن رجال
الكمال . شهد فتح مصر ولما تولى عبد الملك وبلغه ما فعله كسيلة بعقبة وغيره بعث زهير وهو
برقة بالتوجه لافريقية واستنقاذها من كسيلة سنة ٦٩ وبعد انتصاره وقتله كسيلة خاف الفتنة
بمحصل ذلك الملك رجع للشرق ولما بلغ برقة لقي الروم في عدد قليل مقاتل حتى قتل شهيداً
هو ومن معه في خبر يأتي ذكره قريباً

فقد تم لافريقية بدخول هؤلاء السادة الفضلاء القادة مزيد الاعتبار والافتخار على كثير
من الامصار والاقطار وأول مدينة أسسوها القيروان وبها كرسى المملكة وصارت مناخ
الابرار من الصحابة والتابعين ومقر الاخيار من الامراء والعلماء العاملين ومنها وقع تجنيد العساكر

المحمدية ونشر الملة الاحمدية عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية الى سائر الجهات الغربية الاندلس
والسودان والصحراء وستعلم ذلك

جغرافية المغرب أى افرريقية الشمالية الغربية

يحدّها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقا بلاد
مصر والبحر المتوسط أيضا وجنوبا الصحراء الكبيرة وغربا الاوقيانوس وكانت تنقسم في
صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى المغرب الاقصى وقاعدتها فاس ومراكش والمغرب الاوسط
وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط والمغرب الادنى وهي
ولاية طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس أما المغرب الاقصى فهو الآن
تحت حماية دولة فرانس وينقسم الى أقسام فاس ومراكش ودرعة وتافيلالت والرباط وسلا على
شواطئ الاوقيانوس الاطلانتيك والسوس ومن جبالها درن وغماره ومديونه ويحده قسم كبير
يعرف بالريف تحت حماية دولة اسبانيا ومن مدنه تطاون وسبتة ومليلة وطنجة على ساحل البحر
المتوسط وأما الجزائر وهي المغرب المتوسط فتقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر ووهران
وقسنطينة وهي تابعة لدولة فرانس ومن مدنها الشهيرة بجاية وعنابة أو بونه ووهران ومستغانم وهي
على البحر المتوسط

وأما المغرب الادنى سمى بذلك لقربه من مقر الخلافة بالشرق وفيها ولايتا طرابلس وتونس
وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس وأشهر مدنه طرابلس وبرقة وبنغازي وتونس وهي
قرب أطلال قرطاجنة القديمة وتسمى قديما افرريقية وربما سموا اقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا
القارة كلها به من باب تسمية الكل باسم الجزء وهي على البحر المتوسط ومن مدنها الشهيرة
بنزرت وسوسة والمستير والمهدية وصفاقس وقابس وهي على البحر المتوسط والقيروان أسسها عقبة
ابن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد فولاية طرابلس هي الآن تحت حكم ايطاليا وولاية تونس
تحت حماية دولة فرانس

الكلام على قرطاجنة

في الحلل السندسية قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء وبعدها طاء مهملة وألف وجيم مفتوحة
ونون مشددة وهي وان تلاشت وخربت فانها كانت من أضخم ممالك افرريقية وأكثرها عددا
وأقواها عددا وأتقنها بناء وأغربها اقباء وأوسعها مجالا وأشدّها قتالا وأحكما صناعة وأرقها
بضاعة وأطيبها أرضاً وأطولها أعماراً . وأول من وضع هذه المدينة امرأة تسمى أنسية ديدون

فنيقية وتدعى عليسة من بنات بعض الملوك وكانت زوجة ملك من كبار ملوك الروم ومات ولم يكن لها ولد وكان لها أخ وكان ملكاً أيضاً فأراد الاستيلاء على ملكه وما خلفه من الخزائن والاموال فمطلته حتى ركبت البحر بجميع فخاثرها ودخلت افريقية وأسست قرطاجنة وعمرتها وأنشأت الدور والجنان والقصور . وفي الاستقصى قرطاجنة احدى مدن الدنيا الشهيرة هدمها الروم قبل المسيح عليه السلام بمائة وستة وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخرّبها العرب . وفي الحلال لما وقعت العداوة بين صاحب قرطاجنة وصاحب رومه الكبرى وقعت بينهم حروب ثلاث الاولى آلت الى صلح بينهم وكانت الدائرة فيها على صاحب رومة ثم ان صاحب رومة جهز عمارة بحرية وقصد قرطاجنة وأول بلدة نزلها قليبية وكانت الدائرة على صاحب قرطاجنة وانفصلت على مال يؤدونه الى صاحب رومة سنويا ثم تجددت الحرب وهى الثالثة آل الأمر فيها باستيلاء صاحب رومة على قرطاجنة وأعاد لها عمرانها الى أن فتحها الاسلام . وقال ولى الدين ابن خلدون كانت الروم والفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من البحر الرومى وكان أكثر حروبهم ومتاجرم فى السفن وكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله وبهذه الاساطيل دخل الروم لافريقية والقوط الى المغرب وملكوها وتغلبوا على البربر وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة و سبيطلة و جلولا ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يجارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعاكر والعدد وكانت هاته عادة لاهل البحر قديماً وحديثاً . اهـ

وزبدة القول على مقتضى ما حققه بعض المتأخرين ان قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سورية وكان لها فى التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذى غزا الرومانيين فى عقربدارهم وما زالت قرطاجنة التى كانت ضرة رومة شجى فى حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخرّبها القائد سييون سنة ١٤٩ قبل المسيح والظاهر ان الخراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامى وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم فى حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى فى افريقية على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغسانى لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى أجبهم للتسليم بعد ان فرّ منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن أنقاضها عمرت تونس وهذا التخريب وان عد عند الاثريين سيئة لحسان الا انه عند السياسيين ليس بشيء لأن الدول من دأبها أن يعنى اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون فى افريقية هذه المدينة فقد أقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقبروان والقاهرة وغيرهن وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار انها أثر قديم من

آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ لذا فليس يبدع أن يأتي حسان ما أتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لاسيما وانما اعتبار البلدان التاريخي الأثرى لم يكن في تلك العصور بالمنزلة التي انتهى إليها في هذا العصر
واعلم أن افريقية تداولتها دول قبل الفتح الاسلامي المعروف منها أربع دول ويعبر عنها بالاطوار الاربعة :

﴿ الطور الأول ﴾

دولة قرطاجنة تأسست سنة ٨٨ قبل المسيح أسستها ديرون المذكورة ، وقد بلغت هاته الدولة الغاية في الحضارة وال عمران والقوة ، لم معرقة وحذق بأساليب الملاحة والتجارة وما وقع الا اكتشاف عليه من آثارها يدل على ذلك ، واستولت على جزر كثيرة وامتدت شوكتها في الارض وبعد ريتها حتى صارت لا ترى غيرها وزعيمتها إذ ذاك في الشوكة دولة الرومان برومة وكانت على غاية في القوة فرام صاحب قرطاجنة هنبال القائد الشهير محاربتها فأول ما بدأها به استيلاؤه على صقلية ثم انتشبت الحرب بين الدولتين وتوالت وقصد الرومان قرطاجنة بأسطول مهول ونزلوا بمرسى قليبية . وأشهر الوقائع في هاته الحرب انتصار القنصل الروماني ريكولوس على جيوش قرطاجنة قرب رادس ثم انتصار قرطاجنة قرب تونس ووقوع هذا القنصل أسيراً بيد قرطاجنة وانتهت هاته الحروب بصلح تغالي في قرطاجنة في شروطه ثم رجعت الحرب بين الدولتين أعظم من الحروب المتقدمة وانتهت باستيلاء الرومان على تونس وصارت تابعة لرومة بعد صلح شروطه مهينة لقرطاجنة ثم أخذ الرومان في الاستيلاء شيئاً فشيئاً حتى استولى على كامل افريقية وأفضى الحال الى اضمحلال قرطاجنة وذهاب مهابة الدولة ومن أعظم الاسباب على ذهابها انضمام البربر الى جيوش الروم

﴿ الطور الثاني ﴾

دولة الرومان واستيلاؤها النهائي كان سنة ١٤٦ قبل المسيح وأول شيء فعلته مع القرطاجنيين بعد تلك الوقائع والضغائن المتقدمة ابقاء ما كان على ما كان من حكومة وترتيب وتدين وغير ذلك وساروا معهم سيرة حسنة ، وبذلك انقاد القرطاجنيون للرومان وصارت عوائدهم وطبائعهم واحدة وحصل بذلك الأمن والراحة ، وفي مدتهم كانت افريقية لنظر قنصل عام بولاية الانبراطور تحت رئاسة حكام آخرين من الرومان وظيفتهم مراقبة المدن وعروش البربر التي كانت أحكامها بيد عمال البربر وحماية البلاد كانت منوطة بقوة كافية من العساكر

بقرطاجنة لتمهيد الراحة لنظر قائد روماني بولاية من الانبراطور أيضاً . ولما رسخ قدم هاته الدولة أخذت بمجد واجتهاد في السعي بما يوجب عمران افريقية فشيّدوا المدن والهياكل الضخمة كقصر اجم ومرسم دقة وآثار قرطاجنة واعتنوا اعتناءً زائداً بالفلاح من زراعة وغراسة وجلب المياه وحفر الآبار وأساليب الري واستخراج المعادن وغير ذلك من الوسائل الموصلة الى العمران والمنافع الكبيرة حتى صارت افريقية مصدراً للحبوب والغلال تجلب محصولاتها الى سائر الجهات الرومانية وصاروا يسمونها مطمورة الرومان ، وحصل بذلك عمران عظيم في افريقية قيل انها كانت في ذلك الوقت تحتوى على ستة ملايين من السكان ومن ملوك هاته الدولة فرنسيا الذي نقل كرسى مملكته الى قسطنطينية ثم اغتصب منه الملك جيوش مع بقائه تحت الرومان ، ثم ظهر أغسطس واستولى على الملك وعلى عهده ولد المسيح وكان محباً للعلم وأهله عادلاً في رعيته . قيل انه يعرض عزل نفسه كل عام على رعيته فلا يرضون بغيره ثم بعده جوفورا قام في الملك نحو خمسين عاماً . وفي هاته المدة أخذ دين المسيح في الظهور بافريقية بعد أخذه في الانتشار بالشرق وأوروبا ، واستمرت افريقية في السعادة ونمو العمران مدة ثلاثة قرون بعد المسيح وكانت سيرة ملوكهم سيرة عدل حيث كانت الدولة معتدلة الأحكام سديدة الترتيب . ولما اختلف نظام الدولة أوائل القرن الرابع لاستبداد الملوك وتوالي الفتن وامتد هذا الخلل لافريقية ، وزاد الطين بلة والمريض علة بما ظهر من المناقشات الدينية بين البربر ومسيح الرومان ، حتى آل الامر الى الانقسام الى ملوك كثيرة وقتن وحروب بين البربر وغيرهم ودام هذا الحال أعواماً كثيرة وأماماً طويلاً ، فاضمحلت بسبب ذلك دولة الرومان سنة ٤٣٨ بعد المسيح وانتهى سلطانها على افريقية وغيرها وتركت آثاراً خالدة أخذ منها الاوروبيون معارف كثيرة

﴿الطور الثالث﴾

استيلاء الوندال - وهو اسم قبيلة من القبائل الجرمانية - على افريقية سنة ٤٣٨ . ودامت سلطنته ٩٤ عاماً

﴿الطور الرابع﴾

استيلاء الروم البيزنطيين على افريقية الى أن ظهر الاسلام وفتحها على نحو ما صرح شرحه وكان الوندال والروم أهل ترف وملاذ في المساكن والملبس مع تكلف وتبذير

فصل

اعلم أن المؤرخين والنسائين اختلفوا في نسب البربر اختلافا كثيرا ، وفي الاستقصى بعد ذكر أقوال في ذلك : وأشبه الأقوال بالصحة أن بني حام تنازعوا مع بني سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان . وكان بسواحل المغرب الافارقة والافرنج فكانت ذرية حام في المداشر والخيام والاعاجم الأولى في البلدان ، وبقى أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام إلى زمن داود عليه السلام وكان ملكهم يسمى جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . أمر باجلائهم عن بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب فساروا نحو افريقيه وانتشروا هناك حتى ضاقت بهم البلاد وامتلات منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالابل وبيوت الشعر ولم تقدر الافرنج على ردهم ودفعهم فالتحازت الاعاجم في المنى وبقى البربر فيما عداها وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر ، واستمر الحال على ذلك إلى زمن الاسلام وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ، ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الأمم . فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها ولهم الفخر الذي لا يبجل ، والذكر الذي لا يهمل . وقد تعددت فيهم الدول ، وكثر فيهم الملوك العظام ، وكان لهم القدم الراسخ في الاسلام ، واليد البيضاء في الجهاد ، ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء والأمراء ، وأهل المزايا والفضائل . والبربر شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربرى عنهما . قال ابن خلدون : علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما برنس ومدغيس ويلقب بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانيس ، وبين النسائين خلاف هل هما لأب واحد أو لا ؟ فعند ابن حزم هما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن حام ، وقال سابق بن سليمان المطاطي وغيره من نساب البربر : ان البرانس فقط من نسل كنعان وأما البتر فهم من بني جرس بن قيس بن غيلان بن مضر وهذا القول مقول فيه . والحق أن الشعبين معا عريقان في البربرية وأن الجميع من ولد مازيغ من ولد كنعان بن حام ، فأما البرانس فتتقسم إلى سبعة قبائل : أروبة وصنهاجة وكتامة ومصودة وعجيسة وأويغة واردة ويقال واردة بالواو بدل الهمزة ، وزاد سابق المطاطي وغيره ثلاثة قبائل وهم : لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشرا . فأما أروبة فكان منها كسيلة الأروبي قاتل عقبة رضى الله عنه الذي مر ذكره ومنهم اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأروبي القائم بدعوة ادريس بن عبد الله . وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثلث فهم بنو زيري بن مناد ملوك

افريقية الآتي ذكرهم ، والملثمون ملوك مراکش والاندلس . وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بأفريقية ومصر . وأما المصامدة فمنهم غمارة وكان منهم بليان النصراني صاحب سبته وطنجة أيام دخول عقبة المذكور الى المغرب الاقصى وهم القائمون برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ومنهم أهل جبل درن وهم القائمون بدعوة محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين . وأما باقي قبائل البربر فلم يكن لهم ملك يذكر والنسابون من العرب يقولون ان صنهاجة وكتامة من حمير وان افريقش الحميري تركهم حامية بأفريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم الى البربري لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطاطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربرية . وأما البتر وهم بنو مادغيس فينتسمون لأربعة قبائل وهم : خريسة ونفوسة واداسة وبنو لوى وهم لواتة ، فأما خريسة فمنهم مكناسة ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أبي العافية ملوك فاس ومن خريسة زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة دهايا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ومن زناتة أيضاً بنو خزر المغراوي ملوك تلمسان والمغرب الاوسط ومنهم مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان وبنو مريين ملوك فاس فهؤلاء كلهم من زناتة وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضري بن جيك بن مادغيس الابتر . أما نفوسة واداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر وهاته القبائل الاربعة عشر تشتمل على عمائر وبطون وأنفاذ وفصائل لاحصر لها . وقال ابن خلدون : كان للبربر في الضواحي وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ماشاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بنيل ولا تنالهم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة ولا اساءة ، ثم قال وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك الروم كما كان المقوقس صاحب مصر والاسكندرية وبرقة يؤدى الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الاندلس من القوط يؤدون الجباية له حين كان الروم قد غلبوا على هذه الامم أجمع وعندهم أخفوا دين النصرانية اه استقصى

الطبقة الثالثة

طبقة التابعين رضى الله عنهم

من أعيان فقهاء هاته الطبقة نافع مولى ابن عمر ومحمد بن شهاب الزهري وأبو عثمان ربيعة الرأي . اعلم أنه بعد تأسيس هاته الممالك الاسلامية في الجهات الشرقية والغربية وبسط رواق العدل واظهاره وقطع الظلم وأنصاره وتبليغ القرآن وانتشاره صار بذلك المسلمون اخواناً يتساوون في الحقوق ويتفاخرون بالتقوى وأعمال البر ومعالي الامور ومكارم الاخلاق وذلك

بواسطة الصحابة ثم التابعين وتقدم ذكر الامراء الفاتحين من الصحابة وبقى ذكر الامراء الذين جاؤا بعدهم وقاموا مقامهم في نشر الدعوة والنصح للمسلمين فنقول : لما تولى الملك عبد الملك ابن مروان وبلغه خبر كسيلة بعث زهير بن قيس البلوي وهو اذ ذاك بركة بالتوجه لافريقية واستنقاذ القيروان من كسيلة و أمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها سنة ٦٩ وسار زهير ودخل افريقية بمجموعه وخرج له كسيلة من القيروان في عسكره والتحم القتال ودام حتى انتصر المسلمون وقتل كسيلة ومن معه من وجوه البربر ومهد افريقية وصار زهير بعد ذلك في ملك عظيم وكان من العابدين الصالحاء ، ولما خاف الفتنة بحصول هذا الملك استقال ورجع للمشرق فلما وصل بركة وجد الروم على قتالها في جموع عظيمة وبأيديهم أسرى من المسلمين فقتلهم حتى استشهد هو ومن معه ولما بلغ خبره عبد الملك اشتد أسفه عليه ووجه حسان بن النعمان النساني ويقال له الشيخ الامين ودخل افريقية سنة ٧٩ في أربعين ألف مقاتل وبعد أن أقام بالقيروان قصد قرطاجنة وفتحها وهذا الفتح من الفتوحات الاسلامية العظيمة ثم قصد دهبيا الكاهنة المشهورة وكانت في جموع عظيمة من البربر فالتحم القتال وصبر الجمعان الى أن هزمته وفي هذا العهد كانت افريقية في غاية العمران واذ ذاك أذنت دهبيا بتخريب مدنها وحصونها فخربتها وعقرت أشجارها ومحت جمالها ولم تبق إلا آثارها ، ثم أن حساناً نظم جيشاً عظيماً ورجع لها بعد خمس سنين بما انضم اليه فهزمها وقتلها واستقام أمره ودخل القيروان ومهد الاحوال ودون الدواوين ، وهو الفاتح لتونس وقيل زهير بن قيس ولما جاء الامر بعزله من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان رجع للمشرق وتولى بعده ابو عبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد بن نخم من التابعين بعهد من الوليد بن عبد الملك . روى عن تميم الداري وكان احد أفراد الدنيا ومشاهير رجالها وفرسان أبطالها لم يهزم له جيش قط قال ابن عذارى وفي سنة ٩٢ تم اسلام أهل المغرب الاقصى وحولوا المساجد التي بنيتها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات . وقال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثني عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا بعهد ولاية موسى ابن نصير فمأ بعده قدم افريقية وفتح زغوان وغيرها وقتل المخالفين وغنم وسبا وبعث اسطوله لصقلية فغنم الغنائم العظيمة وغزا بلاد المغرب ووطنجة ولما استقرت له القواعد بالمغرب كتب لمولاه طارق بن زياد وهو بطنجة بغزو الاندلس فغزاها وفتحها سنة ٩٢ ثم لحق به موسى سنة ٩٣ وكل فتحها وجمع غنائمها الكثيرة الشهيرة ورجع للقيروان أواخر سنة ٩٥ ثم توجه للمشرق واستخلف ابنه عبد العزيز على الاندلس وابنه عبد الملك على طنجة وابنه عبد الله على افريقية ولما دخل مصر هادى جميع قضاها وأشرافها وبأثر ذلك امتحن بالعزل وقتل أولاده وغير ذلك على يد سليمان بن عبد الملك وكانت وفاته بالمدينة سنة ٩٨ ومن وقته انتهت الفتوحات الاسلامية التي كانت للاسلاف لانه كان يخشى اتساع الاقاليم لاتتاجه طمع قواد

الجيش في الاستقلال ولذا افتك بالامير موسى المذكور وأولاده وبالامير قتيبة بن مسلم الذي ضم الى المملكة الاموية اقاليم كثيرة وبالامير محمد بن قاسم الذي أدخل جاهلية الهنود تحت حكم الاموية بحسن تدبيره وسياسته وبفقد هؤلاء القواد ذهبت قوة الدولة وشوكتها وزال حفظ وحدتها وأخذت أولاد عبد الملك من ذلك الوقت في الانحلال والانحطاط بعد ما كان لاسلافهم من الشوكة والشرف بالممالك الاسلامية وغيرها فوق ما يقال وبلغوا بانتصاراتهم المتوالية وفتحهم البلاد الشاسعة درجات الكمال والمجد الباذخ والشرف الشامخ وسليمان المذكور عهد بولاية افريقية لمحمد بن يزيد وقدم القيروان سنة ٩٧ وغزا وسبا وكان عادلا حسن السيرة ولما توفى سليمان كان الخليفة بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه استعمل هذا الخليفة على افريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى قريش فوصلها سنة ١٠٠ وكان خيرا وال حريصا على ادعاء البرابرة للاسلام ذكر أبو العرب محمد بن تميم أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين ومن كلامه رضى الله عنه تحدث للناس أفضية بقدر ما احدثوا من الفجور وتوفى في السنة بعدها وبويع ليزيد بن عبد الملك وهو عهد بافريقية ليزيد بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج بن يوسف وكتبه وقدمها سنة ١٠٢ وكان ظلوما غشوما وسار السيرة الحجاجية فثار عليه حرمه وقتلوه ثم عهد يزيد لبشر بن صفوان بن نوفل قدم افريقية سنة ١٠٣ وغزا صقلية بنفسه فاصاب سبيا كثيرا ورجع للقيروان وبها توفى سنة ١٠٩ وتولى بعده عبيدة بن عبد الرحمن بعهد من هشام بن عبد الملك قدم افريقية سنة ١١٠ ثم عزله هشام بعد أن أقام بها أربع سنين وتولى بعده عبيد الله بن الحبجاب بعهد من هشام المذكور وكان رئيسا نبيلاً وأميراً جليلاً وخطيباً مصقفاً قدم افريقية سنة ١١٤ وهو الذي بنى دار الصناعة بتونس وهي عبارة عن المكان الذي تنشأ به السفن وهو الذي خرق البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة بتونس في طول اثني عشر ميلاً وصارت من يومئذ ميناء عظيمة وهو الذي بنى جامع الزيتونة وقيل أول مختط له حسان بن النعمان وأمه عبيد الله المذكور وقد ظهرت في آخر أيامه فرق من الخوارج منهم الاباضية والصفرية وجاءت من قبلهم مصائب وكوارث ونوائب وكانت هاته الفتن احدى البواعث والاسباب في خرق ستار الهيبة على الخلفاء ورفع الحجاب وكانت أقوى سبب في انتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم في سلطاتهم فاختلفت على ابن الحبجاب وآل الامر الى اتفاق الكلمة على عزله وكان ذلك سنة ١٢٣ ثم ان هشاماً لما بلغه ذلك وجه عرضه كلثوم بن عياض وقدم في السنة في جموع كثيرة وجنود عظيمة وانتشب القتال بينه وبين زناته وغيرها من القبائل وكانت الدائرة عليه بعد قتله ووجوه أصحابه ورجعت الصفرية الى القيروان في أخبار طولال وحروب وأهوال ثم وجه هشام حنظلة بن صفوان وقدم القيروان ووقع القتال بينه وبين الثائرين وكان النصر حليف حنظلة ومات في هاته الواقعة مائة وثمانون ألفاً ولم يزل والياً عليها على أحسن حال الى أن تغلب على المغرب عبد الرحمن

ابن حبيب بن عبيدة بن عقبة الفهري واستولى عليه سنة ١٢٩ وفيها رجع حنظلة للمشرق واذ ذاك بنو أمية في تراجع وفتحصان مع دعاة بني العباس الى أن آل أمر الخلافة الى السفاح . في البيان المغرب في أخبار المغرب لابن العذارى^(١) وفي سنة ١٣٢ انقطعت الدولة الاموية ومدتها واحد وتسعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وهم أربعة عشر رجلاً منها أيام ابن الزبير تسع سنين واثنتان وعشرون يوماً وتفرقت بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم وهرب عبد الرحمن ابن معاوية الى الاندلس فبايعه أهلها وجددت لهم دولة استمرت الى ما بعد الاربعمائة وأربع وعشرين وكان دخوله الاندلس سنة ١٣٧ قال ابن حزم وانقطعت دولة بني أمية وكانت على علاقتها دولة عربية لم يتخذوا قاعدة ولا قسبة انما كان سكن كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل خلافته ولا كفروا المسلمين أن يخاطبواهم بالعبودية ولا تقبيل أرض ولا رجل ولا يد انما كان غرضهم التولية والعزل من أقاصى البلاد منهم في الاندلس والصين والسند وخراسان وأرمينية واليمن والشام والعراق والمغرب وغيرها من بلاد الدنيا واتقل الامر الى بني العباس فكانت دولتهم أعجبية سقطت فيها دواوين العرب وغلب عجم خراسان على الامور وعاد الامر ملكاً عضواً كسر اويماً الا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم واقتربت في دولة بني العباس كلمة المسلمين فتغلب على البلاد طوائف من الخوارج وغيرها . اهـ

واعلم أن البلاد الاسلامية كانت تدار بمعرفة أمراء يختارهم خلفاؤهم وهم نواب عنه وكانت منقسمة الى امارات كبرى منها مصر و افريقية والاندلس وهاته تارة تضم الى افريقية وكان الامير يقوم مقام الخليفة أحياناً يقيم الصلاة بنفسه ويقود الجنود ويختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جانياً للخراج يصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل ما بقى للخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة يقصرون الولاية على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملاً على الخراج يرجع اليه رأساً والامراء الذين كانت لهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في هذا الوقت بالاستقلال الاداري ، والذي دعا الى تمتع هؤلاء الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة وبين حواضر الولايات فلو أزم الامير أن يستشير في كل ما يقع في دائرته لطال عليهم و بقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلاً وهذا يدعو الى الاضطراب الكثير

(١) قوله ابن العذارى المراد كشي هو من علماء أواخر القرن السابع . ألف كتاب المغرب في أخبار المغرب بدأ فيه بفتح أفريقية وتاريخ ما توالى عليها بعد ذلك في زمن بني أمية فالعباسيين فولاية آل الاغلب مفصلاً فدولة الشيعة والصنهاجية

خلاصة فيما حصل مدة الدولة الاموية

اعلم أن عصرها كله زمن فتوحات ممتدة فالتسعت حدود المملكة شرقاً وشمالاً وغرباً وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية مستمرة إلا في مدة الوليد بن عبد الملك مؤسس الجامع الاموي بدمشق فانها كانت غرة في جبين الدولة ، وكانت همة الدولة تقوية الجيوش البرية والبحرية فقد كان لهم أسطول قوى في البحر المتوسط يحمي البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم ولم تكن أمراء البحر في الدولة تقل مهارة واقداماً على أمراء البحر الروميين فهي دولة حربية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الدول التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع ادوارها وكانت السيادة في الجنود للعنصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل وامتاز أفراد كثيرون بقيادة الجيوش الى حومة الوغى واشتهرت بالثبات ومضاه العزيمة وحسن التدبير في الحرب ، من أولئك الامراء العظام: عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعقبة بن نافع والمهلب بن أبي صفرة الازدي وابنه يزيد وقتيبة ابن مسلم الباهلي وأمد بن عبد الله القسري ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير ، فظهرت بذلك في مظهر الملك وعظمته وسطوته ولحقتها الترف في آخر مدتها . في العقد الفريد : صغر المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم الى أبنائهم المترفين . وكانوا مع عظم شأن الملك وجلالته همهم الشهوات وايشار اللذات والدخول في معاصي الله ومساخطه جهلاً منهم باستدراج الله وأمناً لمكره فسلبهم العز وقل عنهم النعمة

الطبقة الرابعة

قد علمت أن المغرب استولى عليه عبد الرحمن بن حبيب وأن دولة بني أمية انقرضت وأن عبد الرحمن بن معاوية دخل الاندلس في أواخر ذي الحجة سنة ١٣٧ وتقلب عليه فملكه واستقل به وصار وراثته في بنيه وأن أمر الخلافة آل الى بني العباس وأولهم عبد الله السفاح ثم أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور ومن أخباره أنه لما بلغه ما حل بأفريقية من الثوار أمر والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي بإفادها فوجه أبا الاحوص العجلي سنة ١٤٢ ولما بلغ القيروان هزمه الثوار ورجع مفلولاً فكتب المنصور لابن الأشعث بأن يسير بنفسه فسار في أربعين ألف مقاتل وقتل كثيراً من الثوار والبربر ورؤسائهم ودخل القيروان سنة ١٤٦ وضبط أفريقية أحسن ضبط ثم لما قام عليه بعض الثائرين خرج منها سنة ١٤٨ ، ولما بلغ المنصور ذلك عهد بولاية أفريقية الى الاغلب بن سالم بن عقال التميمي وكان ذا رأي وشدة فقدم القيروان

واستقام أمره ، ثم لما قتل في حرب مع الثأرين عهد المنصور لعمر بن حفص بن قبيصة بن أبي صفرة المهلبى وكان بطلاً سمحاً قدم القيروان سنة ١٥١ فاستقام أمره ولما قتل في حرب كالدنى قبله وجه المنصور أبا خالد يزيد بن حاتم المهلبى وهو واسطة عقد هذا البيت^(١) وأخباره في السخاء والنجدة والشهامة معروفة وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته قدم القيروان في ستين ألف مقاتل سنة ١٥٥ فهد الامور ورتب أسواق القيروان وأفرد لكل صناعة مكاناً وجدد بناء جامعها وأوقع بالمخالفين وله مع البربر وقائع شهيرة وضبط الاحوال أحسن ضبط واستمر ناسجاً على ذلك المنوال الى أن توفى سنة ١٧١ ولما مرض استخلف ابنه داود وبأشر الولاية بعد والده وكانت له وقائع مع البربر الى أن قدم عمه روح بن حاتم بعهد من الرشيد وكان حاجبه وصدرأ من صدور ولاته وهو أسن من أخيه يزيد فدخلها أواخر عمره وأفاض فيها سجال عدله وكرمه ، وفي أيامه انكسرت شوكة البربر واستكانوا للتغلب وأطاعوا الدين فضرب الاسلام بجرانه وتوفى روح سنة ١٧٤ وتولى بعده نصر بن حبيب المهلبى بعهد من الرشيد وكان حسن السيرة يؤثر العدل ثم جاء كتاب الرشيد بعزله وولاية الفضل بن روح ولم يستقم له أمر وقتل سنة ١٧٨ واقترضت بانقراضه دولة المهالبة ، وفي سنة ١٧٩ عهد الرشيد كهرثة بن أعين وقدم افريقية في السنة بعدها واستقام أمره وبني القصر الكبير بالمستير ثم استقال الرشيد فأقاله ورجع للمشرق لسنتين ونصف من ولايته ، وكان قائداً محنكا وله مع المأمون يد في تخميد الثوار وتسكين الهرج والفضل له في ذلك وله مقامات يحمد عليها ويشكر وقتل في حدود سنة ٢٠٠ وبعث الرشيد لافريقية عوضه محمد بن مقاتل العكى وهو أخوه من الرضاة وكان اتهم البهلول بن راشد بالقيام عليه وبسبب ذلك اراد اضراره فمنعه الاهالى من ذلك وتوعدوه الثورة ان فعل في خبر تركناه اختصاراً

في خلاصة تاريخ العرب : كان بالولايات الشمالية من افريقية مسلمون مسنون بالبربر

(١) قوله : واسطة هذا البيت الخ آل المهلب بيت من بيوتات الاسلام من الازد اشتهروا بالكرم في أيام بنى أمية مثل اشتهار آل برمك في الدولة العباسية ونكبوا مثل نكبتهم وهم ينتسبون الى كبيرهم المهلب بن أبي صفرة . عمل المهلب لبني أمية وحارب عنهم الازارقة وآخر ما تولى من الاعمال بلاد خراسان تولاهما من جهة الحجاج يوم كان له العراقان وما زال عليها حتى توفى سنة ٨٣ وهو من كبار رجال الاسلام في تلك الدولة ، وكان كريماً التماساً لحسن الاحدوثة . ومن أقواله : الحياة خير من الموت والثناء الحسن خير من الحياة ولو أعطيت مالم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فى غداً اذا مت اه فهو من طلاب الشهرة بالسخاء وسار أبناؤه على خطواته فكثير الشعراء الذين مدحوم وأشهر أولاده يزيد بن المهلب والمغيرة ومنهم محمد بن يزيد بن المهلب من الاسخياء المدوحين وحبيب بن المهلب

مختصون بالحرية السياسية لعدم حاكم عليهم حتى ذهب اليهم من آسيا عرب أجروا عليهم حكم الخلفاء العباسيين ثم أخذ عبد الرحمن بن حبيب يستميل العرب والبربر حتى اتخذ منها أحزاباً زمن محاربة الأموية والعباسية من سنة ٧٤٦ الى سنة ٧٥٢ ميلادية واستقل بالحل والمقد لا شغال العباسية ثم انتصروا فانقاد لهم سنة ٧٥٣ حتى كلفه الخليفة المنصور بمطالب أفضت به الى الاعلان بالاستقلال والخطبة باسمه في جامع القيروان ثم طمع أخوه الياس وأوقع بين العرب والبربر فتنة سفك فيها كثير من الدماء حتى انتهت سنة ٧٧١ بنصر العرب فاجتهد الامير أغلب في جبر الجميع على الانقياد للمنصور ، ثم عصت البربر المهدي والرشيدي مرات خسرت فيها العباسية خسارات عظيمة آلت الى استقلال الاغلبية بافريقية وخلطوا دم البربر بدم العرب بالتصاهر وزال ما بينهما من التباعد والشقاق وانقاد الحكم لابراهيم بن الاغلب وفيه لم تهتم العباسية بمالكها الغربية وتركوها من بشمال افريقية يدرون أحوالهم كما شاءوا وأطلقوا للعائلة الاغلبية التصرف في افريقية مكتفين بذكر أمماتهم وقبل ذلك ابراهيم بن الاغلب من الرشيدي اه

فصل

اعلم ان العباسية تولت الخلافة سنة ١٣٢ وأولهم أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما واستمرت فيهم الخلافة الى سنة ٦٥٦ استخلف فيها منهم سبع وثلاثون خليفة ومكثت هاته الدولة مائة سنة خلفائها الحكمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامي ما عدا بلاد الاندلس ، يقولون فيسمع لهم ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم . وقام في هذا العصر الزاهر الباهر من العباسية ثمانية خلفاء أولهم السفاح وتوفي سنة ١٣٦ وقام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور وكانت وفاته سنة ١٥٨ وقام بالأمر بعده ابنه محمد المهدي وتوفي سنة ١٦٩ وقام بالأمر بعده ابنه موسى الهادي وتوفي سنة ١٧٠ وقام بالأمر بعده أخوه هارون الرشيد وكان ديناً محافظاً على التكليف الشرعية يغزو سنة ويهجم سنة وهو واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيها الخلافة الى أنفم درجاتها سلطاناً وسطوة وثروة وعلماً وأدباً وكانت وفاته سنة ١٩٣ وقام بالأمر بعده ابنه محمد الأمين الى أن قتل في محرم سنة ١٩٨ وقام بالأمر بعده أخوه عبد الله المأمون الى أن توفي سنة ٢١٨ وقام بالأمر بعده أخوه المعتصم الى أن توفي سنة ٢٢٧

قد علم مما مضى ان نظر الخلفاء منسحب على المغرب وظلمهم ممتد اليه وهم قادة الامم الاسلامية في كل شيء من أمور الدنيا والآخرة وذلك حينما كان أمر الخلافة ممتداً وحكمها مجتمعاً وكتبها نافذة في جميع ممالك الاسلام شرقاً وغرباً بحيث لا يخرج قطر من الاقطار ولا مصر من الامصار فيما بعد أو دنيا من الارض عن نظر الخليفة الاعظم وقد كان ذلك ديناً متبعاً

وحكاماً مجتمعاً ولا تصح لأحد اماره ولا ولاية الا باسناد اليه حتى اذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ذكرها من القاصية تفرقت ممالك الاسلام البعيدة عن دارها وتوزعها الثوار واستبدوا بها كل بما غلب عليه وصار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجتماع الى التفرقة وسيتضح لك ما قررناه مما سيأتي في محله ان شاء الله

صلة

قال ولي الدين بن خلدون: هؤلاء الملوك الذين أتوا بعد الخلفاء الراشدين لم يكن منهم في الملك مذهب أهل البطالة والبنى انما كانوا متحررين مقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة يحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتراء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بفعل عبيد الملك بن مروان وكان من الطبقة الاولى من التابعين وعداتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فزرع الى طريق الخلفاء الاربع والصحابة بعدهم ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى المقصد فيها واعتماد الحق في مذهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن تقوموا عليهم بافعالهم وأدلوا بالدعوة العباسية وتولى رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد بعدهم فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الأمر الى بنينهم فأعطوا الملك والترف حقه^(١)

(١) قوله والترف الخ بعث الاستاذ أرسطاطاليس رسالة لتلميذه اسكندر المقدوني تلخص المقصود منها « ان البطالة والرافية والسكسل واهمال الاجسام والعقول مضية للام وان ما يظنه الناس من ان الراحة سعادة والنصب والتعب شقاوة قضية فاسدة فالحكمة عكست آراء العامة وذلك بالبراهين المعلومة في التاريخ وان المدن التي آلت الى الراحة يقهرها الغاصبون وان الرجل الذي جاءت اليه المناصب والاموال عفواً تذهب بمنصبه وماله عواصف الحوادث ومصائب الايام » وأنى فيها على نصائح منها: « ينبغي للمدير أن لا يتخذ الرعية مالا ولا ما كلاً ولا قنية ولكن يتخذهم أهلاً واخواناً وان لا يرغب في الكرامة التي من العامة كرها ولكن في التي يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وينبغي أن يكون السلطان رئيساً لأحرار خيراً من أن يكون رئيساً لعبيد أذلاء واذا أذلم وكرهوه لا تدوم رأسته وان الرئيس اذا أذل رعيته فقد اختار أن يرأس البهائم لا أن يسود الرجال وينبغي أن يكون في شكل الاب وراسته على قليل من الاختيار خيراً من التسلط على كثير من العبيد ودوام الراسة يكون بالعدل ولين الجانب

وانغمسوا في الدنيا وباطلها وبنوا الدين وراءهم ظهرياً فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من
أيدي العرب جملة والله لا يظلم مثقال ذرة اه

في سراج الملوك : ان ادعى خصال السلطان صلاح الرعية واقواها تمسكهم بأديانهم وحفظهم
لمروءتهم واصلاح السلطان نفسه وتنزيهه عن سفاسف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترقيع
نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون والله والاعلان بالفسوق

اذا ما غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس في الميزان طالعة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وقد كانت صحبة محمد الامين لابي نواس الشاعر وصمة عظيمة عليه أوهى بها سلطانه
ووضع عند العامة والخاصة قدره وأطلق لسان الخلق بالشم والثناء القبيح عليه فخلفه بذلك
أخوه المأمون على الولاية وأبو نواس هذا هو القائل :

ألا فاسقنى خراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر

ويج باسم من أهوى ودعنى من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

والفضلاء يخضعون بالحياة والمحبة والسفهاء بالخوف . والسلطان اذا لم يكن عدلاً فهو يسمى غاصباً
لا سلطاناً وينبغي اذا حارب قوما وانتصر عليهم أن يجعل الرحمة محل الغضب وأن لا يجتهد على
الاشراف وأن لا يكون شديد الغضب كالسباع ولا ضعيفاً كالصبيان وأن يكون مستشاره مائلاً
الى فعل الخير وحذره استشارة الموهين الخادعين . وختمها بثلاث نصائح تكسب السلطان
حسن الذكر وهي : « حسن السيرة والبلاء في الحروب وعمران المدائن » . واسكندر المذكور
قصته تدرس في المدارس المصرية ومدارس العالم وهو تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف ويسمى
المعلم الاول وهو الذي انتشرت فلسفته في الامة الاسلامية وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو
٣٣٠ سنة وتولى الملك بعد أبيه وهو من أهل مقدونية وحارب الفرس واستولى على ملك دارا
وتزوج ابنته وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا حين جاء ليأخذ الجائزة وأظهر كرمًا وشجاعة
ولما دخل بلاد فارس رأى رجالاً ذوى وجاهة وبهجة وجمال وأبهة من أبناء الملوك والامراء
وأراد قتلهم فاستشار أستاذه المذكور فأرسل اليه « لا فضل في قتلهم وان قتل الرؤساء تتأجج ناره
في قلوب الامة ولا تخمد » وأمره بأن ينعم عليهم ويعطى كلا منهم ملك أبيه ويوقدينهم العداوة
والبغضاء دائماً ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوباً . افشى على تلك السياسة ثم سافر الى
الهند وحارب هناك وهو الذي بنى الاسكندرية لما حكم مصر لانها كانت تحت حكم الفرس .
مات عند رجوعه من الهند وعمره ثلاث وثلاثون سنة قبل أن يصل لبلاده ببابل وحمل
للاسكندرية ودفن بها في تابوت ذهبي

فريدة أنكر فيها نبذة من حضارة بغداد

في عهد المنصور والرشيد وابنه المأمون

اعلم ان بغداد وصلت في عهد هؤلاء الامراء الى قمة مجدها ومنتهى فخارها
أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حضارة عرفت لعمدها : بنيت فيها القصور الفخمة التي
أنفق على بناء بعضها مئات الالوف من الدنانير وتأنق مهندسوها في احكام قواعدها وتنظيم
أمكنتها وتشديد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناوىء قصور الجانب الغربي
كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الاسواق والجوامع والحمامات وبالجانب
الغربي كانت قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الابنية امتدادا
عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران
فيها لما جاءها من الثناء وصار سكانها نحو ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها . وكانت
متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها والهند والصين والشام
والجزيرة ، والطرق اذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبق من خراج الاقاليم الاسلامية
ويدخل بيت مال الخليفة يصرف منه مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقي يتصرف فيه
حسباً يرى وهو شيء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بلمال يعطى عطاء من لا يخشى
قراً للتقاضي والشعراء والفقهاء والمنجمين والكتّاب وجرى على سفنه كبار وزرائه وشيوخ
دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الاسفار بذكر عطاياهم التي يتردد الانسان في صحتها وراجت
التجارة واشتد الترف وتعالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معاشهم وانغمسوا في الملاذ واللهو
والخلاعة وذلك شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الامصار الاسلامية يرحلون اليها
ليتمسوا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية
على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين
وكلهم قائمون بالدروس والافادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا
لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب الا اذا رحل الى
بغداد وأخذ عن علمائها وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم
الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم ولم تكن بغداد بالقصرة في علوم
الدنيا كالطب والحكمة وغيرها من سائر الصناعات فقد حشد اليها الاطباء والمهندسون وسائر
الصناع من الاقاليم المختلفة وحصل بذلك نعيم عظيم ونهضة علمية بقي أثرها خالداً

أما الدولة الاموية فلم يكن في عهدها لترجمة الكتب كبير حظ ولا عظيم أثر لانها أقرب الى من قبلها في السداجة الصناعية فلما جاءت الدولة العباسية وكان لها اختلاط كبير بالفرس وهذا الاختلاط قد جعل نفوس العباسيين تصبو الى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار مقدمهم من العلماء والحكام والفلاسفة وأول من عنى بترجمة تلك الكتب أبو جعفر المنصور ثم الرشيد . أما أوروبا في ذلك الوقت فكانت مهد جهالة لانه بانقراض الرومانيين وغفلة الامم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم وأما الحال في البلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك عدداً وعملاً ببغداد وقرطبة فسعى شارلمان في اصلاح قوانين دولته مقلداً الرشيد وبعث وفداً اليه مصحوباً بهدايا ثم رجع الوفد ومعه هدايا منها ساعة وفيل وشطرنج وبعض أقشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الامور السحرية وأوقعهم في حيرة حتى هموا بكسر الساعة . كانت العلوم في عهد المأمون أرقى عهود العلم في العصر العباسي وظهر في وقته جمهور من فطاحل العلماء توغلوا في البحث عن أصول الدين والعقائد وكان المأمون محباً للعلم ولزيادة نشره ومغري بعلوم الاوائل وتحقيقها وله جولة في العلوم الدينية كما كانت له جولة في العلوم الصناعية وكان أثره في هذا أظهر من أثره في تلك وكانت له حركة قوية ونشاط عظيم بترجمة الكتب اليونانية وغيرها الى اللسان العربي وكان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا بنقلها الى اللسان العربي وبدلوا الرغائب وأنفذوا جماعة الى بلاد الروم فجاءوهم بطريف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب والنجوم فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت الى العربية اشتغل بها ناس كثيرون علما وعملا ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتباً عظيمة في هاته العلوم وكانت الامة في استعداد تام لتلقى هاته العلوم والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فنفتت بسبب ذلك هذه العلوم وكان المأمون المساعد الاكبر في نفاقها والفضل له في ذلك مع حفظ الفضل لمن سبقه كأبيه الرشيد وجده المنصور فانها وضعا الاساس اه . من محاضرات الخضرى

وفي خلاصة تاريخ العرب أن الصدر الاول من خلفاء بني العباس استعملوا شوكتهم في تزكية العقول وتنمية المعاش فأحدثوا كثيراً من المسكاتب والمدارس التعليمية والاكالات الاحسانية وحضوا على اكتساب التجارة وسائر الفنون واختص المنصور منهم فانه أول من حث على الاشتغال بالعلوم واقتدى به من بعده في نشرها وتوسعتها بجلبهم من الاقاليم التي فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وانشأهم كتبخانات ومدارس يتعلم فيها الخصاص والعام العلوم الفلكية والرياضية والطبية والفلسفية مع تعلم القرآن العظيم وتدريس تفسيره وخصصوا مدرسة رتبوا لها خمسة عشر ألف دينار يتعلم بها مجاناً ستة آلاف تلميذ من الفقراء والاغنياء وانتشرت اللغة العربية في كثير من الجهات واعتاد المأمون ومن اقتدى به حضور

الدروس العامة التي يلقيها المدرسون ويمتحن من أراد أن يوظف عدة امتحانات وصرف مبالغ من النقود على ذلك وعلى جميع العلماء لحل مشكلات المسائل ومهر في زمنه كثير من العلماء في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها واطلعوا شغوس العلوم الرياضية وبنوا الارصاد التي بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي ومستشفيات ومعامل كباوية لاستكشاف النباتات ومكثت تلك المدرسة على رونقها الباهر نحو مائتي سنة فكان للعباسيين في ذلك أسعد حظ واستخرجوا معادن الحديد ونسجوا الاقمشة في كثير من المدن واستخرجوا الغاز والنفطوطينة الاواني الصينية والملح الاندراي والكبريت وتقدموا في فنون النقش والعمارة والجبر والموسيقى والمنطق وظهر بين أولئك العلماء مؤلفات كثيرة بارعة في فنون شتى وأظهر دور الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد الى شيرلمانية ملك الفرنسيين من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيبها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة ولما حصلت التوسعة في الممالك مع غزارة المحصول وتنوع الاقطار توجه النظر الى رواج التجاره تميميا للتمدن وامثالاً لامر الشارع بالتكسب فاجتهدوا في أمن الطرق وحفر الآبار والصهاريج في محطات القوافل فانتشرت التجارة فكانت غلات الاندلس والبربر ومصر والحبشة والفرس والروس والهند والصين وغير ذلك من الممالك تأتي الى مكة والمدينة والشام والعراق ويستبدلون البضائع الموجودة في جهة بالبضائع المفقودة بها وكان بينهم بسبب ذلك علائق تعارف وكذلك اتسعت بالسواحل الشمالية من أفريقية دائرة التجارة وكان بها معامل كثيرة وكانت القوافل التجارية تسافر من طرابلس الى الاقياوس الاطلنطيقى غير خاشية من سيرها في وسط الصحراء الكبرى اه . وفيه قدحفظ العرب مؤلفات اليونان واستعدوا لتجديد المعارف في أوروبا فكانوا رابطة بين هذين الزمنين وبدا يثبت فضل العرب على الفرنج الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس في رابعة النهار ويعلم أن لاموقع لا فتخار المتأخرين من أهل أوروبا بتصورات أكثرها للعرب وسبق لك ما كان لعلماء المدرسة البغدادية من التحكم النافذ بالشرق والمغرب اه وزبدة القول أن الحضارة اتسعت في عصر هؤلاء الخلفاء ونمت العلوم الدينية والصناعية والاقتصادية نمواً باهراً فهو عصر النهضة العلمية وتزكية العقول فقد أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وتعاون على بنائها العقل العربي والفارسي والرومي وتأنق في ذلك بوجه جعلتها تفوق جميع مدن العالم في ذلك العصر وحشر لها العلماء من جميع الامصار والتجار والصناع واذا أطلقت على منتهى المملكة الاسلامية من جهة الغرب وجدت مدينة قرطبة تستعد الى مساماة بغداد وتجد في أفريقية مدينة القيروان التي ورثت عظمة المدن الافريقية الرومانية وانتقل اليها جمالها وتجد مدينة القسطنطاط حاضرة مصر وقد جمع مسجدها الاعظم حلقات العلماء الذين

أبقوا أكبر الآثار في الاجتهاد والاستنباط والذين أظهروا للناس كافة فقه الاثمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم من أصحاب مالك والشافعي وظهرت حركة علمية ونمت نمواً عظيماً بما كان من وصول المدينيات القديمة التي ترجمت كتبها الى رموس المفكرين من العرب وأول من اهتم بذلك أبو جعفر المنصور ثم جاء دور ثان على عهد المأمون فبلغ العلم الى أرقى درجاته وكان مغرماً جداً بالأدب اليونانية فانتشرت تلك الكتب انتشاراً عظيماً وصار ما فيها عاملاً لها في تكوين معلومات كثيرة صناعية وفي هذا الدور ازداد حفاظ القرآن واشتهروا في جميع الاقطار إلا أن المسلمين في كل قطر اعترفوا بالتبريز للقراء السبعة المترجم لهم في المقدمة وهذا الدور كان عصرًا مجيداً للسنة فقد تلبه رواها الى وجوب تصنيفها وتدوينها وقد وجدت هذه الفكرة في جميع الامصار الاسلامية في أوقات متقاربة فكان من مدونياتها في الدور الاول مالك بن أنس

تذييله

من أعيان علماء الدين وأئمة المسلمين في عصر هؤلاء الخلفاء إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه

الطبقة الخامسة

اعلم أن هارون الرشيد عهد بولاية أفر بنية لبراهيم بن الأغلب ، فباشرا أمرها واشتغل بها ، وصارت وراثه في عقبه ، وكان فقهاً أديباً شجاعاً أريباً حافظاً للقرآن عارفاً به ، سمع الليث بن سعد فهد الامور وطوع البربر وكانت له معهم وقائع مشهورة ووقائع بالمغرب الاقصى مع أهل الدعوة لادريس العلوي مؤسس فاس . وتوفى هذا الأمير سنة ١٩٦ و بويغ لابنه أبي العباس عبد الله . وكان سيء السيرة . وتوفى سنة ٢٠١ و بويغ لآخيه زيادة الله بن ابراهيم وكان ملكاً جليلاً فصيحاً أديباً ، وهو الذي شيد جامع القيروان وبني سور سوسة ووجه له المأمون بعهد الولاية سنة ٢٠٣ وتوفى سنة ٢٢٣ . و بويغ لأخيه ابي عقال الاغلب بن ابراهيم وكانت سيرته حسنة وله فتوحات بصقلية وتوفى سنة ٢٢٦

صلة

لما توفى القاضي أبو محمد عبد الله بن غاتم سنة ١٩١ أشخص ابراهيم بن الاغلب أبا محرز محمد بن عبد الله الكناني وقال له : انى عزمت على توليتك القضاء . فقال له أبو محرز : لست

أصلح لهذا ولا أطيقه ، فقال له ابراهيم لو كان الاغلب بن سالم ويزيد بن حاتم باقين لم أكن أميراً ، ولو كان عبد الله بن غاتم وابن فروخ باقين لم تكن أنت قاضياً ، ولكل زمان رجال ، وعلى الأمير الاختيار . فامتثل أبو محرز وكان فضلاً ورعاً فصيح اللسان بصيراً بالغة والشعر . أخذ عن مالك وكان يميل لمذهب أبي حنيفة ثم وقع تشريك أسد بن الفرات معه في القضاء ولم يمهده مثل ذلك في مصر واحد . وتوفي أبو محرز سنة ٢١٤ وكان هذا الأمير يقول ما أبالي اني قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات تجديد جامع القيروان وبناء قنطرة أبي الربيع وحصن مدينة سوسة وولاية أبي محرز قضاء افریقیة . وكانت ولاية أسد بن الفرات القضاء سنة ٢٠٤ بعهده من زيادة الله . وأسد هذا مولده سنة ١٤٢ بجران من ديار بكر . رحل به والده وعمره عامان مع الجند العربي لقيادة ابن الاشعث ودخل معه القيروان سنة ١٤٦ ، ثم دخل تونس وانقطع لقراءة القرآن وعلومه وروى الموطأ عن ابن زياد ، وفي الثامن عشر من عمره رحل للمشرق وأقام بالمدينة مدة وأعاد رواية الموطأ على مالك ، ثم رحل للعراق ولقي أعلاماً من أصحاب أبي حنيفة منهم الامامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن وأخذ عنهما علماً غزيراً ، ثم رحل لمصر ولقي جماعة من أعيان العلماء منهم الامام عبد الرحمن بن القاسم فزوره مدة وهناك ألف الاسدية ثم قفل راجعاً للقيروان وبها انتشر ذكره وظهر علمه وارتفع قدره وفي سنة ٢١٢ جمع زيادة الله جيوشه وأسطوله لغزو صقلية وكان أمير هذا الجيش وقاضيه أسد المذكور فخرج في حفل عظيم وجمع نخيم من أهل العلم ووجوه الناس لمشايسته . ولما رأى أسد الناس خاصتهم وعامتهم بين يديه وخلفه قال بعد حمد الله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يامعشر الناس ، والله ما ولي لي أب ولا جد ولا ولاية قط ولا أحد من سلفي رأى هذا قط . وما رأيت ماترون إلا بالأقلام فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه واصبروا على شدته فانكم تناون به خير الدنيا والآخرة . وهذا الاحتفال انتهى بمرسى سوسة ومنها ألقم الاسطول قاصدا صقلية ودخلها بعد مكابدة مشاق وحصل له فتح عظيم بها . ومات أثر جراحات في حصار سرقوسة ودفن بذلك الموضع سنة ٢١٣ . في كتاب الاعتصام نص كتاب بعثه أسد بن موسى الى أسد ابن الفرات يشكره على اتباعه للسنة والذب عنها وطعنه في المبتدعة . وقال في خامته : ادع الى السنة حتى يكون لك في ذلك الفة وجماعة يقومون مقامك ان حدث بك حادث فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب في ذلك الى يوم القيامة . كما جاء في الاثر . فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد الله بك المتبوع والمفتون الزائع الجائر فتكون خلفاً عن نبيك ﷺ فاحي كتاب الله وسنة نبيه فانك لن تلقى الله بعمل يشبهه

تذبيته

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن فروخ وابن غانم وأبو محرز والبهلول بن راشد وأبو الحسن بن زياد وأسد بن الفرات

الطبقة السادسة

لما توفي أبو عقاب المتقدم الذكر بويج لأخيه أبي العباس محمد وكان مظفراً في حروبه ، وله وقائع مع بعض آل بيته . ومن فضائله ولاية سحنون القضاء ، راوده حولاً كاملاً على أن يولية القضاء فأبى ، ثم عزم عليه بالإيمان التي لا يخرج منها فلما رأى ذلك سحنون اشترط عليه شروطاً منها أنه قال له : انى أبداً بآل بيتك وأعوانك فان قبلهم حقوقاً للناس منذ زمان طويل ومنها أن آل الاغلب اذا طلبهم أحد يحضرون بأنفسهم فى مجلس الحكم ولا يوكلون غيرهم لما يرون فى ذلك من الردع لهم لأن الافقة تمنعهم ذلك فلا يقع منهم التعدى ولا حجر الحقوق . وبأشر بنفسه خطة الحسبة مع القضاء . رحل لمصر سنة ١٨٨ وقرأ الاسدية على ابن القاسم . وفى الديباج : لما ولى القضاء دخل على ابنته خديجة - وكانت من خيار النساء - وقال لها : اليوم ذبح أبوك من غير سكين . فبذلك علم الناس أنه قبل القضاء . انتهى وناهيك من قوم قاضيهم مثل الامام الذى لم يقبل القضاء الا بشروط وناهيك بذلك الامير الذى وفى له بتلك الشروط وتوفى هذا الامير سنة ٢٤٢ و بويج لابن أخيه أبى ابراهيم أحمد بن محمد وكان فاضلاً عادلاً حسن السيرة كثير الصدقات رفيقاً بالرعية وكانت فى أيامه وقائع بصقلية أكثرها للمسلمين ، وله مآثر خالدة منها التوسعة فى جامعى القيروان وتونس وتوفى سنة ٢٤٥ وهو ابن ثمان وعشرين سنة و بويج لزيادة الله بن أحمد بن محمد وكان فاضلاً عاقلاً حسن السيرة شجاعاً جميل الافعال . كان سليمان بن عمران القاضى يقول : ماولى من بنى الاغلب أعقل من زيادة الله هذا ، وتوفى سنة ٢٥٠ و بويج لأخيه محمد بن أحمد المعروف بأبى الغرائيق لشغفه بصيدها وكان يغلب عليه اللهو وكانت فى أيامه حروب عظيمة وكان فتح جزيرة مالطة على يده سنة ٢٥٥ وأسر ملكها وتوفى سنة ٢٦١ و بويج لأخيه ابراهيم بن أحمد وكان عادلاً حميد السيرة وفى أيامه كان فتح سرقوسة ، ثم ساءت سيرته وأفتك بكثير من اخوته وبناته وآل بيته وجواريه وخدمه فى أخبار تدوب منها الاكباد وتتشعر منها الجلود وكانت أفعاله السيئة أحد الاسباب فى ضعف هاته الدولة المؤذن بزوالها ثم أظهر التوبة وأقلع عما كان عليه واستنفر الناس للجهاد ووسع على المقاتلة وفرق الاموال وخرج من سوسة الى صقلية وهو أمير الجيش سنة ٢٨٤ فسبى وغنم ودخل بليرمو وبها توفى سنة ٢٨٩ فى ذى القعدة بعلة أصابته ودفن هناك ، وقيل نقل للقيروان و بويج لابنه

أبي العباس عبد الله وكان شجاعاً ثباتاً ذا بصر بالحروب أديباً عاقلاً حسن السيرة وله وقائع في صقلية مشهورة وقتله غلامان من غلمانه غدرًا وكان يثق بهما باغراء من ابنه أبي منصور زيادة الله في شعبان سنة ٣٩٠ وبويح لابنه أبي منصور المذكور وإذ ذاك نار دواعي الشيعة تأكل أطراف مملكته حتى استولى عليها شيئاً فشيئاً بعد حرب كانت الهزيمة فيها عليه سنة ٣٩٦ ورحل عقب الهزيمة إلى المشرق بما خف من الأموال ونفيس الجواهر وتوفي بتلك الجهة سنة ٣٠٣ وجرى له ماجرى فكانت عاقبته كما ترى لعقوبه والده وقتله إياه وانقرضت بانقرضه دولة بني الأغلب ومدتها مائة سنة وأحد عشر سنة وثلاثة أشهر ، وفي مدتهم استقل المغرب الأقصى وصار في تملك الإدارة في أخبار طوال وأولم ادريس بن عبد الله واستفحل أمره في تلك البلاد وأسس مدينة فاس وأخبار المغرب الأقصى من عهده إلى هذا العهد مبسوطه في الاستقصى وغيره . واعلم أن ولاية إفريقية من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا على السذاجة همهم الجهاد ودخول الناس في الدين الإسلامي وحفظ ما فتحوه ولما آل الأمر إلى بني الأغلب اشتغلوا أيضاً بالحروب والفتوحات وجمع العساكر النافعة مع ما فيهم من السذاجة العريية والبعث عن عزة الملك وأخلاق الحضارة فكانت قضاتهم يحكمون عليهم وينصفون الناس منهم ومن غيرهم وأخبار قضاة العدل المذكورة مضافة ومستقلة مع تقدم في إحياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة . في خلاصة تاريخ العرب أدخل الأغلبة في الأقاليم الإفريقية جميع مبادئ التمدن الإسلامي التي كانت بالشام والعراق وأخذوا يقيمون في تونس والقيروان وطرابلس فامتلات تلك المدن مباني أبدت للناظرين الأقواس المادية والدعم المخرقة على حسب مبني العمارة الروماني وبنوا قناطر على مجارى سيول سريعة التيار واجتهدوا في إحياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وأنشأوا مراكز تجارية سهلت مخالطة سكان الصحراء بسكان السواحل وجددوا طرقاً أبدوا فيها الأمن وجعلوا نظارة محل البريد في أيدي أعيان البلاد ورتبوا بتلك المحال ابقاء التواصل التام بواسطة السعاة والبريد الخليلي من ابتداء حدود المغرب إلى حدود مملكة مصر وعمرؤا سفننا بحرية حكموا بها على البحر الأبيض المتوسط وغزوا سواحل مملكتي إيطاليا وفرنسا وجزائر قرقرسه وسردانيا وسيسيليا وبالغ مؤرخو الفرنج في الحكايات المتعلقة بتلك الغارات واستولوا على مقاطعات كثيرة ومدن شهيرة ثم ذكرها مدينة مدينة تركنا إيرادها هنا اختصاراً . ثم قال وبالجملة أجاد العرب في ترتيب وتقسيم تلك البلاد وقدموا فيها الفلاحة والصنائع ونقلوا إليها شجر القطن من الشام وقصب السكر من طرابلس الغرب ولسان عصفور الفستق واستخرجوا ما فيها من معادن الفضة والحديد والنحاس والكبريت والملح الاندراي والمباني الموجودة منها في ضواحي بالرمة تؤذن بمهارتهم في العمارة وفشا نسج الحرير بيسيليا ومنها انتشر في أوروبا . انتهى باختصار

وفي الفتوحات الاسلامية : كانت ولاية ابراهيم بن الاغلب أفريقية سنة ١٨٤ بعد من هارون الرشيد وتوارث الملك بعده بنوه عمالا لخلفاء بني العباس واستمر فيهم الى سنة ٢٩٦ فزالت دولتهم وصارت للعبيديين واتسع ملكهم بأفريقية وصارت لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرّة وملك ضخّم ومراكب في البحر ولهم كثير من المآثر المحمودّة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وأكثر فتوحات أفريقية كان على أيديهم بصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة كثيرة البلدان والقرى والمواشي وكان أول الغزو إليها زمن معاوية بن حديج في خلافة معاوية رضي الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو إليها زمن ولاية بني الاغلب من أول دولتهم الى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو الى أن انقضت دولتهم وتفصيل ذلك مبسوط في التواريخ . انتهى

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء الامام سحنون وابنه محمد وابن عبدوس وحمديس وعيسى بن مسكين وبجي بن عمر

الطبقة السابعة

لما انقرضت دولة بني الاغلب وآلت الى بني عبيد في أخبار طوال بواسطة أبي عبد الله الصنعاني من صنعاء اليمن وكان صاحب جدل ودهاء وحذق وسياسة . كان أول ملوك هاته الدولة أبو محمد عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب يفتى نسبة الى سيدنا علي رضي الله عنه وأثبت نسبهم الكريم ولي الدين بن خلدون . وقال ابن خلكان : في نسبهم خلاف كثير وهاته الدولة تعرف بدولة الشيعة ، والشيعة لغة : الصاحب والاتباع ، وفي عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف أطلق على أتباع علي وبيته رضي الله عنهم وهم طوائف فمنهم الضال ومنهم العاصي ، وكان عبيد الله هذا رجل الدنيا دهاء وعقلا مهيباً ولما استقل بالامارة سنة ٢٩٧ واستقام له الحال بعد تمهيد الامور وتفقد العمال غزا صقلية واسكندرية ومصر وساعده المقدور وأسس مدينة المهديّة في جزيرة جمة وحصنها وانتقل إليها سنة ٣٠٨ وثار عليه مخلد بن كيداد الاباضي واستولى على غالب أفريقية وتوفي في ريعان الثورة سنة ٣١٣ وبيع لابنه أبي القاسم محمد وكان ذا نجدة وبأس وبعث مولاة كاتبه جوهرأ باسطول عظيم في جيوش كثيرة لأرض الروم وفتح مدناً وحصوناً منها جنوة ومهد النواحي وقمع الثوار ومنهم مخلد المذكور وكان داعياً الى الحق آخذاً بالحسبة منكرأ مذهب الشيعة مظهرأ اقامة السنة وبذلك استمال الخاص والجمهور وقاد الامور بتجنيد الجنود لقتال الشيعة ووالى الهزائم على أبي القاسم المذكور حتى استعان بزيري

ملك صنهاجة ومات أبو القاسم على حصار سوسة سنة ٣٣٤ وبويع لابنه المنصور أبي الطاهر اسماعيل بعهد من أبيه وكان فصيح اللسان بليغاً وتوالت الحروب بينه وبين مغلد المذكور الى أن ظفر به سنة ٣٣٦ وصلب جلده محشواً قطناً على باب المهديّة وبعث بأسطوله لغزو الفرنج فأتيح له فتح لا كفاء له وذلك سنة ٣٤٠ وتوفى في السنة بعدها وهو أول من استعمل نبي أبي الحسن على مملكة صقلية واتصلت بها أيامهم وفي المدارك اتفق شيوخ القيروان على الخروج على ملوك الشيعة بنى عبيد وقتلهم منهم السبأى والخراط وأبو العرب والميسى والقطان ومروان العابد وبعد الاتفاق والقاء الخطب المحرّضة على ذلك قصدوا المهديّة في جند عظيم وبعد قتال شديد كانت الهزيمة عليهم واستشهد الكثير منهم (١) فمن العلماء والعباد خمس وثمانون منهم ربيع القطان والميسى . انتهى . وحاصل القول ان هذا الخارجي مغلد المذكور أوهم الناس انه منتصر للسنة وتبين بعد حروب ومصائب انه ساء السيرة خبيث السريرة ولما توفى المنصور بويع لابنه معد أبي تميم المعز وهو مجل بيّتهم وواسطة عقدهم فأحسن السيرة ودوخ البلاد وآمن المخالفين ورسخت قدمه وعظم سلطانه ووجه وزيره جوهرراً للغرب الاقصى فهدأ أحواله في أخبار شهيرة وكان له نصر وفتح في صقلية سنة ٣٤٥ ثم وجه وزيره جوهر المذكور لمصر في عساکر تفوق الحصر سنة ٣٥٨ وخرج لتوذيعة بنفسه ودخل جوهر مصر في شعبان من السنة وشرع في بناء القاهرة وأسس الازهر ثم وجه عسكراً استولى على الشام والحجاز واستحث جوهر سيده المعز على القدوم فأجابته لذلك ورحل في ربيع الانور سنة ٣٦٢ بأمواله وأهله وذخائره وجنوده في احتفال لم يسمع بمثله وصاحبه في رحلته الشاعر المشهور أبو القاسم محمد بن هانيء الاندلسي ومات في الطريق واستخلف على المملكة أبا الفتوح بلكين وسماه يوسف بن زيري الصنهاجي ولما دخل المعز الاسكندرية تلقاه فقهاؤها وأعيانها بالاجلال ثم دخل مصر في شعبان من السنة واستقر بها قراره وصار له ملك الشرق والمغرب من سوس الاقصى ومضيق سبتة الى مكة المشرفة ولم يزل على الكعب آمن السرب الى أن توفى سنة ٣٦٥ ومدة ملك الشيعة بالمغرب اثنان وستون سنة

تلميح

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء فضل بن مسلمة وسعدون الخولاني وربيعة القطان وأبو العرب تميم والاياني وابن اللباد والكافيشي والميسى

(١) قوله واستشهد الكثير، هذه الواقعة كانت بوادي المالح القريب من قرية تعرف بطيلبة وبقرها على ساحل البحر مقبرة عتيقة تعرف بالفاضلين مقصودة بالزيارة من أهالي على المهدي والمنستير الى هذا العهد المظنون انها مقبرة الشهداء المذكورين والمراد بالفاضلين الفاضلون

الطبقة الثامنة

لما رحل المعز استخلف على المغرب بُلْكِين يقال له يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى ويوسف هذا أسس مدائن بالمغرب الاوسط منها مليانة والجزائر وقام بأمر النيابة أحسن قيام ورتب العمل وكان حسن السيرة جميل الخصال مع صيت طائر وكفاءة معروفة وقصد المغرب بجيوش جرارة واستولى على فاس وسجلماسة وغيرها وشتت جموع زناتة واتسع نطاق ملكه ولم يزل على طاعة مستخلفه الى أن توفى سنة ٣٧٣ وبويع لابنه أبى الفتوح منصور بن يوسف وكان جواداً كريماً شجاعاً صارماً وكانت أيامه حسنة والظفر حليفه وكانت بينه وبين أعمامه حروب وتوفى سنة ٣٨٦ وبويع لابنه أبى مناد باديس بن منصور وكانت له حروب مع عمه حماد وغيره كان النصر فيها لباديس وعقب انتصاره مات باديس فجأة فى ذى القعدة سنة ٤٠٦ وأسس حماد المذكور دولة فى المغرب الاوسط قاعدتها قلعة حماد وصارت لبنية ومن يومئذ انقسمت الدولة وطرقها انحلل وهؤلاء الامراء الذين هم فى الحقيقة عمال لبني عبيد بلغوا درجة الملوك فى الضخامة وتمد الصيت والسلطان . ولأبى اسحاق ابراهيم بن قاسم المعروف بابن الرقيق القيروانى تأليف فى أخبار باديس وأبيه وجده وكان بين باديس وأبى محفوظ محرز بن خلف تراسل وكذلك بينه وبين ابنه المعز الآتى ذكر بعضها فى خاتمة الخاتمة الآتى ذكرها

تذبيره

قد علمت مما تقدم ما كان عليه ملوك بني الاغلب ومن قبلهم من المحافظة على الدين وعلى ما وقع فتحه والاشتغال بجمع العساكر والفتوحات وتمهيد الراحة وجاء بعدهم الفاطميون بنو عبيد وكان اشتغالهم بالحروب وبث الدعوة فى الافكار والزيادة فى المملكة وعمالهم ملوك صنهاجة مثلهم . وقانون الملك الاسلامى هو القرآن العظيم وأقوال رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وكان لهم والمعز الآتى ذكره الى آخر دولته التفات واهتمام بأهل العلم والادباء بالصلوات المتوالية ومجالستهم مع التعظيم والاجلال والتكريم ومكاتبتهم ، فقد كان باديس يكاتب أبى محفوظ محرز وكذلك ابنه المعز وكان يبعث المال والكتب للعلماء وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى ترجمة أبى بكر عتيق السوسى ، وفى مدتهم كان سوق العلم ناقماً بالغاً للغاية والعلماء الفحول والادباء والحكماء والمهندسون كثيرون جداً ، كان أبو الطيب ابن بفت خلدون من علماء الحساب والهندسة دبر سوق خليج من ساحل البحر الى القيروان والحكاية مشروحة فى المقصد عند التعرض لترجمته ، وكان للعلماء يد واعانة فى سياسة الملك من ذلك أمرهم

بالمعروف ونهيمهم عن المنكر على نحو ما جاء به الشرع العزيز، ولذا كان الملوك يلاقون من شدة العلماء عليهم ما يتجرعون مرارته كسحنون وسعدون الخولاني وربيح القطان وأبي محفوظ محرز بن خلف . وسرى قريباً الخبر عن القيروان بما فيه عبرة لنوى الفضل والشان

فصل

قد علمت مما تقدم أن الاندلس استولى عليه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل وصار وراثته في بنيه وبقى الكلام على ما آل إليه أمرهم فنقول : ان في أيامهم استفحلت الاندلس واستبحرت بالعلوم والمعارف والصنائع مع عمران باهر وحضارة وتمدن زاهر . في خلاصة تاريخ العرب : نصح عبد الرحمن المذكور ولده الحكم قبل وفاته بقوله : يا بني ، ان الممالك ملك الله وهو يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء كما يختار وحيث أنه قد أجلسنا على سرير سلطنة اسبانيا فلنشكره جزيل الشكر الابدي ولنصنع الخير بخلقه لنكون عاملين طبق اوامره المقدسة ، فان الله تعالى لم يجعل فينا الشوكة العظمى الا لنفعل الخير بعباده ، فلنجعل عدلك مستقيماً بين الغني والفقير ، وعامل جنودك يرفق وبر وأمرهم بالحماية على البلاد وانهمم عن الظلم والجور بين العباد . وحام عن الفلاحين الذين تفتتت من نتائج أشغالهم واستلفت نظرك نحو مزارعهم ومحصولاتهم حتى تكون الرعية سعيدة الحال في ظل سلطانك ولتتمتع الرعية في الأمن بخيرات الحياة ونعيمها . انتهى . ثم قال ما ملخصه : من ملوك الاموية عبد الرحمن الثالث أدخل في السياسة علوم بغداد واجتهد في تقديم العلوم والفنون ، وجعل قرطبة ومدائن الاندلس بالمباني الفاخرة ، وبني قرب قرطبة لجاريته زهراء قصراً وصفته التواريخ العربية بما لا يتصوره الذهن ، وكان عصره أزهر عصر خلفاء الاموية ، وبالجملة كان حازماً للنصر الحربي والعلم الفائق والمال الوافر والزينة وجميع أسباب الاشتهار الدنيوي ، ولما مات وجد في بعض أوراقه ما نصه : انه قد مضت مدة خمسين سنة منذ توليت الخلافة وتمتعت بعلو الشأن وكثير من خزائن الاموال والملاذ والحظوظ حتى أنفذت كل ما ظفرت به منها ، وان الملوك المقارنين لي في عصرى يعتبرونني ويخشونني ويعبطونني وجميع ما تشبهه الرجال قد أنعم الله به علي من فضله وقد أحصيت مدة خلافتي التي ظننتني فيها سعيداً فرأيتها أربعة عشر يوماً فيها أيها الناس قدروا بعقولكم ما قيمة عظمة الملك عند الملوك والدنيا والحياة انتهى . قلت : عبد الرحمن هذا هو عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولي الملك سنة ٣٠٠ وتوفي سنة ٣٥٦ واتسع الملك بالاندلس في موته ومن اتساعه أنه بنى تجاه قرطبة مدينة

سماها الزهراء لسكناه هي من عجائب الدنيا دالة على قدر بانها وأنفق فيها من الاموال خمسة وسبعين
مائة الف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر الف فتي وسبعمائة وخمسين فتي لهم من اللحم
كل يوم ثلاثة عشر الف رطل غير أنواع الطير والحوت ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف
وسبعمائة وثمانون والمرتب على الخبز لحيان بحيرة الزهراء اثنا عشر الف خبزة وأما أوصاف
هاته المدينة قائمها طويلة . ومن أغرب ما يحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوماً فعمد في البهو
الكبير واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك
اذ اطل زوزور فصعد على إناء من ذهب وأنشد ذلك الزرزور :

أيها الفاصد رفقاً بأمر المؤمنين انما تفصد عرفاً فيه محيا العالمين

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسر به غاية السرور ووهب لمعلم
الزرزور ثلاثين الف دينار . ولما أتم بناء الزهراء وبها قبة جلوسه منخرقة صنع طعاماً دعا اليه
العلماء وجلس في تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضي مندر بن سعيد البلوطي فلما رأى
تلك القبة أنكر عليه ذلك الصنيع فأثر عليه انكاره فقال له جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك
خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر في الناس أمثالك . وأمر بنقض سقف القبة
الذي طواه بالذهب وأعادها على صفة ليس بها ما ينكر عليه فيه . ومن أخباره أنه أغضب
جاريته طروف فهجرته وكان يحبها ، فأرسل اليه يترنمها فأبت وأغلقت باب مجلسها فامرهم
بسد الباب عليها من خارجه ففعلوا وبنوا عليها بالبدر^(١) . فاقبل حتى وقف بالباب وكلما
مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب من البدر فأجابت وفتحت الباب
فنهالت البدر بيبتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور فلا يرد شيئاً
تبرمه ، وكانت له غزوات كثيرة شهيرة . وقد ذكر أبو العباس أحمد بن عبد ربه في العقد
الفريد اثنين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها في منظومة من الرجز ، وكان
معاصراً له وبذلك طارصيته وانتشر ذكره واطاعته بنو إدريس امراء العدو وملوك زناتة
والبربر حتى صار ملكه غاية في الضخامة وعلو الشأن . ولما توفي بويغ لابنه الحكم المستنصر
بالله فقام بأعباء الملك خير قيام وكان عالماً نبيلاً أقام للعلم والعلماء سوقاً نافعاً واجتمع عنده من
خزائن الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . في غرائب الغرب لأبي عبد الله محمد كرد
على : كان للانديسين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت
قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم
من آلات التعمين والرياسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة وقد أنشأ الحكم الثاني
عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن

(١) قوله بالبدر جمع بكرة وهي الكمية العظيمة من المال

يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخ أو نسخة لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول، وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمئة ألف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلوات لبعض مؤلفي الشرق والاندلس حتى يذكروا في مقدمتها أنهم ألفوها برسم خزائنهم، ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك أو منهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء في الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية وكان المظفر بن الاقسط صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى في خمسين مجلداً في الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله ابن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لابي عامر أمير الأندلس في دولة هشام المؤيد مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها يحضرته وقد أنشأ الحكم مجمعاً وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم وأنشأ أحمد بن سعيد النصرى مجمعاً في طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة وما جاورها ثلاثة أشهر في السنة، يعقدون اجتماعهم في ردهة^(١) فرشت أحسن فرش يبدعون عملهم بقراءة آيات من الكتاب العزيز ثم يتناكرون في تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث في فنون شتى في العلم والحكمة اه وقال ابن حزم عدد الفهرسات التي فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرسة كل فهرسة ست وعشرون ورقة ليس فيها الا أسماء الدواوين وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشيء كثير قيل ان كتبه كانت أربعمئة ألف مجلد قلما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظم ومكتوب على هوامشه خطه. ولما ألف أبو الفرج الاصبهاني كتابه الاغانى بعث للحكم نسخة فاجازه بألف دينار وقد تقدم في ترجمة الميعطى وابن الميكوى أن الحكم هذا كلفها بتأليف الاستيعاب ألفاه وأجازها على ذلك جائزة سنية وكانت مدة ولايته ستة عشر سنة وبويع لابنه هشام المؤيد وعمره تسع سنين واستوزر محمد بن أبى عامر الملقب بالنصور المعافى ومعاقر بطن من حمير وباشر هذا الوزير تدبير الملك بنفسه وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالماً متفنناً وله غير ذلك من الصفات الحميدة وسيرته مشهورة في التواريخ ومفردة بالتأليف واستمر على سيرته سبعا وعشرين سنة وذكر في نفع الطيب كثيراً من غزواته وأخباره في الكرم والعمو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تشمل مجلدات وتوفى

(١) قوله ردهة النقرة في الجبل أو في الصخر يجتمع فيها ماء السماء والبيت الذى لا أعظم منه وأوسع محل في البيت

في صفر سنة ٣٩٢ فقام بأمر الوزارة بعده ابنه فولاد عبد الملك فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين ثم قام بالأمر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم طلب من هشام أن يجعله ولي عهد فاجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك ثم سعى كثير من الأمويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة إلى أن قتلوا عبد الرحمن المذكور سنة ٣٩٩ ثم خلعوا الخليفة هشاماً وبايعوا غيره ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ٤٠٣ وثار بسبب ذلك فتن كثيرة يطول ذكرها آل الأمر فيها إلى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر إلى أن انقضت الدولة الأموية من الأرض سنة ٤٢٨ وانتزعت الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف متغلبين في كل ناحية ملك مستقل وتغلب بعضهم على بعض ولا حاجة بنا إلى ذكر أسمائهم ومن أشهرهم بنو عباد ملوك أشبيلية الذين منهم المعتمد بن عباد وعند ذلك استفحل أمر النصاري بالاندلس وجرت بعد ذلك أمور ستقف على بعضها إن شاء الله وهي مبسوطة في نفتح الطيب وغيره . قال ولي الدين بن خلدون إن دولة بني أمية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمورها واقتسموا خطتها وتنافسوا وتوزعوا ممالك الدولة كل واحد منهم على مكان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن ملك العجم من الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته لاستيلاء الترف عليهم ولذلك يشير ابن رشيقي في قوله:

مما يزهدي في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتصم
ألقاب سلطنة في غير مملكة كاهر يحكي انتفاخ صورة الاسد

تذبيته

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن أبي زيد والقابسي والخشني وابن التبان وابن مسرور ومسرة والجينياني ومحرز بن خلف

الطبقة التاسعة

لما توفي باديس بويع لابنه المعز بالمهدية وعمره ثمانى حجج وذلك في ذى الحجة سنة ٤٠٦ وباشرت جدته أمور الدولة إلى أن توفيت وسند ذكر خبرها في الخاتمة . والمعز هذا هو واسطة عقد ملوك بني زيري توفرت في أيامه أسباب العز والثروة والعمران وكان حسن السيرة محمود الآثار أديباً مجتنباً سفك الدماء إلا في حق . حديد الذهن . له معرفة بكثير من الصنائع

وله شعر جيد محبباً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدار
يجيز الجوائز السنوية ويعطى العطاء الجزيل . ومن شعراء دولته ابن شرف وابن رشيق . هاداه
ملوك السودان والروم واستقامت أموره وكانت بافريقية مذهب الشيعة والصفيرية والاباضية
والنكارية والمعتزلة وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك
فظهر له حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه حسب المادة الخلاف بالمذاهب واستمر
بذلك الحال الى احتلال العساكر العثمانية افريقية وسند كره في محله ان شاء الله . وفي أيامه
اشتدت شوكة زناتة وكانت له معهم حروب ثم ان المعز قطع العلائق مع دولة بني عبيد بمصر ودعا
وخطب باسم دولة بني العباس ولذلك أضمر بنو عبيد الشر والانتقام منه فوجهوا في سنة ٤٤١
قبائل من عرب الصعيد كبنى هلال وبنى سليم وغيرهم معروفين بالطيش وشدة البطش للتشفي
من المعز وافريقية وانتشروا كالجراد ودخلوا افريقية وعثوا فيها بالبغى والفساد وأذاقوا أهلها
لباس الجوع والخوف بما لم يعهد . قال ابن خلدون : وصارت خراباً كلها بعد أن كانت ما بين
السودان والبحر الرومي كلها عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء
وشواهد القرى والمدائن وقال البكري : كان بالقيروان ثمانية وأربعون حماماً وأحصى ما ذبح
بالقيروان في بعض أيام عاشوراء خاصة فانتهى تسعمائة وخمسين رأساً من البقر وجباية سواحل
القيروان سوسة والمهدية وشفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخارج الذي لغير
بيت المال ثمانون ألف مثقال من الذهب وفي سنة ٤٥٢ سببت القيروان وأخليت ولم يبق فيها
الا ضعفاء أهلها . انتهى . وقال ابن عذارى : كانت القيروان من أعظم مدن المغرب طرا
وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي
عن الشبهات واجتناب المحرمات الى أن توالى الجوائح عليها بدخول العرب لها على ما يأتي
ذكره فلم يبق فيها الا أطلال دارسة وآثار طامسة ، وقال : تولى المعز وهو ابن سبع أو ثمان
سنين وتربى في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال وكان عالماً ورعاً زاهداً وكانت افريقية
أكثرها على مذهب الشيعة وخلاف السنة والجماعة فحرض ابن أبي الرجال المعز وأدبه وأدله على
مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان فخرج المعز في بعض
الأعياد الى المصلى وهو في زيقته وحشوده وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك أبو بكر
وعمر فسمعته الشيعة التي كانت بعسكره فبادروا اليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومن كان
يكنم السنة من أهل القيروان ووضعوا السيف في الشيعة . قال أبو الصلت فصاح بهم في ذلك
الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد افريقية ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع دعوتهم وفي
سنة ٤٤٠ قطع المعز الخطبة لصاحب مصر . قال ابن شرف : أمر المعز بأن يدعى على منابر
افريقية للعباس بن عبد المطلب وتقطع دعوة العبيديين وأمر بلعنهم في الخطب وسبهم بأشنع

السب وأمر بتبديل السكة على أسماء بنى عبيد فنقش الوجه الواحد : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وفي الوجه الآخر : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأمر بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بنى عبيد وكانت أموالاً عظيمة ثم بعث في الناس من قطع سكتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدرهم وغيرها وتم الأمر بذلك سنة ٤٤١ ولما آل الأمر إلى التصريح بلعنة بنى عبيد على المنابر وأمر المعز بقتل أشياعهم أباح بنو عبيد للعرب بمجاز النيل وكان قبل ذلك ممنوعاً لا يجوز له أحد من العرب ثم أمر لكل جائز منهم بدينار فجاز منهم خلق عظيم من غير أن يأمرهم بشيء لعله أنهم لا يحتاجون لوصية فجازوا أفواجا ووصلوا إفريقية وكان وصولهم الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وبعد حروب وأهوال في أخبار طوال فر المعز بما خف إلى المهديّة . انتهى ابن عذارى . وقال ابن خلدون : إن ملوك صنهاجة فسدت طباعهم أواسط المائة الخامسة واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهديّة حتى تأذن الله بانقراضهم وجاء الموحدون بقوة قوية من المصامدة فحوا آثارهم انتهى وفي المعجب كانت القيروان دار ملك المسلمين بإفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يولون عليهم الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبدت الأغلبة بملك إفريقية بعض الاستبداد فآخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملوكها ثم ولوا عليها حين ارتحلوا زيري بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيري وبنوه ملوكا عليها إلى أن كان آخرهم تميم بن المعز فانهبت الأعراب وخربتها وكانت منذ الفتح إلى أن خربت دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكبر علمائه وأهلها كانت رحلة أهلها في طلب العلم وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومنافعه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عبيد وكتاب ابن زيادة الله الطنبلي فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل ناحية كصر وصقلية والاندلس ومنهم طائفة عظيمة قصدت المغرب ونزلوا مدينة فاس اه باختصار . وفيه كانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس الغرب حصون متقاربة جداً فإذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الاسكندرية والعكس في ثلاث ساعات أو أربع من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم ولم يزل هذا معروفاً إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق للمغرب وذلك في حدود سنة ٤٤٠ حين تغير ما بينهم وبين المعز الصنهاجي وقطم الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس . اه . معجب والحاصل أن مقدار ما وصلت إليه القيروان في أوائل ملوك بنى زيري ومن قبلهم فوق ما يذكر من الحضارة والمدن والبهجة والعمران والاستبحار في العلوم

والصنائع والتجارة والفلاحة وكثرة الادباء والشعراء والاطباء والمهندسين فما بالك بغيرهم من الفقهاء والمحدثين من علماء الدين ثم كانت على القيروان الطامة الكبرى التي صيرتها خراباً بهؤلاء الاعراب وانحدرت في تيار الانحطاط السريع وانتقل كرسى ملكها البديع الى المهديّة وتقلص ظل الدولة الصنهاجية المؤذن بالفناء والملك لله الواحد القهار الذي لا يزول ملكه ولا يفنى وصارت مسرح الفتن ومسرح الاحن خالية عن السكان فضلا على العلماء وآخر علمائها على هذا العهد السيوري والتونسي. ولهاته الاسباب خرج غالب من في البلد ومنهم المعز ونجا بنفسه للمهديّة بعد مشاق وعاملها يومئذ ابنه عمه فتلقاه بالبرّة والتكريم وبقي بها الى أن توفي سنة ٤٥٤ ودفن برباط المنستير وفي معالم الايمان لم يبق بالقيروان بعد المائة الخامسة من له اعتناء بالتاريخ وغيره لتخريبها على يد المفسدين الاعراب وبقيت على ذلك الى ظهور دولة الموحدين انتهى. قلت ورغما عما حل بها من النوائب فلم يزل بها من المشاهد والمعالم الاسلامية الخالدة الى هذا العهد مما لا يوجد بغيرها من بقية مدن أفريقية كجامع سيدنا عقبة العتيق ومنبره البديع الشكل والصنع الوثيق وهذه المعاهد اكبست شهرة مطبقة بالعالم الارو باوى وبعد الصيت وجميل الذكّر في العالم الاسلامي ولم تجد شيئاً يبقى خالداً الا الذكّر حسناً كان أو قبيحاً

فلا شيء يدوم فكن حديثاً جميل الذكّر فالدنيا حديث

في روح المعاني عند قوله جل ذكره « وانه لذكركم ولقومك وسوف تسألون » : الآية تدل على أن الانسان يرغب في الثناء الحسن والذكّر الجميل إذ لو لم يكن مرغوباً فيه ما امتن الله به على رسوله ﷺ والذكّر قام مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفقي عمره الثاني قال ابن دريد: وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً وعي

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه من الملك فقالوا له أنت الذي دوخت البلاد وملكت الارض وأطاعتك الملوك وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال الملك هو الذي له أزيد من ستمائة سنة قدم مات وهو يذكّر على المآذن في كل يوم وليلة خمس مرات يريد محمداً ﷺ

تنبية

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء البرادعي وابن الضابط والبيدي وأبو عمران الفاسي وأبو بكر بن عبد الرحمن والتونسي وابن يونس وابن العطار

الطبقة العاشرة

لما توفي المعز بويح لابنه ابي بجي تميم واشتغل بما بقي من المملكة وضبطه أحسن ضبط وكان شاعراً وشعره رائق مدون وأبو علي بن رشيق كان من ندمائه وله فيه قصائد طنانة وكان أعلم بني مناد وأعفاهم عن الأمور العظام وكان حسن السيرة محمود الآثار محباً للعلماء معظماً لآرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السيوري ونظرائه يجيز الجوائز ويعطى العطاء الوافر فضائله كثيرة وله أخبار ووقائع عجيبة مع النائرین وفي أيامه توالى على سوسة أمراء من العرب وملوكها حين استولوا على البلاد وانتزعوها من يد صنهاجة واستقرت أخيراً تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العيس البعيد الصيت المشتهر بالجود ومن يده أخذها النصارى حين أخذوا المهديّة من يد الحسن الآتي ذكره واستولوا على بلاد الساحل ولما وصل عبد المؤمن استنقذها من يد النصارى وسنّأى على شرح ذلك قريباً وللشعراء في مدح جبارة قصائد طنانة منها قصيدة التراب السوسى في رحلة التيجانى قد أوع أعراب زماننا بانشادها وكثرة تردادها ولاجل ذلك ذكرناها بكاملها وان كان فيها بعض طول لان الحسن غير مملول وهي نحو المائة والعشرين بيتاً، أولها :

سلم على ذى سلم مضى الهوى المستغنى
وقف بها مسائل عن ساكن والخيم
واستطر العين بها صوب دموع ودم

وفي أيام تميم هذا استولى العدو على صقلية سنة ٤٨٤ ثم استولى على المهديّة ثم خرج منها بعد عقد صلح وبقى على ذلك الحال وأموره معتلة الى أن توفي سنة ٥٠١ بالمهديّة ونقل لرباط المستير (واعلم) انه قد علم مما تقدم في مواضع على وجه الاستطراد فتح صقلية وذكر بعض المآثر الحسنة التي خلدها الاسلام بها وزيادة على ما تقدم ذكره نذكر لك هنا بعض أخبارها على نسق باختصار كثير مما هو مبسوط في التواريخ فنقول ان أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ولم تزل تغزى الى أيام زيادة الله ابراهيم بن الاغلب وفيها حصل الاستيلاء على جانب عظيم منها وصارت مملكة تابعة لملوك افريقية وتتابع الغزوا اليها والى غيرها بعد ذلك حتى اتسع نطاق المملكة وأمرؤها عمال لملوك افريقية يتولون الامارة بعهد منهم واستمرت على ذلك المنوال أميراً بعد أمير ولا حاجة لذكر أمماتهم لانه يؤدي الى التطويل وفي سنة ٣٣٦ صار الوالى عليها الحسن بن علي بن أبي الحسين ثم صارت ميراثاً في عقبه الى أن تفرقت صقلية الى ممالك وصارت كل مملكة بيد ملك متغلب عاينها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة حتى كان استخلاص العدو لها تماماً سنة ٤٨٤ بعد أن بقيت

بيد المسلمين مائتين ونيفا وسبعين سنة والذي تغلب عليه الملك رجار وكان عديم النظير في أبناء جنسه صاحب حزم ودهاء وسياسة ولما تم تملك صقلية تتابعت غارتهم على افرريقية فلكوا الجزائر ومالطة وجربه وطرابلس وقابس وسوسة وصفاقس والمهدية وكانت هاته الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة ٥٤٣ كما ستعلم مما يأتي ذكره. وصقلية في أيام الاسلام رحل اليها الكثير من وجوه الناس قضاة وفقهاء ومحدثين وغيرهم من الخاصة فضلا عن العامة لرخاء أسعارها وأمن سبلها وعدل سلطانها وظهر منها الكثير من فحول العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء ترجمنا لبعضهم في المقصد والحاصل انها في مدتهم بلغت غاية في الحضارة وعلو الشأن وتبحر العمران وبها كثير من المساجد وقد وصف ابن جبير في رحلته بعض مدنها وما شاهده من حالها وحال المسلمين بها بعد احتلال العدو لها حالة تبكي العيون دماً وتذيب القلوب ألماً (قلت) وفي هذا العهد لم يبق بها أثر الاسلام وعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقيس

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء السيوري وعبد الحق الصقلي والشقراطسي
واللخمي وعبد الحميد الصائغ

الطبقة الحادية عشر

لما توفي تميم بن المعز بويح لابنه يحيى وكان ذا رياسة وسياسة قمع الثوار ومهد النواحي وغزا باسطوله الروم حتى وقع صلح على شروطه وكان رحباً بالضعفاء مطالعاً لكتب السير وأخبار الزمان عارفاً بالنجوم والطب وبنظم الشعر الجيد ويجيز عليه ومن شعرائه وجلسائه العلامة الأديب المؤرخ الاريب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الآتي ذكره في الخاتمة وكان له شعر رائع ونثر فائق ويأتي خبره وخبر بعض ملوك صنهاجة في الخاتمة. وفي أيام هذا الامير دخل محمد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية المهدية وأظهر تغيير المنكر ودرس علم التوحيد وكان أوحد عصره فيه ثم رحل للمنستير ثم بجاية ومذهبه تغيير المنكر. قال ابن خلكان وقيل كان دخوله المهدية في أيام تميم وفي المؤنس كان دخوله المهدية في أيام أبي الحسن علي وتقدم بعض خبره بما يفيد انه دخل المهدية مرتين حين ذهب للمشرق وحين رجع منه انظر ترجمة أبي بكر بن العربي في الطبقة الحادية عشر من المقصد وتوفي الامير يحيى في ذي الحجة سنة ٥٠٩ وخلف من البنين ثلاثين ومن البنات عشرين ودفن بقصره على ماجرت به العادة ثم نقل للمنستير

ولاية ابنه أبي الحسن علي بن يحيى * تم له الامر بعد أبيه باتفاق من جنده واستقام أمره وكان جواداً مفضلاً لا يميل للراحة وكان من الاذكياء محباً للعلم والعلماء. وللقاضي أبي بكر اليابري

مصنفان في الاصول والفقہ على مذهب مالك رد فيها على ابن حزم أحدهما المدخل والآخري سيف الاسلام في مذهب مالك الامام ألفه باسم الامير أبي الحسن المذكور في المهديّة سنة ٥١٣ ورحل لمكة وبها توفي . رحل اليه الزمخشري من خوارزم للأخذ عنه وقدم لمكة وأخذ عنه وترجمه هذا العالم تقدمت في الطبقة الحادية عشر من المقصد . ولابي الصلت المذكور منزلة جليلة عند هذا الامير وتوالت بين هذا الامير والاعراب قتل وحاله معهم مثل حال أبيه وجده وكبرت بينه وبين صاحب صقلية الوحشة وتوفي سنة ٥١٥ بالمهديّة ونقل للمستشير

ولاية ابنه الحسن تم له الامر يوم وفاة والده وعمره اثنا عشر عاماً وهو آخر ملوك هاته الدولة ، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة واحسان ومعروف . وكان فصيحاً عاقلاً حازماً لا يترشح لعظام الامور ولا يتضعع لنوائب الدهور شجاع القلب كريم النفس ينظم الشعر وفي سنة ٥١٧ قصد صاحب صقلية المهديّة في أسطول عظيم وجنود جرارة ولما وصل المهديّة هاج البحر على هذا الاسطول فرمى أكثره والحق الضرر بالباقي فقتل المسلمون الكثير من رجاله وغنموا غنائم كثيرة وانعقد عقب ذلك صلح واستولى الطاغية على جربة وصفاقس وقرقنه وطرابلس . وفي سنة ٥٤٣ خرج بأسطول عظيم ودم به المهديّة على حين غفلة من أهلها فخرج الحسن منها بما خف وفجأ الناس من بلاء هذا الطاغية ما لم يكن له حساب ، ولما دخل المهديّة وجدها خالية فاستولى عليها من غير تعب وقتال واستولى على ذخائر الحسن ، وأمن الناس وعمرها أحسن عمران ثم استولى على سوسة وصفاقس ودانت له البلاد ، وأما الحسن فانه بعد خبر طويل وصل للخليفة عبد المؤمن بن علي مستجيراً به فأكرمه وأحسن منزله ، وأجاب مطالبه واستعد لذلك ثلاث سنين وتوجه لها بنفسه في صفر سنة ٥٥٤ ، وبين يديه الحسن المذكور بعسكره الجرار وجيشه العرمرم يقال انه لما وصل باجة عرض العساكر فكانت الفرسان أزيد من مائة الف والرجال لا تحصى وهي تمر بالطريق الضيقة في المزارع فلا يضرها شيء وهذه الحلة تمتد أميالاً وكلهم يصلون الصلوات الخمس بامام واحد وتكبيرة واحدة ولا يتخلف أحد منهم عن الصلاة لانه كان يقتل من يتأخر منهم وكانت مقدمة هذا الجيش اثنا عشر الف مقاتل قد كانوا بحفر الآبار واستخراج المياه وتهدم الطريق وتهيئة ذلك للجيش ولولا هذا التدبير لم يقدر على هاته الاسفار البعيدة بهاته الجيوش العظيمة فنازل تونس وأخذها صلحاً وكانت بيد أحمد بن خرسان واستخلف على تونس أبو محمد عبد السلام الكوفي ورتب معه أشياخاً من الموحدين ثم رحل للمهديّة والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها منتصف رجب وكان بالمهديّة ملوك الفرنج وأبطال الفرسان فحاصروها بما انضاف اليه من أهل البلاد بما يخرج عن الاحصاء وفي مدة الحصار فتح طرابلس ونفوسة وفاس وثغور افريقية وما والاها وأقام في حصارها ستة أشهر الى أن فتحها بكرّة عاشوراء سنة ٥٥٥ ولذا يقال لها سنة الاخماس

ودانت له البلاد بالطاعة واستخلف عليها أبا عبد الله محمد الكوفي وجعل معه الحسن وأمره أن يقتدى برأيه وأقطع الحسن جانباً منها وارثه ولبثت إفريقية في أمن ودعة واطمئنان بقية أيامه وصدراً من أيام بنيه ومدحه الشعراء على هذا الفتح منهم أبو محمد عبد الله بن أبي العباس التيفاشي بقصيدة أولها :

ما هز عطفه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

ولما أنشدها بين يديه أشار إليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمره بألف دينار وقيل لم لم تسمع تمام القصيدة ؟ فقال وما عساه أن يقول بعد هذا البيت أي لا يأتي بامدح منها وأخذ يجيزه كل يوم ألف دينار على قراءة هذا البيت إلى أن بلغت أربعين ألفاً وكان عبد المؤمن هذا عاقلاً حازماً شديد الرأي حسن السياسة كثير البذل للاموال إلا أنه كان سفاكاً للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في كل بلاده بالصلاة وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين وكانت له معرفة بالشعر والأدب يحكى عنه أنه مر ببعض طرق مراکش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شبك جارية بارعة الجمال

فقال عبد المؤمن : قدت فؤادي من الشباك اذ نظرت
فقال ابن عطية : حوراء ترنو الى العشاق بالقل
فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها في قلب عاشقها
فقال ابن عطية : سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

وتوفي عبد المؤمن سنة ٨٥٨ وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وهو أول ملوك هاته الدولة ومدتها مع مهيدهم مائة واثنان وخمسون سنة وكانت من أعظم الدول الإسلامية وكانوا يدعون على المنابر إلى مهيدهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة ومن أصحاب ابن تومرت عمر بن يحيى الهنتاني صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين وسنقص عليك خبرهم وابن تومرت هذا مضى لنا ذكره في ترجمة أبي بكر بن العربي قال بعض العلماء أنه أراد بقيامه اظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم أنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد وأخباره طويلة الذيل مذكورة في التواريخ أما الأمير حسن الصنهاجي المذكور فإنه أقام بالمهدية إلى أن توفي عبد المؤمن وتولى بعده ابنه يوسف المتوفى سنة ٥٨٠ فاستقدم الحسن إلى المغرب ومات بالطريق وهو آخر ملوك صنهاجة وبه انقطعت كواكب سعودهم وأجلت عن منازلهم الشمس والاقمار والملك لله الواحد القهار وهذه الدنيا لا يدوم نعيمها ولا ييأس سقيمها وبهذا جرت عادة الله في خلقه إنما الدهر دول بعد دول لا يسأل عما يفعل وهم يسألون كما جرت عادته في بيوت

أهل الفضل والترف والملوك وغيرهم^(١) إذا تطاول عليها الزمان واعتمد الابناء على ما بقته الآباء

(١) قوله كما جرت عادة الله في بيوت أهل الفضل الخ في كتاب الفراسة للإمام نجر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ مانه: الباب الرابع في مقتضيات سائر الاحوال فنقول أما أرباب النسب الشريف فانهم راغبون جداً في الكرامة ويتشبهون بأوائلهم ومن القضايا الغالبة على الاوهام ان كل ما قدم فهو كمال وأتم فليندا السبب يكون التكبر والترفع والاستطالة والتمويه على الناس غالباً عليهم وحبهم لهذه الاحوال والتشبه بأسلافهم في مكارم الاخلاق قد يدعوهم للعدل الا ان هذه المعاني انما تبقى اذا كانت آثار أوائلهم باقية ثم انهم يتعطلون عن تلك الآثار الفاضلة في آخر الأمر وذلك لانهم بسبب ذلك التيه والترفع لا يتحملون متاعب التعليم وطلب الادب ولا يرغبون أيضاً في تعلم الحرف والصناعات النافعة في اصلاح مهات المميثة فليندا السبب يبقون في الآخرة معاتيه^(١) مخاذيل عاجزين محتاجين. أما أخلاق الاغنياء فأمور (الأول) ان من عاداتهم التسلط على الناس والاستخفاف بهم ويعتقدون في أنفسهم كونهم فائزين بكل الخيرات لانهم لما ملكوا المال الذي هو سبب القدرة على تحصيل المرادات فكأنهم ملكوا كل الاشياء ولما اعتقدوا في أنفسهم حصول هذا الكمال لاجرم انهم كانوا محبين للثناء الجميل راغبين فيه (الثاني) انهم يحكمون على كل من سواهم كونهم حاسدين لهم لانهم لما اعتقدوا في أنفسهم الكمال والكمال محسود لزم ان يعتقدوا في أنفسهم كونهم محسودين ولهذا جاء في أمثال العرب « كل ذي نعمة محسود ». (الثالث) ان الذين كانوا أغنياء في قديم الزمان هم أكثر نبالة وحنفاً وصمحة من الذين صاروا أغنياء ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: « عليكم ببطون شبعت ثم جاءت واياكم وبطوناً جاءت ثم شبعت فان آثار اللؤم باقية فيها » والسبب فيه ان بسبب الفقر المتقدم يشتد حرصهم على امساك المال والشح به عند وجدانه فتعظم آثار اللؤم (الرابع) ان الاغنياء يكونون في الاكثر مجاهرين بالظلم لاعتقادهم ان أموالهم تصونهم عن قدرة الغير على قهرهم ومنعهم (الخامس) ان المال سبب القوة فان كانت النفس خيرة في أصل الجوهر صارت كثرة المال سبباً لمزيد القوة في الخيرات وان كانت النفس شريرة في أصل الجوهر صار المال سبباً لمزيد القوة في الشرور. ولما كانت الشهوة والاخلاق الذميمة أغلب على الاناث منها على الذكور لاجرم جعل الله نصيبهن في الميراث أقل من نصيب الذكور قليلاً للمفسدة وأما أصحاب السیادات الاتفاقيه وهم المجدودون فمن أخلاقهم الاستمتاع بالذات وقلة المبالاة ويكونون محبين لله تعالى واثقين به معولين على التوكل لانهم اعتادوا الاتقاع بالجد دون الكد. اه

ولم يحصلوا على شرف من قبلهم فلا يلبث فيهم الاشتغال بالترف ونضارة العيش أن يهدم معالمهم التي بناها آباؤهم وغفلوا عن تجديدها والذود عنها (واعلم) ان صنهاجة قبيلة من قبائل البربر والمصامدة قبيلة من قبائل البربر أيضاً ومنها عبد المؤمن بن علي. واختلف النسابون والمؤرخون في نسب البربر اختلافاً كثيراً وتقدم الكلام على ذلك

تذنيه

قد علمت ان العلم انقطع من القيروان بانتطاع العلماء منها وانتقال كرسى المملكة منها الى المهديّة وظهر بها فحول من العلماء والادباء منهم ابن النحوي والامام المازري وأبو الصلت أمية ابن عبد العزيز وابن بشير وأبو محمد التيفاشي

الطبقة الثانية عشر

قد علمت ان افريقية آل أمرها الى الخليفة عبد المؤمن بن علي باني دولة الموحدين على يد المهدي محمد بن تومرت ومن القائمين بدعوة هذا المهدي أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني يرجع نسبه الى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله القدم الراسخة في دولة عبد المؤمن والمواقف الشهيرة والمقامات الحميدة وتوفي سنة ٥٧٥ د ولما آلت الخلافة الى يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٩٥ استوزر أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص المذكور وابنه الآخر أبو سعيد ولاء افريقية فدخلها واشتغل بتونس واستعمل أخاه أبا علي على المهديّة ولم يتم له أمر وفي خلال تلك المدة وصل أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن افريقية والياً عليها بدل أبي سعيد وخرجت في تلك المدة المهديّة وسائر الجهات القبلية عن أبي زيد المذكور واستولى عليها يحيى بن اسحاق الميورقي من بني غانية ثم استولى على تونس وقبض على أبي زيد المذكور في ربيع الاول من أول عام من المائة السابعة ولما آل أمر الخلافة للناصر بن المنصور المذكور بوفاة والده وبلغه ما حل بافريقية توجه لها في عسكره واستصحب وزيره أبا محمد المذكور ودخل تونس ووجه وزيره المذكور للمهديّة فافتكها وغيرها من ابن غانية سنة ٦٠٢ في أخبار طوال ودانت له البلاد ثم رجع الناصر لمحل خلافته واستخلف على افريقية وزيره المذكور وكانت وفاة الناصر سنة ٦١٠ وتولى بعده ابنه المنتصر يوسف المتوفى سنة ٦٢٠

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن الحداد وأبو الحسن السوسى وابن عوانة

الطبقة الثالثة عشر

تقدم ان الناصر استخلف على افريقية وزيره أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص
الهنثاني وهنتاته من قبائل المصامدة وهم القائمون بدعوة المهدي والسابقون لها وكان قبوله
الاستخلاف بعد تمنع وشروط شرطها عليه وفي له بها الناصر وذلك في شوال سنة ٦٠٣ وكان
علماً ذكياً شجاعاً عاقلاً ومما يدل على ذكائه هو انه دخل عليه يوماً أبو محمد عبد السلام البرجيني
وكان تحت جفوة منه فقال له كيف حالك يا فقيه فقال في عبادة فقال له الامير عبد الواحد
تعوضها ان شاء الله بالشكر وأراد البرجيني بقوله في عبادة قول رسول الله ﷺ «انتظار
الفرج بالصبر عبادة» وله حروب طالت لم تهزم فيها له راية ولم يزل على ولايته في جلالة الى أن
توفي في تونس فاتحة سنة ٦١٨ وتقدم للولاية ولده أبو زيد عبد الرحمن ثم قدم المنتصر عمه
ادريس والياً على افريقية ومعه ابنه أبو زيد عبد الرحمن وله مع ابن غانية حروب وتوفي سنة
٦٢٠ وقام مقامه أبو زيد المذكور ولم يحسن السيرة ولما تولى الخلافة عبد الله العادل ابن المنصور
عزله وولى أبا محمد عبد الله بن عبد الواحد الحفصي على افريقية فدخلها في شعبان من السنة
ومعه أخواه أبو زكرياء وأبو ابراهيم ولم يزل حميد الحال الى ان ثار عليه أخوه أبو زكرياء المذكور
ووقعت بينهما حروب آلت باستيلاء أبي زكرياء على افريقية واستقلاله بها وذلك سنة ٦٢٥
ومهد دولة نفيسة لآل أبي حفص ورفع رايتهم كما ستعلم واستقام له الامر بعد موت ابن غانية
واستولى على الجزائر وتلسان وغيرها وخلع دولة بني عبد المؤمن لاسباب ذكرها وواقع
نطاق سلطانه ووافته بيعة ملوك شرقي الاندلس وغيرها واطاعته سجالسة وسبته وطنجة ومكناسة
وخطب له بنو مرين وكان من العلماء العاملين والأمراء العادلين ختم على الشيخ الرعيني السوسي
المستصفي وغيره من الكتب العالية وناظر في النحو ابن عصفور وكان معدوداً من الادباء
الشعراء وله ما أثر جيدة وهو الذي بنى جامع القصبية والمدرسة الشماعية وجمع في خزائنه من الكتب
سته وثلاثين ألف مجلد وفي سنة ٦٤٧ تحرك للمغرب ومات في طريقه ودفن ببونته ثم نقل الى
قسنطينة وترك من الاولاد أربعة محمد المنتصر وأبا اسحاق وأبا بكر وأبا حفص وفي هاته السنة
توفي السلطان الشهير الذكر الجليل القدر صلاح الدين الايوبي (واعلم) انه لما تأسست الدولة
الحفصية انتقل سرير الملك لتونس بعد ان كان بالمهدية واستقام أمرها وشاع ذكرها وتراجع
العمران بافريقية وتتابع وبلغت أوج العلاء وبسطة الملك وصارت دار علم تلقاه فحول عن
فحول وصارت تونس منبت عز تشد اليها الرحال من سائر الاقطار والامصار والفضل في ذلك
لابي زكرياء المذكور نوه بذكره ولي الدين بن خلدون وغيره وقال سند تعليم العلم قد كاد
أن ينقطع من المغرب باخلال عمرانه وتناقص الدولة فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع

أو فقدانها وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس واستبحر عمرانها وكان فيهما من العلوم والصنائع أسواق نافعة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما فلما خربنا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا ثم تراجع . وفي كتاب اللقطة من شرح الابي علي صحيح مسلم : لم يزل الشيوخ يحكون عن كثرة ما كان بتونس من الخير
حكى أنه بقي دينار ملقى بطريق العطارين مدة لم يرفعه أحد ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس اليوم دخل لبلدنا غريب وحين كانت قاعدة الموحدين مرا كش وكانت القضاة يأتون لتونس منها فاتفق أن قدم اليها قاض من مرا كش فجلس للحكم فبقي أياما لا يأتيه أحد من الخصوم فظن أن الناس لم يرضوا به ثم قدم اليه يوم ما خصان من سوق الجبة فقال أحدها للآخر أصلحك الله ان هذا شريكى وقد باع جبة من العرب وأنا لا أستحل دراهم العرب فحينئذ علم القاضى أن عدم اتيان الخصوم اليه انما هو لتناصفهم واتباعهم الحق اه . وفي أيامه تقدم للقضاء أبو زيد عبد الرحمن بن نفيس ثم استعفى فتقدم عوضه أبو زيد عبد الرحمن التوزرى المعروف بابن الصايغ وفي أيامه سنة ٦٣٨ توفى الولي العالم أبو سعيد الباجي ابن خلف يدعى التميمي

فصل

قد علمت مما تقدم أن الدولة الاموية انقرضت سنة ٤٢٨ وتفرقت الاندلس الى ممالك ملوكها تعرف بملوك الطوائف وبذلك رجع أمر الاندلس للقهقرى ثم جدد الموحدون الرونق الذى كان لها زمن الاموية فقد جدد كل من عبد المؤمن ويوسف ويعقوب مجدها وحاموا عن العلوم والصنائع وعملوا بالشريعة الاسلامية وأسسوا مدارس عامة وأخرى للشبان وغرروا بعطاءهم علماء الاسلام واشتهر في زمنهم بالطب والفلسفة وقرض الشعر ابن رشد الحفيد وابن زهر وأنشأ الامير يوسف بأشبيلية عمارات فاخرة وأوصل لها مياه غزيرة وبني جامعا صرف عليه مصاريف طائلة وأنشأ في جميع جهات المملكة مستشفيات وتكايا وحفرا باراً بالصحارى وخانات في الطرق للمسافرين وزاد في مراتب القضاة والفقهاء للاستعانة وملوك الاندلس صارت عمالا له ثم لما حصل ضعف لهاته الدولة اغتم العدو الفرصة وصار يقطع كثيراً من المدائن والمعقل والحصون ويستولى عليها حيث لم يوجد بالاندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاؤه ثم في سنة ٦٢٦ استولى على كورة ماردة وفي سنة ٦٢٧ على ميورقة وفي سنة ٦٢٩ على جزيرة شقرة وفي سنة ٦٣٦ على قرطبة وعلى شرقى الاندلس شاطبة وغيرها سنة ٦٤٥ وفي السنة قبلها على طرطوشة وما يتبعها من القلاع والحصون وفي السنة بعدها على أشبيلية

و بيان الوقائع في أخذها يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتفرح له الا كباد
و تقسجم له العيون ولما أخذت هذه المدائن انحاز المسلمون الى قطعة من شرقي الاندلس وأول
من قام بالامر في هاته الجهة من بني الاحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر في دولة عبد المؤمن
من أمراء الاجناد و محمد بن نصر هذا يقال له محمد الشيخ و بويغ له سنة ٦٢٩ وخطب لابي
زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي صاحب تونس ودخل مع ابن الاحمر في تلك البيعة أهل
فيان و شريش و الطاغية في ذلك الوقت محاصر بلنسية وذلك سنة ٦٣٦ ثم أرسل ابن الاحمر
جماعة من أعيان أهل الاندلس منهم ابن عصفور و حبر قضاة ابن الابار مستصرخين به
يريدون منه النجدة في قتال العدو و عقد أبو زكرياء لتلك البيعة يوماً مشهوداً و أنشد حبر
قضاة المذكور القصيدة المشهورة التي أولها :

انجد بخيلك خيل الله أندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا
و هب لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل منك عز النصر ملتتمسا

وهي طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب فاجاب أبو زكرياء ببعثهم و لبي دعوتهم و جهز
لهم أساطيل فيها المال و الرجال فلما وصلوا الاندلس وجدوا العدو ملك بلنسية ثم مرسية وهاته
الطامة الكبرى و المصيبة العظمى على الاندلس كانت عقب واقعة العقاب الواقعة سنة ٦٠٩
ثم واقعة انجية التي استشهد فيها شيخ الجماعة و خاتمة المحدثين مؤلف السيرة أبو الربيع الكلاعي
و صارت بعد هذه الهزائم و التوائب الى الانقسام و التنافس مع كثرة الفتن و الاضطراب
و انحاز المسلمون لقرنطة و جنوب الجزيرة و هاجر الكثير من الفضلاء و العلماء الى فاس
و مراکش و تونس و تلمسان . في خلاصة تاريخ العرب ما ملخصه فاق مسلو الاندلس الفرنج
في العلوم و الصنائع و الاخلاق كبذل النفيس و الكرم مع ما امتازوا به من معرفة قدرها و عزتها
حتى ذهب الكثير منهم الى قرطبة يستشيرون حكامها المشتهرين بالطب و كان المسلمون في
سائر الجهات منقادين لابي العائلة مجلين للشيخ ذوى غيرة شديدة على مراعاة العدل أصغرهم
كأ كبيرهم بالاعتناء بحفظ العائلة من العار لا يمنع خمول أصل أحدهم من الوصول الى أرقى
المناصب غير معولين في اعتبار الشخص على شرف حسبه و نسبه فقط بل على اعتبار فضائله
و أخلاقه و كانوا متفنين في الفهم و العمل بالقرآن الدال على أهمية اكتساب الفضائل و الاعمال
الصالحة ولذا كان الخلفاء يشوقون الناس الى الشغل و وقاية الاملاك من العدوان و الذى
ساعدهم على بلوغ شأه العظيمة اتساع العلوم و الفنون و الفلاحة و الصنائع . ذاق جميعهم لذة
المعارف و تنافسوا في ابتكار ما يمتازون به و كان اقتراحهم للشعر يرفع قدر نفوسهم و لا بد
لقضاتهم من حوز معلومات عويصة حتى يعتبرهم الناس زمن قيامهم بوظائفهم و كانوا يكتبون
على جميع المباني الجميلة اسم المهندس و الأمر بالتشييد و يجزلون الثناء على كل ماهر في فن

وقد بلغوا الدرجة العليا في فنون العمارة والموسيقى والقريض ولذا اقتنى الافرنج أثرهم في أساليب أبنيتهم وزخارفها وأتقنوا أجناس الاصوات وما في الصوت البشري من الدلائل والطرق النغمية ومارسوا ضرب الشعر خصوصاً نظم الحكايات المشتملة على نكت مشوقة فبرع فيها الكثير وتعلموا في المدارس علم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر ومبادئ علم الطبيعة والكيمياء الطبيعية والتاريخ الطبيعي وهو علم الموالييد الارضية الثلاث ملئت كتبخاناتهم نسخاً منقولة عن كتب علماء اليونانيين من كتب فلاسفة الاسكندرية واستخرجوا المعادن من الأرض واللؤلؤ والمرجان من البحر وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والاقمشة الحريرية والصوفية ونصال السلاح والسروج والجلود وغير ذلك رغب جميع أهل أوروبا كل الرغبة في ذلك وأنجروا في الزيت والعنبر الخام وبلور الصخور والكبريت وغير ذلك واستعملوا طريقة تماثل أوراق الحوالة وكانوا يرسلون البضائع الى الممالك الشرقية فيرسلون اليها بدلها مما هو موقوف عندهم وبدلوا غاية عنايتهم بالفلاحة وكان عدائن اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية وطليطلة وغيرها كتبخانات ومدارس جليلة تدرس فيها العلوم الرياضية وبالجملة فان المسلمين بذلوا صادق الهمة والعزيمة في تعلم وتعليم العلوم على اختلاف أنواعها رغماً عما طرأ من الحوادث والتقلبات وحوادث الحروب الصليبية وتقدموا تقدماً محسوساً باعثناء العلماء وبعض الملوك والعلوم المشارها رياضية وهندسية وهى الفلك والارصاد والهيئة والاسطرلاب والزيج والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيك والجغرافية رياضية وتخطيطية وتعرف بعلم تقويم البلدان وتحديد المسافات والخرائط على مقتضى الاطوال والعروض والعلوم الرياضية هى المتعلقة فى الغالب بالاجسام العضوية وهى الحيوان والنبات وارتفعت فى زمنهم الى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الاولية التى تحلل لادخالها فى مركبات أخرى ويعرف بعلم قواعد تحضير الادوية وحصلت لهم براعة فى ذلك، وأنشأوا الاجرذخانات الكيماوية وأدى انشاؤها والمادة الطبيعية انلمان هما أول ما يلزم لفن الطب الاشتغال بعلم الكيمياء وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب وبما حصل لهم من المعارف فى ذلك أدخلوا فى الادوية نباتات كثيرة ومادات ترابية واعتنوا بغرس كثير من النباتات وتركيب طبقات الأرض وبعبارة أخرى انها بلغت معارفهم فى الزراعة والاقتصاد الزراعى وقواعد الطب وعملياته والتشريح والادوية المفردة والنباتات والاحجار والمعادن والحيوانات ذوات الخواص الطبيعية أقصى درجات الكمال ونبغ فى ذلك كثير من العلماء الجهابذة وألفوا التأليف البارعة حفظ التاريخ أسماء كثير منهم كما حفظ أسماء كثير من الملوك الذين يدعون العلماء والحكام الى دواوينهم ويمدونهم بالاموال الجزيلة للغرض المذكور وشوهدت مؤلفات كثيرة من تلك الفنون فشت بها اللغة العربية لدى الممالك الاسلامية والاروبوية وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية واتخذت أصلاً

من أصول التعليم في المدارس وتكون من معظم تلك الناليف الوجودية الآن علم أدبي من أوسع العلوم الادبية المعروفة في الدنيا ولهم اختراعات واكتشافات من ذلك بيت الابرّة وصناعة الورق وبارود المدافع والاسلحة النارية وانتشارها في الدنيا. ثم قال بعد شرح ما ذكر وبما أسلفناه يظهر لك كيفية تحمك الاسلام على جميع فروع مدن اوربالحديث وكان عندهم أوسع ما سمح به الدهر من الادبيات وتنتج أفكارهم الغزيرة واخترعاتهم النفيسة وانهم أساتذة في جميع الاشياء كال مواد المختصة بتاريخ القرون المتوسطة وأخبار السياحات والاسفار وقواميس سيرة الرجال المشهورين والصنائع العديدة المثال والابنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة ولذا كله وجب الاعتراف برفعة شأن هذه الامة المحمدية التي تحمقها الفرنج منذ أزمان مديدة وظهر بذلك تحمك التمدن العربي المتسع ونشأ عن ذلك العمران الزاهر فكان بالاندلس ست نخوت وثمانون مدينة كبيرة وثلاثمائة مدينة أقل منها ومالا يحصى من الضياع والقرى وفي قرطبة وحدها مائتا ألف بيت وستائة مسجد وخمسون مستشفى للرضى وثمانون مدرسة كبرى عامة وتسعمائة حمام وعدد ساكنيها مليون وليقس مالم يقل وجامعها المشهور زخرقة وضخامة الباقي الى الآن يضاهي في الفخامة الجامع الاموي بدمشق انتهى باختصار كثير مع تقديم وتأخير من خلاصة تاريخ العرب ، وقد أتى على أخبار الاندلس الشهاب المقرئ في نفع الطيب وأزهار الرياض وأشبع الكلام عليها بما فيه تذكرة وعبرة لذوى الالباب

واعلم أن الاندلس اشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ترجمنا الكثير منهم في المقصد واشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك . في نفع الطيب : خص الله بلاد الاندلس من الربيع وغدق السقيا ولذا ذاة الاقوات و فراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبهر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وايضا أوان الاسنان ونبل الافهام وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها . وقال أيضاً : ان الاندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الاتهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال . متوسط الحال تتصل فواكه أكثر الازمنة وتدوم ملاحقة غير مقودة . وقال أيضاً : في الاندلس من أنواع المعادن مالا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعقل المنيع والقلاع الخريزة والمصانع الجليلة وطول الاندلس ثلاثون يوماً وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من الحصون والقرى مالا يحصى ، قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألفاً وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلاً وعرضها ميلان وكانت قرطبة قبة الاسلام وبها استقر سرير الخلافة الاموية وهي

معدن العلماء وهي من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير في الدنيا طوله ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه مائتان وخمسون ذراعاً وسواريه ألف وأربعمائة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازوردى وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وبقية مقلص تكون الفتيا في الأحكام اليه ، وكانوا لا يكون فيهم مقلص إلا من حفظ الموطأ وقيل إلا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة ، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلادهم ويجعلون في مساجدهم نواباً يصلون بالناس الجمعة . وقال : الاندلس ينقسم الى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الاقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون في غاية التنعم والرفاهية . فن المتوسطة قرطبة وطليلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن شرق الاندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الاعلى وسرقسطة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن غرب الاندلس اشبيلية وماردة واشبونة وشلب وشريش ولبلة والخضراء وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره . ولما ضعف أمر الخلافة وافترق أمر الاندلس وكثر الخلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة - يسمون ملوك الطوائف - لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده وهم مختلفون في اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك من سنة ٤٠٧ وصار يقاتل بعضهم بعضاً فيتغلب بعضهم على بعض وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لاجابة لذكر أسمائهم وأعظم تلك الممالك قرطبة بيد المعتضد بن عباد المتوفى سنة ٤٦١ وصارت وراثته في بنيه . انتهى محل الحاجة باختصار . وغرناطة التي أنحاز المسلمون لها بعد تغلب العدو على غالب الاندلس صارت كرسى المملكة مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة وكثرة المهاجرين لها حين أخذ الملك جاك يطرد المسلمين مما استولى عليه ، وقد أحسن ملوك غرناطة الترتيب السياسي فرتبوا في كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحاً يستعملونه حالة هجوم العدو عليهم فرفعوه مرات على ملوكهم المتنعين من أداء واجباتهم المنوكية أو الذين لا يعاؤون بمشاوراة الامة وجعلوا للعساكر المحافظين بالنغور اقطاعات من الارض تكفيهم وعائلتهم لتبعثهم على الوقاية من الاعداء ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية في كل ثمن منها ضابطاً ورتبوا عساكر تدور ليلاً وعملاً قوانين لزم اغلاق المحال العامة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ومنعوا شرب الخمر والربا وابتسكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العملية واتقاد الائمة والفقهاء لتواينهم النظامية وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنهى عن كمال ايمانهم وعلو أفكارهم وشرف التأديب والتهذيب

الديني ، منها انزال النساء عن الرجال في المساجد واكثر الطاعة في رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء أو ابقاؤها لتنفق في عمارات عامة وغير ذلك وبما سلف يعلم أن ملكة غرناطة نظراً لما كانت عليه من الاور الجليلة تستحق أن تعتبر في التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقررأ على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديريين الذين يتعجب الاجيال المتغلبة من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التي عجلوا زوالها من الاندلس ولا حاجة لذكر سلسلة هؤلاء الملوك وسيأتي ذكر هذا الزوال والملك لله ذي العزة والجلال

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصرين هؤلاء الأمراء ابن التين والبرجيني وابن شقر والبرقي والمسراي والرعيبي السومسي

الطبقة الرابعة عشر

لما هلك أبو زكرياء بايع الملاء ابنه محمداً ولقبوه بالمستنصر ودعوه بالأمير واشتهر بالفضل والاعتدال وحسن السيرة والعلم وحيد الخصال وطار صينه في الآفاق وكان العلم في أيامه بجرأ زاخراً وقرأ باهراً وعلت دولته ومدت اليه ثغور القاصية يد الاعتصام واجتمع بحضرته من أفاضل أعلام العلماء الوافدين عليه وعلى أبيه وخصوصاً الاندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم تحرير وملك أورع متفيئين ظل مملكته لائدين به منهم حازم ومدحه بمقصورته المشهورة وأبو الحسن بن سعيد وابن الأبار وأضرابهم وأبو محمد عبد الحق بن برطلة وقد عليه بيعة أهل مكة شرفها الله وتلا قصيدة من انشاء أبي محمد عبد الحق بن سبعين الصوفي المشهور ووقف القاضي أبو القاسم ابن البراء المذكور على منبر جامع الزيتونة يوم قراءتها موقفاً مشهوراً وذلك سنة ٦٥٩ واتسع ملكه وقوى سلطانه وأباد مخالفيه وقيل في هاته البيعة

اهناً أمير المؤمنين بيعة وافتك بالاقبال والاسعاد
فلقد حباك بملكه رب الوري قاني يبشر فافتتاح بلاد
واذا أتت أم القرى منقادة فمن المبرة طاعة الاولاد

وفي السنة قبلها قبض على ابن الأبار المذكور وكان كاتباً له ولأبيه من قبله وأمر بقتله وحرق جثته وتآليفه وكتبه وفي سنة ٦٥٩ قبض أيضاً على وزيره الفقيه العالم أحمد ابن الليثاني شارح المدونة ومات تحت العذاب وأحرق جثته والكجال متعذر الا فيمن عصمه الله وغزاه صاحب فرانس سان لويز الغزوة الشهيرة آخر سنة ٦٦٨ ونزل قرطاجنة واستوسع فيها بجنوده

وفخائره وعظم الخطب على أهل تونس واتصل القتال نحو الاربعة أشهر وضاق الخناق ثم تدارك الله سبحانه وتعالى أهالي المملكة بهلاك هذا الملك بالطاعون وعرضوا على أبي عبد الله المنتصر الصلح فصالحهم بما غرموه في حركتهم وكان مبلغاً جسيماً على يد القاضي ابن زيتون المذكور وانقذ بإنشائه وخرج الفرنسيين من قرطاجنة لبلاده وهنى هذا الأمير بهذا النصر الذي لم يكن في الحساب (قلت) وفي هذا العهد بقرطاجنة كنيسة ضخمة تعرف بسان لويس بها جماعة من الرهبان وبها دير مملوء بالآثار العتيقة العجيبة والتحف المستظرفة الغريبة التي هي في الحقيقة كثر من الكنوز المدخرة، ولم يزل هذا الأمير على حاله من علو الكعب وبعد الصيت واتساع السلطان واتخاذ المصانع الباقية آثارها إلى هذا العهد وتوفي على الكعب آمن السرب سنة ٦٧٥ كان يقول مايسألني الله عن أمور الامة بعد أن قدمت عليهم للقضاء أبا عبد الله محمد الخباز. وقد أفرد ولي الدين بن خلدون فصلاً في أخباره يكتب بماء العيون ولا يتعلق بأذياله الطامعون وبويع لابنه يحيى ولقب بالواثق، فرغ المظالم وأفاض العطايا ثم فسدت بطاقته من استبداد وزيره ابن الغافقي وسوء سيرته وبلغ ذلك عمه أبا اسحاق فسار من الاندلس وأخذ بجاية وبايعه الموحدون ووقع خلع الواثق ثم قتل سنة ٦٧٩ وكان دخول أبي اسحاق لتونس في ربيع الثاني سنة ٦٧٨ وتمت له البيعة ثم قام عليه احمد ابن مرزوق المسيلي البجائي وزعم أنه المهدي واستولى على طرابلس وغالب بلاد افريقية وأخيراً استولى على تونس ثم قصد بجاية وغيرها وظفر في وجهته هاته بأبي اسحاق، وقتله في أخبار طوال وذلك سنة ٦٨٢ ولما ساءت سيرة هذا الدعي بايع العرب أخاه أبا حفص عمر وهو إذ ذاك بقلعة سنان ولما بلغ ذلك الدعي خرج لقتاله واتصلت بينها الحرب ثم لما انحلت عصبية اختفى وكان كذاباً سفاكاً للدماء ظلوماً لم يأت بحسنه الا احداث جامع الخطبة خارج باب بجر من تونس . ولما اختفى دخل أبو حفص تونس وطهر سيرير ملكه من هذا الدعي الخبيث ثم وقع الثور عليه ومثل به وطيف بشاوه سنة ٦٨٣ وحصل الاطمئنان واستقام أمر السلطان وبادر الناس بطاعته من طرابلس إلى تلمسان ولقب بالمنتصر بالله ثم خرج عليه أبوزكرياء بن أبي اسحاق المذكور وانضمت إليه الاعراب وأطاعته بجاية والجزائر وبسكرة والثغور الغربية وانقسمت الدولة لدولتين وفي أيامه استولى صاحب صقلية على جربة وعهد بالولاية لأبي عصيدة محمد بن الواثق بإشارة من معتقده الولي الصالح أبي محمد المرجاني وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٩٤ وكان ملكاً عاقلاً كريماً فاضلاً لم يحدث منه عقوبة لاحد يعظم العلماء والصلحاء ويبرهم وكانت أيامه أيام عدل وهناء وأمن وسرور

تذنية

قال ولي الدين بن خلدون لاوثوق في الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة

والعديد وإنما الظفر فيها من قبيل البخت والاتفاق انتهى . قلت يؤيده حرب ابن مرزوق المذكور وأشباهاها والله يؤيد بنصره من يشاء

تذييله

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن عريبة وابن بزينة وابن البراء وابن الخباز وابن زيتون وابن الابار وابن سعيد وابن الغزاز

الطبقة الخامسة عشر

تقدم أن أبا حفص عهد بافريقية لابي عصيدة المستنصر محمد بن الواثق وتمت له البيعة لما توفي أبو حفص وانشرح الناس لها وكانت أيامه مواسم وتوفي سنة ٧٠٩ وبويع لابي بكر الشهيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن يحيى بن المنتصر بالله بن أبي زكرياء ولما بلغت هاته البيعة خالد ابن أبي زكرياء بن أبي اسحاق ابراهيم وهو اذذاك أمير قسنطينة وغيرها خرج لتونس وخرج له أبو بكر في جنده غير ان غالب الجند مال لخالد فانهم ثم وقع القبض عليه وقتل ولذا سمى الشهيد وكانت ولايته سبعة عشر يوماً ودخل خالد الحاضرة وتمت له البيعة ولما استوثق أمر خالد لقب الناصر لدين الله وأفتك برجال الدولة وثار عليه أخوه أبو بكر وكان خلفه واليا بقسنطينة واضطرب الحال بافريقية ولما بلغ هذا الاضطراب لابي يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللحياني وهو بطرابلس عزم على تملكها وبايعه أهل طرابلس وراسله الثائر أبو بكر المذكور مظهراً له على أمره فاشتد به عضده وقصد الحاضرة فصباحها وانحلت عرى خالد وأشهد على نفسه بالخلع وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبويع لأبي يحيى المذكور في رجب سنة ٧١١ وهادن الامير أبا بكر ثم استعجل أمر أبي بكر وانضمت في طاعته زناته وقصد افريقية سنة ٧١٦ فهاه أبو يحيى وكان قد أسن فأشرك رؤساء الاعراب في سلطانه ولما لم يتم له معهم أمر قبض يده على الخلافة وشرع في بيع ذخائره وجمع القناطير من الذهب والكثير من نفائس الدر والياقوت وخرج لقايس مواريا بتفقد جهاتها سنة ٧١٧ ثم ارتحل لطرابلس وأخرج رجال دولته ابنه المعتقل من السجن أبا ضربة محمداً وبايعوه والاعراب في اضطراب وقصده الامير أبو بكر المذكور سنة ٧١٨ فالتفت القيروان على أبي بكر وخلصوا أبا ضربة ودخلوا تونس فملكوها وكانت ولايته تسعة أشهر وتم الأمر لابي بكر وهو أبو بكر ابن الامير أبي زكرياء ابن الامير أبي اسحاق وله مع أبي ضربة وغيره حروب يطول جلبها وكان الظفر له فيها وعز سلطانه وعلا كعبه ورسخت قدمه وطالت مدته وابتهجت به حضرته وعهد بالولاية لابنه أبي العباس وطجأه المحتوم في رجب سنة ٧٤٧ ولما توفي تمت البيعة لابنه أبي حفص وعُدل عن ولاية ابنه أبي العباس ثم ثار أبو العباس

هذا عليه وقدم الحاضرة فلما سنة ٧٤٧ ثم ظفر به أخوه أبو حفص وقتله وأبو حفص قتله
السلطان المريني الآتي ذكره سنة ٧٤٨ وكان قتله بقابس وولايته عشرة أشهر وكان يقوم
السلطان أبي الحسن المريني من المغرب الى الحاضرة في السنة في جند عظيم وصحبته الكثير
من علماء المغرب وأدبائه منهم السطى والابلى وابن الامام وابن عبد المهيمن وابن الصباغ ودخل
تونس في أعظم أهبة وأحسن احتفال وله في اقامته بافريقية أخبار طوال وأصلح الفساد ومحا دولة
بني أبي حفص واستقام له الحال ثم دارت عليه الدوائر من الاعراب وحلت به نوائب وأهوال
وآل أمره للرجوع للمغرب في أساطيله سنة ٧٥٠ وقامى في طريقه الشدائد والمصائب وأحاطت
به النوائب وغرق أسطوله وبه الكثير من أفضل العلماء منهم السطى . وفي مدة اقامته بافريقية
كان الوباء الجارف ضاربا خيامه بها وبأثر خروج هذا السلطان من الحاضرة دخلها والى بونة
أبو العباس الفضل بن أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واستقل بالأمر وجدد الرسوم الخنصية ثم
قتل في جمادى الاولى سنة ٧٥١

تذنيه

من مآثر أبي زكرياء اللحياني المذكور تجديد أبواب جامع الزيتونة الجوفية من عود الساج
سنة ٧١٧ ولا زالت على حالها الى هذا العهد ورحلة التجاني المشهورة كانت صحبته . وكان عالما
معظما للشريعة فاضلا أميرا عادلا ومن عدله انه مكن القاضي ابن عبد الرقيق من ابنه أبي ضربة
للقصاص في نفس قتلها وأقر بالقتل وحكم القاضي بالقصاص ولما عفا الاولياء بقي في حبس القاضي
على مقتضى المذهب المالكي من سجن القائل عاما ثم ضربه مائة ان لم يقع القصاص كفارة
للقتل اذا كان القتل باقراره ولبث في السجن حتى أخرجه أهل الحل والعقد منه وبايعوه لما
نفض أبوه يده من السلطنة وهو من الذين خرجوا على القانون الشرعي فانه لما أخذ البيعة وثب
على القاضي الذي سجنه ونفاه للمهدية واعتقله بها في ماجل بقي فيه ما ينيف عن العامين فانظر
الى الأب كيف سلم ولده للاحكام الشرعية وآدابها والى الابن لما قدر كيف عاقب القاضي على
فعل يجب عليه فعله وكان قاضيا الى أربعة من أسلافه وأسلافه لهم أخبار دالة على توطين نفوسهم
على الاحكام الشرعية وآدابها مع ملازمة الجماعة في الصلوات في المساجد وفي قصورهم وبساتينهم
وقراءة الحديث والميل الى مسمع المواعظ والعمل بها والاخبار الدالة على أن بعضهم ومنهم أبو
ضربة المذكور وآخر ملوك دولتهم بعكس ذلك كالجراءة على القتل والعقاب بالسجن لمن فعل ما
وجب عليه فعله شرعا . وقد عتد ولي الدين بن خلدون فصلا في مقدمته قال في آخره : « اذا
أذن الله سبحانه بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك
طريقتها فتفقد منهم الفضائل ولا تزال في انتقاض الى أن يخرج الملك من أيديهم وتبدل بسواهم

ليكون نعيّاً عليهم في سلب ما قد أتاها من الملك ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾
الآية . ومن استقرأ ذلك وتبعه في الامم السابقة يعلم علم يقين ما ذكرناه والأمر كله لله .

تذييه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن جماعة والتجاني وابن عبدالرفيع وابن راشد
والصفاقي وابن هارون وابن عبد السلام وابن جابر

الطبقة السادسة عشر

لما قتل أبو العباس الفضل بويج لأخيه أبي اسحاق بن أبي بكر عقد له البيعة أبو محمد بن
تافرجين وهو غلام مناهز واستبد عليه وأمسخت الاعراب وجرت بينه وبين سلطان المغرب
أبي عنان المريني حروب باشر أكثرها بنفسه ثم وجه أسطوله للحاضرة فأخرج منها ابن
تافرجين واستولى عليها في رمضان سنة ٧٥٨ وأبو عنان اذ ذاك في قسنطينة وظهر له الدخول
للحاضرة ثم أعرض عن ذلك وثنى عنانه الى غربه ورجع السلطان وحاميه ابن تافرجين للحاضرة
وفي سنة ٧٦٦ توفي الحاجب المذكور ودفن بمدرسة قرب حوانيت عاشور وأقام هذا السلطان
بعد ذلك بالحاضرة بين فتنة وهدنة مع أعرابها حتى توفي بغتة في رجب سنة ٧٧٠ وفي أيامه
استولى طاغية جنوة على طرابلس حتى اقتناها منهم ابن مكي صاحب قابس وبويج لابنه أبي
البقاء خالد وهو صبي ولم يستقم أمره حتى مال الاعراب من بني كعب الى أبي العباس أحمد
ابن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة لما علموا من كفاءته وعدله فتوجهوا اليه وقدموا
به بعد ترادف الوفود عليه لنصرته ودخل الحاضرة وتمت له البيعة واعتقل أبا البقاء وكانت
ولايته سنة وتسعة أشهر ثم التفت لاسترجاع ما تغلب عليه الثائرون فاسترجع الجريد وقابس
وجربة ودخلت طرابلس والزاب في طاعته وعلت يده وعز سلطانه وكانت له أساطيل في غاية
المنعة لنكاية العدو وتوفي في شعبان سنة ٧٩٦ وهو من مفاخر ملوك هاته الدولة وممن يوصف
بالعدل والانصاف وأسلم على يده عبد الله الترجمان وكان قسيساً وهو مؤلف تحفة الاريب في
الرد على أهل الصليب وأثنى فيها على هذا السلطان . وعلى عهده تقدم ابن عرفة للفتيا والخطابة
بالجامع الاعظم وفي أوائل دولة أبي فارس الآتي ذكره أنه ولي الدين ابن خلدون خبير
بني أبي حفص

تذييه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن علوان وأحمد الغبريني والبطرني وابن عرفة
وابن خلدون

الطبقة السابعة عشر

لما توفي أبو العباس بويح لابنه أبي فارس وقام بالملك أتم قيام وانتظم أمره أي انتظام ورتب الاحوال وأعطى الاموال وأصلح البلاد وقمع أهل الفساد ، وكان شجاعاً حازماً فطناً ذكياً ، تقياً عالماً موقراً للعلماء ، محباً للصالحين ، كثير الصدقات محباً للخير . ومن حسناته خرائن الكتب المشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها مقصورة بمجنبه الهلال من جامع الزيتونة وأوقفها على طلبية العلم ينتفعون بالنظر والكتب بشرط أن لا يخرج منها شيء عن محله وجعل لها قيمين يقومون بها في نفضها ومناولتها للطلبة وردّها لمكاتها ووقت وقتاً من كل يوم ، وكان ملازماً لقراءة العلم بين يديه سفراً وحضراً وأقام العدل في جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصاف المظلوم من الظالم . وفي أيامه عظم شأن المولد الشريف وكان قاضي عساكره ابن الشماع المتوفى سنة ٨٣٣ وكانت له وقائع شديدة مع اخوته وغيرهم ودوخ النواحي وقمع الثوار وجاءته الوفود من الشرق والغرب ووافته بيعة فارس ، وانضم له ملك المغرب . وبالجملة فهو درة سلكهم ومجد ملكهم . وتوفى قرب جبل ونشريس من عمل تلمسان فجأة يوم الاضحى سنة ٨٣٧ فكم حفيده وولي عهده موته حتى تمت بيعته ، ودفن بقرية أسلافه الغربية من مقام أبي محفوظ محرز بن خلف . والحفيد المذكور هو محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس ودخل تونس في أمة عظيمة يوم عاشوراء من سنة ٨٣٨ وجددت له البيعة وأفاض العطاء وعم احسانه ، وله حروب مع الثائرين وما أثر منها ابتداء المدرسة المنتصرية وأتمها أخوه بعده وتوفى في صفر سنة ٨٣٩ وعلى عهد السلطان أبي فارس انتهى تأريخ ابن الشماع المذكور . وله مع الامام البرزلي المذكور نزاع في شأن العقوبة بالمال فابن الشماع يقول بالمنع وخصمه يقول بالجواز وألف كل منهما رسالة في الرد على صاحبه وتأيد مقالته

تبعيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء عيسى الغبريني والوانوغى والابى والزعبي وابن الشماع والقلشانيان محمد وعمر والبرزلي وابن ناجي وابن عقاب

الطبقة الثامنة عشر

لما توفي محمد المنتصر بويح لأخيه أبي عمرو عثمان ، ولما استقام أمره خالفه الاعراب وحاصروا الحاضرة وله حروب مع الثائرين وأخيرا كان الظفر حليفه واستقام أمره وهو آخر

رجال دولة بني أبي حفص وتتمه أنجادهم وفرسان جدالم وصاحب المآثر الباذخة مثل مبيضاته المعروفة الى الآن بميضاة السلطان جو في جامع الزيتونة و أتمام مدرسة أخيه المنتصر ومدرسة جوار مقام الشيخ محرز وخزائن الكتب بالمقصورة الشرقية من جامع الزيتونة وغير ذلك مما عفت رسومه . وبالجملة فهو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في بلاد افريقية . وتوفي أواخر رمضان سنة ٨٩٣ وعلى عهده سنة ٨٧٢ كان وباء جارف بلغ من مات به في اليوم أربعة عشر الفا وعلى عهده كانت وفاة الشيخ فتح الله العجمي في شوال سنة ٨٤٧ وكان انتهاء تاريخ الزكشي سنة ٨٨٢

فصل

تقدم أن الطاغية الاسباني استولى على معظم الاندلس أواسط المائة السابعة وأنحاز المسلمون الى غرناطة وجنوب الجزيرة ، وبعد ذلك صارت هاته الجهة محل مطامع هذا العدو ، والامراء المسلمون هناك الى الانقسام والتنافر وتعارض الاغراض والشهوات من الامراء والثوار بتلك الجهات الذين لم يعتبروا ما في الانقسام من المضار وفعلوا وقع فان الطاغية اغتم الفرصة وأخذ في محاصرة جهات غرناطة . والله در خاتمة أدباء الاندلس أبي الطيب الشريف الرندي ، اذ قال يندب بلاد الاندلس ، ويحرك العزائم من أهل الاسلام لنصرة الدين ، القصيدة المشهورة التي أولها :

لكل شيء اذا ماتم نقصان فلا يفر بطيب العيش إنسان

وقد ألف في الغرض العالم النحرير الوزير الشهير أبو يحيى بن عاصم كتابا سماه « جنة الرضى في التسليم بما قدر وقضى » وهو كتاب مفيد عجيب ومضى الكلام على هذا في القصد في ترجمة هذين الشيخين . وجرت أمور وحروب بين المسلمين والطاغية حتى استولى على ما بقى بالاندلس شيئا فشيئا فكان الاستيلاء على مالقة سنة ٨٩٣ وعلى غرناطة والحراء سنة ٨٩٧ بعد حصار أصاب المسلمين فيه شدة الجوع وتكاثر الكروب وتفاقم الخطوب فكاتبوا الطاغية في الصلح واشتروا شروطا وهي سبعة وستون شرطا منها التأمين على النفس والمال والاهل ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم ومنها أن تبقى المساجد كما كانت والاقواف كذلك الى غير ذلك من بقية الشروط . ثم انهم نقضوا تلك الشروط شيئا فشيئا ونكثوها عروة عروة الى أن آل الامر الى تمكين الكردينال كيميبيسي من اعدام جميع آثار المسلمين وأمر باحراق ثمانين الف كتاب بخطط اليد في ميادين الرحبات العامة بغرناطة . ولما حل بالمسلمين ما حل خرجوا الى فاس ومليلة والريف وغيرها منهم ابن الازرق وبنو داود المذكورون في فهرسة ابن غازي وأبو عبد الله الوادي أشي . ثم وقع اكراه الباقي على التنصر أو الخروج

نخرج الكثير منهم ووصلوا لافريقية الشمالية سنة ١٥١٧ والتي بعدها ، وكانوا خلقا كثيرا وانتشروا في المغرب الاقصى والاطلس : افريقية و سياتى ان شاء الله مزيد كلام عليهم في الطبقة الحادية والعشرين . ولم يبق بالاندلس ، بعد اكرامهم على ما ذكره ، من يجهز بكلمة التوحيد والاذان وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فلا راد لما قضاه الملك الديان . في خلاصة تاريخ العرب : المطرودون من اسبانيا منذ فتح النصراني غرناطة الى سنة ١٦٥٩ ثلاثة ملايين ، كانوا نجبة المسلمين وأعظم صناعة . فدرست معالم عز إسبانيا

تذبيته

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء أحمد القلشاني وأحمد حلولو والرصاص ومحمد الزنديوي

الطبقة التاسعة عشر

لما توفى السلطان أبو عمرو في التاريخ المذكور بويح لحفيده أبي زكرياء يحيى بن محمد المسعود ابن أبي عمرو فقام بالامر وخرج لتمهيد النواحي وفي أثناء اشتغاله بما ذكر اشتغل بأمر تونس عمه عبد المؤمن حين وقع الافتراء بموته وشاع حتى تواتر في رجب سنة ٨٩٤ ثم تبين خلافه وقدم من منييه ودخل الحاضرة وجددت بيعته وفرعه عبد الموفق ثم وقع الظنر به وقتل في خبر طويل ووافته بيعة أهل الاطراف واستقام أمره الى أن هلك في طاعون سنة ٨٩٩ وبويح لابي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود وكان فظناً ذكياً محباً للخير وأهله إلا أن دولتهم بلغت سن الهرم وأذنت بالانقراض لخروج الاكثر عن طاعته فملك عروج باشا أخو خير الدين الآتي ذكره الجزائر وملك النصراني طرابلس سنة ٩١٤ وبقيت تحتهم حتى فتحها درغوث باشا كما ملكوا بجاية سنة ٩١٥ وبقيت لهم أيضا حتى افتكها صالح باشا واضطربت أحوال الدولة من يومئذ . ومن آثار هذا السلطان المقصورة الشرقية بالجامع الاعظم وأوقف بها كتباً جيدة وهي المعروفة الآن بالعبدلية نسبة له وتوفى وافريقية في اضطراب سنة ٩٣٢ وبويح لابنه الحسن وسار سيرة حسنة ثم انقلب لأسوأ سيرة فازداد الارتباك والاضطراب في البلاد وخرج عن طاعته سوسة والقيروان وملك صاحب الجزائر قسنطينة وتغلب العرب على البلاد وقويت شوكتهم وكان خير الدين وأخوه عروج قدما من جزيرة مدلى للحاضرة على السلطان المذكور قبلها بالجميل ولها وقائع وغزوات برية وبحرية شهيرة وبعد فتح الجزائر وغيرها أقام خير الدين واليا عليها ووقع توجيه البيعة للسلطان سليم العثماني وانتشر ذكره وبعد صيته بالشرق والمغرب ثم قصد تونس واستولى على بنزرت وخطب بها للسلطان العثماني ولما بلغ

ذلك الحسن الحفصي أيقن بالغلبة وفر بما خف ودخل خير الدين الحاضرة بلا قتال سنة ٩٣٥ ثم لما ثار عليه بعض أهل تونس خرج منها بعد أن سكن الثائرة وأمن الناس وبأثر ذلك رجع الحسن لتونس ووقعت حروب بينه وبين خير الدين وأخيراً انتصر عليه خير الدين ووقع الاعلان بطاعة السلطان سليمان وساس خير الدين الرعية ولما أيس الحسن من نصرته على خير الدين ذهب لاسبانيا مستصرخا بطاغيتهما وأجابه لذلك وأمدته بأسطول وقدم الحاضرة وقامت الحرب على ساق حتى انهزم خير الدين لان غالب الناس مالوا لسلطانهم سليل ملوكهم ودخل الحسن الحاضرة والنصارى وأمنوا الناس فلم يرعهم وهم في أمان إلا هجوم النصارى عليهم على حين غفلة فاستباحوهم قتلا وأسراً ونهباً . يقال قتل في هاته الواقعة ثلث أهل تونس وأسر الثلث ونجا الثلث وكل ثلث ستون ألفاً وهاته الواقعة تسمى بوقعة الاربعاء وأشار اليها العالم ابن سلامة في قصيدته التي يتشوق فيها الى تونس ويندب اطلالها ويذكر أيامها الرافلة في حلال الدعة وكيف تغيرت وتبدلت أحوالها وبقي الحسن مع النصارى تحت الذل والهوان وشاركوه في البلاد وملكوها حلق الوادى وشيدوا به حصناً أقاموا في بنائه نحواً من أربعين سنة ثم خرج الحسن لاسترجاع القيروان من الثائرين عليه ولما هزموه شر هزيمة ذهب لاسبانيا طالباً من الطاغية الاعانة على استرجاع القيروان كاعانته على أهل تونس قبل فخيبت الله سعيه . وستأتى بقية أخباره

تذنيه

اعلم أنه بانتهاء المائة التاسعة أخذ العالم بتونس في القهقرى والرجوع الى الوراء بعد أن كان سوقه نافقة في دولة أبي عمر والمذكور وتداول في مدته ومدة أخيه محمد خطط العلم جماعة وافرة منهم أبو عبد الله بن قليل الهم وأبو عبد الله محمد الزواغبي وأبو البركات ابن عصفور وأبو عبد الله البنوتى وتداول خطط القضاء والفتيا جماعة منهم أبو عبد الله الرصاع وأبو عبد الله الفلشاني وأبو عبد الله الزنديوى وابنه أبو الحسن وغيرهم من فرائد تاج تونس وزينة جمالها المونس ثم في أوائل المائة العاشرة كانت دولة السلطان أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي وهو الذى بنى المقصورة المعروفة بالعبدلية وملاها بالخزائن وملا الخزائن كتباً وجعل عليها نظاراً وجعل النظر في ذلك لامام الجامع وهو يومئذ أبو البركات ابن عصفور وتوفى هذا السلطان وتولى بعده ابنه الحسن وفي أيامه دخل خير الدين تونس ثم خرج منها في خبر طويل الذيل وكان من رجال الدنيا والآخرة وفي أخباره تأليف مستقل ، ثم انقطع الخبر وعمى الأثر وطوى بساط أخبار العلماء والفضلاء لما دهم افريقية عموماً والحاضرة خصوصاً أواسط المائة العاشرة من الفتن والاحن فتقلص ظل الدولة الحفصية عنها وبلوغها غاية الهرم حتى تجاسر عليها الثوار من كل جانب وامتدت يد الطاغية الاسبانى ولا زالت في ارتباك الاحوال ومكابدة المصائب والاهوال

وخرج منها في ذلك الكثير من العلماء والفضلاء الى المشرق والمغرب منهم أبو عبد الله ماغوش المذكور بهاته الطبقة هاجر الى المشرق وأبو الفضل خروف الآتي اسمه في الطبقة الآتية هاجر الى فاس وفي نزهة الحادي نقلا عن المنجور في فهرسته أن أبا الطيب الظريف التونسي كان واعظا بجامع الزيتونة رحل لفاس بعد أخذ تونس فخاطبه قاضي الجماعة بفاس أبو الحسن علي بن هارون بمنظومة منها :

جارك الغيث إذا الغيث انهمر حضرة الانس البديع المؤنس
لم يكن الا كالحج بالبصر او بريق لاح لي من تونس
فأجابه أبو الطيب بابيات منها :
أيها الشيخ الفقيه المعتبر سيد القطر وصدر المجلس
قد تفضلتم بنظم كالدرر حل من قلبي محل النفس

تنبيه

من اعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابو الحسن الزنديوي وابو عبد الله ماغوش

الطبقة العشرون

قد ذكرنا فيما تقدم البعض من أخبار الحسن الحفصي ، ولترجع لذكر بقيتها والاستيلاء العثماني باختصار فنقول : ان الحسن لما ذهب لاسبانيا مستعينا بطاغيتهما على فتح القيروان وخاب سعيه اغتم ابنه ابو العباس فرصة مغيب والده وقدم من بونة وهو يومئذ عامل عليها الى تونس ودخل قصبتها على حين غفلة ولما اتصل الناس بخبره بايعوه وسار سيرة حسنة ولما بلغ والده خبره عظم عليه ذلك وبذل مالا جسيما للطاغية فوجه معه أسطولا لنصره ونزل بحلق الوادي ووقع القتال بين المسلمين والنصارى وكانت الدائرة على عسكر الطاغية وأما الحسن فر يجزيرة شكلي فأدركه أبو الهول أحد رؤساء الاعراب وأخذ به وأتى به الى ابنه فاعتقله ثم أذهب بصره ثم فروه على تلك الحالة الى القيروان ومات هناك واستقل ابنه أبو العباس وظهرت كفاءته لولا هرم الدولة ثم قدم للحاضرة على باشا صاحب الجزائر واستولى عليها وأخذ البيعة للسلطان سليم ورتب حرامتها ، وأما أبو العباس فانه فر بما خف من أهله وذخائره الى حلق الوادي وذلك سنة ٩٧٧ ولبثوا على ذلك ثلاث حجج فالعرب مالكة للضاحية والنصارى للثغور ثم جاء أسطول عظيم من قبل الطاغية بسعى من أبي العباس المذكور ولما وصل أطلعه قائده على كتاب من وجهه ومضمونه يعينه على طلبه بشرط المقاسمة في الحكم والجيابة فانكر ذلك وأنف منه وانتقل الى بلرمو من صقلية وبها توفي ثم حمل الى مدفنه بزاوية

الشيخ الجليزي بالحاضرة . والشرط المذكور قبله أخوه محمد وآل الامر بعد ذلك الى دخوله الحاضرة مع العدو وقامه الملك مقاصمته الغالب مع المغلوب واشتد الخطب بما آل بالمصائب العظيمة والنوائب الجسيمة على العباد والبلاد من هتك الاستار والعبث بالفساد حتى خرج أهل تونس الى الجبال والغابات والبوادي وفالهم من الجوع والعطش ما هو مبسوط في كتب التاريخ تقشع منه الجلود وعانت عساكر الاسبان في الارض وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة واستباحوا مآبه وبالمدراس من الكتب العلمية وألقوها في الطرقات يدوسها العسكر بنحيوهم وهذا هو السبب في قلة وجود تآليف الفحول من هذا القطر فانها ذهبت شذر مذروفي هاته الواقعة نبشوا قبر ولي الله أبي محفوظ محرز بن خلف وستر الله جسده الكريم فلم يجدوا به الا التراب الى غير ذلك مما ينبو عنه السماع ويبكى العيون دماً ويذيب القلوب ألماً وفعولوا مثل ذلك بالمداين المهديّة والمستير وغيرهما من المحارس والقصور تخريباً وقتلاً وأسراً ومات نحو اثنين الفاً وأسرمثلها الطاغية المذكور ثم تداركها الله بالفتات السلطنة العثمانية فانقذتها من مخالب هذا الطاغية في جمادى الاولى سنة ٩٨١ وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية والمآثر الخالدة في أفريقية لهاته الدولة السنية خلد الله ذكرها وأيد ملكها ونصرها وكان هذا الفتح على يد وزيرها الشايخ الصيت المعروف بالفضل والنجدة والشجاعة والثبات والرأى الصائب والفكر الثاقب سنان باشا بعد قتال استشهد فيه الكثير من الابطال وأمراء الاجناد وكانت الدائرة على الاعداء والبغاة وظفر هذا الوزير بمحمد الحفصي المذكور واعتقله الى أن هلك في اعتقاله وانقضت بانقراضه هاته الدولة ، والله سبحانه وتعالى الفعال لما يريد لا راد لأحكامه وأفعاله فكان ابتداءها سنة ٦٠٣ وانقراضها سنة ٩٨١ وسبحان الباقي الذي لا يحول ولا يزول . والسبب في ذلك هو ما أشرنا اليه فيما سلف ، وهو أنه لما فسدت طباعهم واختل حالهم وامتلاً صاعهم وكانت دولتهم على حالة الهرم وامتنعوا بأعداء الدين فكان ما لهم سلب النعم واحاطة النقم . فانظر واعتبر لحال هاته الدولة على ضعف ساحة أرضها ، وقلة أنهارها وأشجارها كيف ابتداء أمرها واتساع مجال ملكها وأملها من أهل المشرق والمغرب ومدوا اليها يد البيعة ودانوا لها بالطاعة ، واعتصموا بالانقياس الى سلطانها ، وأتته بيعة الاشراف من بيت الله تعالى وحرمة الآمن ومهبط الوحي حيث كانت أقرب الى خلال الخير وأثل ملوكها في الحاضرة المصانع الواسعة والابنية النافعة كالزوايا في الطرق لابناء السبيل والتكايا والمساجد والمدارس والمكاتب لقراءة القرآن العظيم ورتبوا الكتب العلمية في أماكن محفوظة على قانون خاص اعانة لاهل العلم وطلابه والمستشفيات ، الى غير ذلك مما بقي أثره ولم ينس خبره . وفي أيامهم نفق سوق العلم وظهر من الراسخين فيه من هذا القطر اعلام مصنفاتهم تشهد لم بذلك . وكان من الحضارة بتونس ما اقتضاه طبع العمران والثروة وحال

البلاد بما لا ينفى سداجة الدين فتوالت الوفود على سكنى هاته الحاضرة من سائر الجهات على اختلاف الملل والنحل والاصناف يجذبهم مغنطيس العدل فزادوا في أسباب العمران من البناء والغراسة وغير ذلك . وانظر واعتبر كيف كانت عاقبة أمرها وانقلاب أحوالها بعد تلك القوة وعزة السلطان وعلو الكعب من انتقاض الجهات وكثرة الثوار واستطالة أيدي الاعراب في البلاد بالنهب والبغى والفساد حتى استعان آخر ملوكهم بالعدو الاجنبي وآل أمره كالمسجون في حجرة لا يملك الا موضع قدميه ثم الى سجنه وموته تحت أفعاله عقاباله وزجراً لامثاله الناسجين على منواله وما قررناه في حق ملوك هاته الدولة وعلماؤها هو ملخص ما أسلفناه

واعلم أن ملوك بني أبي حفص كانوا يجلون العلماء ، ومجالسهم بهم عامرة وموائدهم مزدانة بهم باهرة وفي ذلك مصلحة لهم عظيمة ومنزلة رفيعة نفيسة اذ بوجودهم والالتفات اليهم وتعظيمهم تنشر راية العلم وتحفظ الشريعة المطهرة واللغة العربية الفصيحة . وكان غالبهم محافظاً على الشرع العزيز ممتثلاً لأوامره . وكان بتونس أربعة قضاة قاضي الجماعة هو المعبر عنه في الشرق بقاضي القضاة وكان بها مفتون منهم من يكون متصديراً لها كتابة ومنهم من يتصدر للاخبار فقط والاحكام جارية في مجارى عزها الشامخ يرتاح لها ويخضع القوي والضعيف والامير والمأمور والخاصة والجمهور وتنفذ على يد قاضي الجماعة . وفي المائة التاسعة ظهرت رتبة المفتي وصارت أرفع درجة من رتبة القاضي واذا أشكل على القاضي بعث للمفتي يسأله . وكان هؤلاء الملوك يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضي والمفتين بمجالسهم وتنفذ بين أيديهم الاحكام الشرعية في كل اسبوع وكانت لهم عناية تامة واهتمام خاص بجمع الكتب العلمية على اختلاف أنواعها والتغالى في اقتنائها وحفظها في الخزائن بقصورهم للمطالعة وبالمدارس وجامع الزيتونة لنفع العموم بها وتقدمت الاشارة الى ذلك وانه كان في خزانة أبي عبد الله المنتصر ستة وثلاثون الف مجلد وما وقع تحيينه من أبي فارس وأبي عمرو وأبي عبد الله فليراجع في محاله وفي الرزنامة التونسية أن جامع الزيتونة كان مستبحراً بالعلوم على اختلاف أنواعها عقلية ونقلية مقاصد ووسائل حتى كان يقال ان حذاء كل سارية من سواريه مدرساً وفي خزائنه ما يزيد على المائتي الف مجلد وأبو العباس عبد العزيز حبس وحده ما يزيد على الثلاثين الف مجلد ووضعها في خزائن زين بها جامع الزيتونة حبسها على العلماء والمتعلمين وحبس عليها ما تحتاج اليه للاصلاح وعلى المناول والمتعهد لها أرضين وزياتين ونوه المؤرخون بشأنها . ثم تلاه السلطان أبو عمرو عثمان فجمع خزائن أخرى تقارب خزائن أبي فارس وبنى لها مقصورة متسعة وملاها بالخزائن وملا الخزائن كتباً وحتى الآن تعرف بمقصورة الكتب وفي هذا الزمان يخزن بها الزيت وتلاهما السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن فبنى مقصورة متسعة وهي المعروفة بالعبدلية وملاها بالخزائن وملا الخزائن كتباً وجعل نظرها لمام الجامع ثم على عهد آخر ملوكهم القيت تلك الكتب بالطرقات

فدانتها أقدام الرجال وحوافر الخيل والبغال وذهبت شذر منذر وبقيت المدارس والمساجد خالية من كتب العلم وضعف العلم بذهاب رجاله وضعفت الدولة باستيلاء الطاغية . وانتهى الخبر عن هؤلاء باستيلاء العساكر التركية . وسنقص عليك خبرهم إن شاء الله

تنبية

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء محمد خروف ومحمد الاندلسي وأحمد العيسى

الطبقة الحادية والشمس ربه

تقدم أن الدولة العثمانية احتلت افريقية سنة ٩٨١ ومن الواجب ذكر رجال هاته الدولة وما آل اليه حال افريقية بعد تلك النوائب والكوارث ليكون المطالع على بصيرة من ذلك فنقول اعلم ان بهذا الفتح رفع الله عن أهالي هذا الوطن النوائب والمصائب والأحن ولسان حاله يقول الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وذلك أنه لما مهد الوزير سنان الراحة وقطع دابر البغاة والمثيرين للفتن وعزم على الرجوع لدار الخلافة هو وأركان حربه وأمراء أجناده رتب عسكرياً لحراسة البلاد وتأمينها وجعل على كل مائة أميراً يسمى الداي ومعناه بالعربية خال كناية عن تعظيم المنادي ورتب أمير لواء لضبط الوطن وجباية المال يسمى الباي ومعناه بالعربية العامل وعين لذلك رمضان باي وجعل النظر في العسكر الى الآغا ومعناه السيد والنظر العام لحيدر باشا وخطب باسم السلطان سليم ابن السلطان سليمان وضرب السكة باسمه وسافر بعد ذلك لدار الخلافة واستمر الحال على ذلك الى أن ثار الجند على كبار الديوان سنة ٩٩٩ وطلبوا اقامة داي للنظر في حال عموم العسكر وقدموا أحد ابطالهم ابراهيم رودسلي (آغا) في تلك الخطة نحو الخمس حجج ولم يستقم له أمر وسافر للحج وتولى بعده موسى فكث سنة وسافر للحج ثم تولى داياً عثمان داي وخرج لتمهيد النواحي وجباية المال ورتب قوانين الرعايا في دفتر سموه بالميزان وباشر الامور بنفسه وكانت فيه شهامة وسياسة وشجاعة واتخذ الاساطيل وصار في منعة من العدو وله آثار حميدة وكان على عهده طاعون جارف وعلى عهده في سنة ١٠١٧ والسنة بعدها قدمت الامم الجالية من الاندلس فأوسع لهم العطاء وأباح لهم السكنى بالحاضرة وبلدان المملكة وبناء القرى في اراض استعمروها فبنوا أكثر من عشرين قرية واعتبط بهم أهل الحاضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم ولم يزل هذا الداي عزيزاً مطاعاً الى أن توفي سنة ١٠١٩ ودفن بجوار الشيخ أحمد بن عروس وفي خلال مدته ارتفع صيت رمضان باي المذكور وعظمت كفاءته في قمع الثوار وتمهيد الجهات وجباية الاموال واستخفاف جماعة على الاعمال وسماهم بيات جمع باي

منهم رمضان هذا وحسين باي ومراد باي جد بني مراد الآتي ذكرهم ولما توفي تولى عوضه دايا صهره يوسف وهو مشهور بالفضل والسؤدد وله آثار كثيرة شاهدة بذلك منها جامعه المعروف بجامعة سيدي يوسف بسوق الترك ولم يزل حميد الحال حسن السيرة الى أن توفي سنة ١٠٤٧ عن سن عالية ودفن بجامعة المذكور ورمضان باي المذكور توفي سنة ١٠٢٢ وتولى مكانه مراد باي المذكور وكان ذا صرامة وكفاءة ثم سمت همته لرتبة الباشا فراسل في ذلك الدولة العلية فأسعفته وأتاه التقليد ونزل لابنه حمودة عن سفر الاحمال سنة ١٠٤١ وتوفي في هذه السنة ودفن بقرية جوار الشيخ أحمد بن عروس

تنبية

قد علمت ما حل بأفريقية من المحن وان العلم ضعف بنهاب رجاله وبأثر ذلك وقع الاحتلال العثماني فابتدأت حينئذ ترجع عمراتها وتستجد شبيبتهها وصادف وفود مئات آلاف من الاندلس وجالية غرناطة وعمروا نيفاً وعشرين قرية بين كبيرة وصغيرة لكن التراجع كان بطيئاً بالنسبة لبث العلوم لانه لما آل الأمر لهاته الدولة وكان الذين قدموا من الاتراك لأفريقية غير منتظمي التصرف الا القليل منهم لم يقع منهم التفات لتدارك العلم الذي كاد أن يضمحل في ذلك العهد ثم عاد لهذا القطر المأنوس ما انقطع عنه شيئاً فشيئاً الى هذا الوقت على ترتيب الطبقات الآتية فكل طبقة هي أرقى من التي قبلها . قال الشيخ حمودة بن عبد العزيز في باشيه خرج من الاندلس ألوف لفاس وألوف لوهران وتلمسان وجهورم جاء لتونس فعمروا بها القرى الخالية واستحدثوا قرى سكنوها واستقرت حاضرهم بالحاضرة فاستحكمت فيهم الحضارة التي عوائدها مرتكزة في طبائعهم واستحدثوا بها صناعة الشاشية التي تقصدها التجار من سائر الاقطار وقصدها الترك من بلاد الخلافة وغيرها ومن مصر فارتفعت بهم أوج العلا ووردت عليهم العلماء من الآفاق فتخرج بهم الكثير من العلماء وشرع أمراؤها في اتخاذ المصانع وتوفير الملك . انتهى بتصريف واختصار . وقال قد كان العلم لأول دولة الترك مرتفعاً منها بل مرة حتى ورد عليها المولى أحمد افندي من أرض الروم في أول المائة الحادية عشر على عهد عثمان داي وكان متفنناً في العلوم فأخذ عنه جماعة من أهلها منهم الشيخ محمد الغناد وأبو يحيى الرصاع والشيخ محمد براو وارتمحل للمغرب الاقصى وافنداً على سلطاتها مولاي أحمد الذهبي فوجده يقرئ المطول للمولى سعد الدين بالجامع كل يوم فأوسعه مبرة واكراما ثم عاد لتونس فكان يقول وجدت بجامع القرويين سبعة عشر كرسيّاً يقرأون التفسير وكلهم عن التفسير بمعزل الا ان ملكهم يفهم الخطاب ثم ارتحل بعد ذلك الى بلاده فكانت بها هاته الطبقة التي ذكرناها ومن عاصرهم كأبي الفضل عظوم وغيره وانتشر بها العلم . انتهى . وكانت القضاة تجيء الى تونس من دار الخلافة والغالب

عليهم العجبة ومذهبهم مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فاحتاجوا حينئذ الى نائب يكون بين يدي القاضى فيكون بمثابة قاضى الخصومات والقاضى التركى بمثابة قاضى الجماعة واحتاجوا أيضاً لمجلس كما جرت به العادة فى دولة بنى أبى حفص يجعلونه بين يدي الباشا فى هذه الدولة وكان يحضر بالمجلس أربعة من المفتين والمراد من حضورهم الاخبار بالامور الشرعية اذا سئلوا عنها والقاضى ينفذها وأول من تصدر بتونس مفتياً حنفياً الشيخ أبو الحسن على الشريف وباحتلال الدولة التركية أخذ المذهب الحنفى فى الظهور بعد انقطاعه من مدة المعز الصنهاجى حسبما تقدمت الاشارة الى ذلك فى ترجمته

تذبيته

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء أبو الفضل عظوم وأبو النجاة النفاى وأبو الغيث القشاش وأبو الحسن الرضاع وتاج العارفين البكرى

الطبقة الثانية والعشرون

لما توفى مراد باشا المذكور سنة ١٠٤١ قام مقامه ابنه حمودة باشا فهد الامور ورتبها أحسن ترتيب وكان كريماً حسن السيرة والتدبير محباً للعلماء مقرباً لهم مؤثراً مجالستهم ومباحثتهم شجاعاً وقع الثوار ودوخ جميع العرب ورتب أوجاق الصبايحية بتونس والقيروان وباجة والكاف لتأمين السبل واتسعت الجباية وله مآثر ماثورة وآثار ضخمة مشهورة منها بناؤه الجامع المشهور قرب ضريح الشيخ أحمد بن عروس ومنارته الغريبة الشكل العجيبة الانشاء لانظير لها فى المغرب ومنها المستشفى بحومة العزايقن واعتنى بتشييد باردو أحد منتزهات بنى أبى حفص وطلب من الدولة العلية تقليد منصب الباشا فأتاه سنة ١٠٦٨ ونزل عن سفر الاحمال لابنه مراد واستخلفه مكانه وعقد لابنه محمد الحفصى على القيروان وسوسة والمنستير وفاقس وعقد لابنه حسن على باجة وفى آخر الامر طلب الاستعفاء فأعفى ومال للراحة ونحلى عن البلاد لاولاده الى أن توفى فى شوال سنة ١٠٧٦ ومن شعرائه أبو عبد الله محمد العروى السوسى وله فيه القصائد الطنانة وكان أديب وقته وشاعره من غير مدافع وله ابن نجيب قدمه والده فى حياته للفتيا وكان يروى البخارى بحضرة والده لمجلس الباشا والحاصل ان هذا الباشا حسنة من حسنات الزمان وهو المؤسس المجد لبنية والآثار الخالدة بعده ولما توفى استقل بالامر بعده ابنه مراد باى المذكور وانفرد بالكلمة واستقام أمره وضعف أمر الدايات فى وقته وصاروا أتباعاً له وسندكر أسماء الدايات فى فصل خاص . ومن مآثره المدرسة المنسوبة له غربى الجامع الاعظم وأول مدرس

أقيم بها الشيخ محمد الغناد وتوفي سنة ١٠٨٦ وبويع لابنه الأكبر محمد ثم ان عمه محمد الحفصي أغرى أخاه علياً بطلب المشاركة فأصغى له وطلبها فأنف محمد من ذلك ولهذا الخلاف اتفق الاعيان على أن يكون الامير العم محمد الحفصي وبايعوه بعد خلع محمد المذكور وفراره للكاف وذلك في رجب من السنة ١٠٨٦ ونفذت أوامره بعد ذلك ثم اضطرب أمره وأشهد على نفسه بالخلع وراسل محمداً بذلك وقدم الحاضرة وجددت له البيعة بياردو في شوال من السنة وتوجه العم بعد ذلك للاستانة وأما علي فإنه توجه لقسنطينة وأخذ في جمع الجنود لقتال أخيه ثم قدم العم من الاستانة ومعه سبعة مراكب مشحونة بالمسافر ومتقللاً منصب الباشا من السلطان محمد خان فجمع محمد باي أهل الحل والعقد بجامع الزيتونة للنظر في هاتاه النازلة وكان من أمرهم الاتفاق على رد العم وكاتبوا الدولة بأن سبب عدم قبوله هو عدم أهليته وبناء على ذلك رجع العم لدار الخلافة وكان من أمره ما سنده وأما علي فإنه قدم بجند من الاعراب وخرج له أخوه محمد في جنده ووقع القتال بينهم فكانت الهزيمة على محمد وفر إلى الكاف ودخل على لتونس وتمت له البيعة وبعد ذلك وقعت بينه وبين أخيه حروب واضطرب الحال بينهما كذلك اذ قدم العم محمد الحفصي من دار الخلافة متقللاً منصب الباشا من السلطان محمد أيضاً ودخل الحاضرة في حفل عظيم ووفد عليه علي وهناه بذلك وصارا على وفاق ثم صارت بينهما وحشة وخرج العم لقتاله باتفاق مع أخيه محمد وبعد قتال كانت الهزيمة عليهما وفر العم للقيروان والآخر للمنستير وفي أثناء ذلك قدم صاحب الجزائر لاطفاء نار الفتنة وعقد الصلح بين ثلاثتهم وانقعد على تمليك علي واقامة العم باشا تبعاً لأمر السلطان واستقرار محمد بالقيروان ويبقى ابنه أحمد رهنا عند عمه علي وبناء على ذلك رجع علي والعم للحاضرة ثم صدر الاذن من الدولة العلية سنة ١٠٩٠ بإبعاد العم لارض الروم وأبعد لتلك الجهة الى أن توفي سنة ١٠٩٧ وصفا الجو لعل ثم أساء السيرة بعد ذلك وتحرك له أخوه محمد في جموع ووقع القتال وفي أثناء القتال اغتال علي ابن أخيه الرهين وفر إلى الكاف واتبعه أخوه محمد بحملة عظيمة وانضمت له حملة الجزائر بين الذين جاءوا لنصره وفرّ علي لصفاقس بعد انهزامة ودخل محمد الحاضرة ولما رأى ما يشعر باستبداد الرأي راسل أخاه علياً في الصلح واصطلحا على مقاسمة البلاد فكانت حصة محمد باجة والقيروان والمنستير وحصه على الكاف ووسلات وسوسة وبقية الساحل وارتمل محمد لتلقيه وعزما على قتال الداي حيث استبد بالحاضرة وهو أحمد شلبي وخرج هذا الداي بحملة لقتال محمد وآلت بعد القتال بانهزام محمد وراسل الاخوان بعد ذلك صاحب الجزائر ابراهيم خوجه واشترطاه شروطاً على اعانتها فخرج بنفسه في حملة وعامل قسنطينة في حملة أخرى وسار اليه الاخوان واجتمعوا بالخريرية وألحوا في الحصار على تونس الى أن استولوا عليها وأسروا الداي شلبي وجددت البيعة للاخوين وذلك في رجب سنة ١٠٩٧ وولوا الحاج بقطاش دايًا وبعد أيام قلائل ظهر للجند عدم امكان الشركة ونادوا بلسان واحد بولاية محمد وقتلوا علياً وأحمد شلبي وارتمل

بعد ذلك الجزائر يون بعد توصلهم بما اشترطوا وانفرد محمد باي بالامر وصفاله الجوارح لمدويح النواحي وجباية الاموال وتأمين السبل ثم نار عليه محمد بن شكر ووقعت له حروب معه آل الامر الى انهزامة وقراره للصحراء واستولى على تونس وسائر البلاد باعانة من صاحب الجزائر وتصرف في العباد بالقتل والتهب والفساد وآسف الناس فراق محمد باي واستكانوا تحت سطوة هذا الجبار ثم نار عليه أهل سوسة والقيروان وبعثوا لمحمد باي ينادونه وقدم وانضم اليه خلائق لا يحصون وخرج اليه ابن شكر فالتقوا على وادي برق الليل فكانت الدائرة على ابن شكر ومات مذموماً مدحوراً وذلك سنة ١١٠٦ واستولى محمد باي على جميع ما معه ودخل القيروان ثم تونس وسر الناس بقدمه واستبشروا وهادن صاحب الجزائر بواسطة الولي العالم الشيخ علي عزوز ومن آثاره المباني الضخمة المقاطعة بعلو مقداره منها جامع النخيم البديع المنظر والشكل امام ضريح ولي الله الشيخ محرز ومات قبل اتمامه قائمه أخوه رمضان باي وله مدارس بالكاف وباجة والقيروان ونفطة وتوزر وقابس واسواق الشواشية الثلاث والزيادة في قصور باردو والقنطرة على وادي مجردة وأقام على بنائها بنفسه وهي شاهدة له بالازية العظيمة والرتبة الشاحنة وكان مؤثراً للعدل والانصاف قائماً لاهل الجور والظلم من عماله وعساكره محباً لاهل الفضل والعلم وبقي في أمن ودعة الى أن وافاه أجله في ربيع الانور سنة ١١٠٨ وعظم المصاب به وفي مدة أخيه علي انتهى صاحب المونس تاريخه وقد استوفى في مونسه أخبار رجال هاته الدولة وعلمائها وكانت مشاهدة عيان كما استوفاهما الشيخ حمودة بن عبد العزيز في باشيه

تمثليه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء أبو الحسن النفقاني وأبو بكر البكري وأبو الفضل المراني وأبو العباس الشريف وأبو الحسن الغماد

الطبقة الثالثة والمرحون

لما توفي الامير محمد باي سنة ١١٠٨ تمت البيعة لآخيه رمضان فاقر الناس على مراتبهم ومهد البلاد وجبي الاموال وكان عاكفاً على الملاهي، وكان له مغن اسمه مزهود استولى عليه وفوض أمره اليه وأقبل على لهوه وتصرف مزهود بالقتل وغيره وتمادي على ذلك حتى قتل العلامة حمودة ابن الشيخ محمد فتاته افتياتاً على سيده فنفرت بها القلوب وارتفعت الاكف بالدعاء بهلاكهما فهلكا وسنقص عليك خبرهما، وكانت أم رمضان كافرة ماتت على دينها فبني لها الكنيسة قرب باب قرطاجنة ودقها بها والشيخ حمودة المذكور كان مختصاً برمضان باي قبل

الولاية وبعدها سافراً وحضراً لحسن محاضراته ولطف آدابه ووثوق علمه ونوقه وفهمه . ثم سعى مزهود في إبعاده عنه وخلا له الجوار وكان في عهد الامام تاج العارفين البكري وابنه أبي بكر يقع تدريس البخاري بجامع الزيتونة رواية ودراية في رجب وشعبان ورمضان الى السادس والعشرين منه ولما توفي أبو بكر تغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير تبر كالان ولديه أبا الغيث وأبا الحسن لم يبلغا مبلغ والدهما وجاههما ولما أبعده الشيخ حمودة المذكور عن رمضان باى رجع لاصله وتصدى لاقرائه دراية وغيره من العلوم بالجامع على حين لم يكن به من يقرأه دراية وكان راويه يومئذ الشيخ محمد زيتون فاجتمع عليه خلائق لا يحصون وصار له بذلك صيت . ولما رأى مزهود ذلك تغير وأرسل الى أبي الغيث المذكور امام جامع الزيتونة لينمعه من اقراء الحديث بالجامع اذ ربما يؤول به الامر الى طلب الامامة بالجامع فارسل له أبو الغيث بإبطال درس الحديث وأظهر الغضب منه حيث لم يمثل لابطاله بعدم اقامة صلاة العصر بالجامع فلم يمثل لابطاله وانتقل لاقرائه بمسجد سوق البلاط فازداد مزهود بذلك بغضه وأغرى به رمضان باى ومنعه من الخروج من داره ولم يكفه ذلك حتى أرسل اليه حرساً هجموا على دار الشيخ وأخرجوه بترويع أمه وأبيه وأهله وبينه وأوقعوا به ما بلغ به الشهادة ولاقى من الله الحسنى وزيادة . ورمضان باى لاعلم له بشيء من ذلك غير أنه لما بلغه الخبر لم ينكر على مزهود ولا عاتبه . وجمع مزهود في تلك الليلة طائفة من الاوباش أصحابه وصنع صنيعاً اجتمعوا فيه على كل فاحشة فرحا بقتل الشيخ وكان قتله سنة ١١٠٩ من الالهوال العظيمة والمصائب الجسيمة وتأسف عليه والده العالم المشهور والخاصة والجمهور . وقابلوا تلك المصيبة بالصبر والابتهال بالدعاء الى الكبير المتعال عليه وعلى سيده وتوسل والده في دعائه بسيد الانام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في قصيدة أولها :

اليك رسول الله وجهت آمالي وألقيت يا سؤلى بيبالك أحالي

فاستجاب الله دعاءهم فلم يعض قليل من الاشهر حتى شئت الله أمر مزهود وسيده وأشياعه كما سنذكره إن شاء الله وذلك أنه لما قتل الامير الباشا أبو الحسن على ترك ابناً اسمه مراد تحت كفالة عمه محمد باشا ثم تحت عمه رمضان المذكور ثم خوفه منه مزهود وأشار عليه بالقبض عليه فحبسه وسمل عينيه وعالجه طبيب مرأاً وقر من السجن لسوسة وقام بقصره بعد ذلك أهل رسلات وغيرهم ومالت الجوع اليه وبايعوه في رمضان سنة ١١١٠ ووجه حينئذ من أخرج رمضان وقتله ثم أحرقه وألقى رماده في البحر فلا خبر له وكانت مدته ثلاثين شهراً فأعمل أولاً السيف في مزهود وشيعته وعزل أبا الغيث البكري عن الامامة ثم أقبل على سيرته الشهيرة من قتل الانسان والحيوان وانتهاك الحرمات والمجاهرة بالفواحش وقتل بنفسه الشيخ المفتي محمد العواني الشريف وشوى من لحمه وأكله مع نسمائه ولما أراد قتله قال له أنصحتك أن من قتل عالماً آيس

من الحياة وفعل بغيره مثل ذلك وقد نزع الله من قلبه الرحمة يؤتى اليه بالرجل فيقوم اليه بنفسه ويجذبه ويقطع أعضائه ويشق بطنه ويدخل يده لاخراج أمعائه وكبدته وكان له سيف يسمى البالة فلا يكاد يخلية يوماً من اراقة دم واذا لم يقتل أحداً يقول ان البالة جاءت فيقتل من يعرض له وله حروب مع الجزائريين كانت الدائرة فيها عليه « وعلى الباغي تدور الدوائر » ولم يستقم له حال الى أن أفتك به ابراهيم الشريف بمواطاة من أمراء الجند وذلك في محرم سنة ١١١٣ وأرسل من قتل بقية آل مراد وكانت مدته ثلاثة أعوام وأربعة أشهر انقضت بانقراضه دولة آل مراد وكانت مدتها الف شهر

تنبيه

اعلم أن الخلق عيال الله ومتى استعمل على الرعية الاراذل والسفهاء وأهل البطالة والاعلان بالشهوات كان ذلك داعياً الى فساد نياتهم وضعف ديانتهم وانهما كهم في شهواتهم . في سراج الملوك : أقوى الاسباب في اصلاحهم أن يستعمل عليهم الخاصة منهم وذوى الاحكام الراجحة والمروات القائمة والاذيال الطاهرة فمضى كانت رياسة العامة بيد سرايهم حصلت سعادتهم لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالم سادوا وفيه : ان ادعى خصال السلطان الى صلاح الرعية وأقواها أثراً في تمسكهم بأديانهم وحفظهم لروايتهم اصلاح السلطان نفسه وتزهره عن سفاسف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفع نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق
 اذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
 أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

رجوع وانعطاف

لما أفتك ابراهيم الشريف بمراد بايمه رؤساء الاجناد وقدم الحاضرة وتم له الأمر وجاءه تقليد منصب الباشا وكان كاهيته المولى حسين بن على تركى واه حروب مع الجزائريين وغيرهم وأخيراً هزموه وأسروه فكانت ولايته ثلاثة أعوام وشهرين وكانت سيرته أولاً حسنة ثم طفق في ظلم الرعية فذبح أبناءهم ونساءهم واستصطفى أموالهم وكاد أن يستأصل العرب راجلهم وخيلهم لشدة بغضه لهم ولظلمه لم تطل مدته ولو دامت لاهلك الحرث والنسل ومعلوم أن الظلم اذا دام دمر والمعدل اذا دام عمر . قال أبو العتاهية :

أما والله ان الظلم اوم ولكن المسىء هو الظلوم

الى ديان يوم الدين نعى وعند الله تجتمع الخصوم
 سل الايام عن أم تقضت فتخبرك المعالم والرسوم
 ولما وقع بابراهيم الشريف ما ذكرناه وقع الاتفاق على تولية كاهيته حسين بن علي تركي وقبلها
 بالزام بعد تمنع وتمت له البيعة في ربيع الانور سنة ١١١٧. كان والده على تركي وبه يلقب قنم
 من جزيرة كندية الى الحاضرة في أوائل دولة بني مراد فولاه قيادة أزيمة الاعراب وكان من
 أهل الكفاءة والنجدة وتوفي سنة ١١١٣ ونشأ ابنه المذكور في خدمة الامراء المراديين وتقلد
 الولايات الجليلة وتسم الخطط الرفيعة كخطة خزنة دار وكاهية الخلافة وولاية الاعراض
 والجزيد وهو باني الملك الحسيني جعلها الله كلمة باقية في عقبه أبا الأبديين. توارث الملك بنوه
 كبراً عن كابر الى هذا الوقت على الترتيب الآتي بيانه وله حروب مع القائمين عليه كان
 الظفر حليفه ورسخت قدمه وكانت أيامه مواسم ثم ثار عليه كفيه ابن أخيه على باشا ابن محمد
 ابن علي تركي. كانت ولادته سنة ١١٠١ فبناه عمه الامير المذكور وأحسن تربيته وتهذيبه
 وليس له اذ ذاك اولاد وأولاه أمير أمراء الاحمال سنة ١١١٨ وزوجه ابنته وأجراه بحرى
 الاولاد الى أن وهب الله له ولياً من لدنه يرث ملكه فولد له المولى محمد باي ولما بلغ من العمر
 خمسة عشر عاماً أولاه باي الاحمال وأولى ابن تربيته باشا فأنف على باشا من ذلك وهرب هو
 وابنه يونس الى وسلات وذلك سنة ١١٤٠ وخرج عمه لقتاله آل أمره لفراره مع ابنه للجزائر
 وساءت حاله ثم أمده صاحب الجزائر بعسكر قدم به سنة ١١٤٧ ولما قدم هذا العسكر الحاضرة
 خرج الامير بعسكره ووقع القتال بين العسكرين آل الامر بانهزام الامير وفراره الى القيروان
 ولحق به أنباؤه واعتصموا بها ودخل غالب بلاد الساحل في طاعتهم ودامت الحرب بينهم
 وباشراً كثرها يونس باي ولما ضاق الخناق على أهل القيروان بطول الحصار خرج الامير
 منها بمن بقي معه وبأثر خروجه استشهد وذلك في صفر سنة ١١٥٣ وحمل ودفن بقربته بالحاضرة
 وأما أنباؤه فاتهم توجهوا للمغرب وسيأتي خبرهم وهذا الامير هو الذي أحيا رسوم العلم بعد
 اعفائها وأيقظ أجنان طلبته بعد اغفائها بالتفاته الى أهل العلم بالصلوات المتوالية والاكرام لهم
 والتعظيم والمجالسة وله في التزام الاحكام الشرعية قدم نسخة يحمل العامة والخاصة عليها فيما
 يجرى بينهم من المعاملات وكانت أيامه كالخصب بعد الجذب والامن بعد الرعب والسلم بعد
 الحرب. سعت المملكة وأهلها به وامتلات أيديهم بالمكاسب فأثاروا الارض وعمروها
 وأغرى عن العمل ما قوى به الامل ووقع التنافس في الصنائع وغيرها مما هو محمود والناس على
 دين ملوكهم وفي أيامه كان سوق العلم نافقاً والعملاء الفحول كثيرون منهم الشيخ محمد زيتونة
 المذكور كان يبعث اليه ويستشيره فكان اذا أتاه يخرج اليه لتلقيه خارج البيت ويأخذ بيده
 ويقوده ويجلسه حنوه ولا يحضر معها ثالث في الغالب ومن مآثره الجليلة احياء مدينة القيروان

ومساجدها وزواياها وبناء مدرسة النخلة والمدرسة الحسينية وجامعه الشهير وأول صلاة أقيمت به ظهر يوم الاحد رابع عشر شوال سنة ١١٢٩ وأنشأ مدارس بصفاقس ونفطة والقيروان وفسقية الملاسین وغير ذلك مما هو كثير وقد ذكرت ترجمته مفردة ومضافة وأتى على أكثرها أبو عبد الله محمد سعادة في كتابه المسمى بقرة العين في فضائل الامير حسين والمؤرخ الشيخ حسين خوجة المتوفى سنة ١١٦٩ في تاريخه بشائر أهل الايمان والشيخ عبد الرحمن الجامعي في الدرر المديحية في الدولة الحسينية والوزير حمودة بن عبد العزيز في باشيه قال فيه قد ألم أبو عبد الله محمد الوزير السراج في حله السندسية باخبار المولى حسين بن علي باي بلغ فيه الى سنة ١١٤٤ غير ان الجزء الرابع أحرقه علي باشا لما اشتمل عليه من ان القصد منه في قيامه علي عمه بجبل وسلات فلا يوجد منه عين ولا أثر. انتهى وفي الاستطلاعات البريزية اتفق لي اني تذكرت مع أحد علماء باريز في التواريخ العربية المختصة بالملسكة التونسية ومنها تاريخ الوزير السراج وانه لا توجد منه نسخة كاملة عندنا لوقوع احراق الجزء الاخير ولما ذكرت له ذلك أطلعني على ديوان كتب مكتبة المونيك في البافره من ألمانيا فاذا به نسخة تامة مؤلفة من أربع مجلدات

تذييه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء سعيد الشريف ومحمد قويسم ومحمد الغداد ومحمد فقاتة وعلي النوري وعبد العزيز الفوراني وابراهيم الجنى ومحمد زيتونة والوزير السراج ومحمد الخضراوي

الطبقة الرابعة والعشرون

لما بلغ أهل الحاضرة انهزام الامير الباشا حسين في الواقعة التي قدمنا ذكرها بايعوا ابن أخيه الامير الباشا علي باي في صفر سنة ١١٤٨ ولما استقل بالامر أرهف الحد وحكم السيف في شيعة عمه واشتدت سطوته وعظم سلطانه وصادر الامة بالمال الكثير وعرضت في مدته محاربات فاز فيها بالظفر ووقعت بينه وبين دولة فرانس وحشة آلت الى صلح وفي سنة ١١٥٩ قدم الاخوة أبناء الامير حسين من الجزائر ومعهم محلة أميرها باي قسنطينة الى الكاف وامتدت أعناق الآمال الى الاسعاف وواقهم نجوع العرب بالمدد وبالرجال والعدد لولا ما غدر به أمير المحلة فردها بدون كبير قتال وغره في ذلك ما وصاه من المال وتفرقت جموع الحاشدين وأسفوا من شماتة الحاشدين ومات من شدة الاسف أحد أبناء الامير محمود وكان بطلا مقداما شهيا هاما ثم تفرقت كلمة أبناء علي باشا بسبب الحسد وأدت هاته التفرقة الى حصول وحشة بين الامير

يونس ووالده وبسبب ذلك باشر السعي بنفسه بمعاوضة ابنه سليمان ويونس بعد بالعراء ثم قام على أبيه وانقسم الناس الى قسمين قسم مع الباشا وقسم مع ابنه يونس وقامت الحرب على ساق داخل الحاضرة وصوبت المدافع على الدور والمساجد والجوامع ونال الناس الرعب من كور المدافع وأصاب قنبلة سارية من سوارى جامع الزيتونة وعظم الخطب وآل الامر الى انخزال يونس وفراره الى قسنطينة ثم ان ثالث الاخوة محمد فوق أسهمه لاختيه سليمان لما خشي من وراثته الملك بعد أبيه لما يرى لايه من ايثاره عليه لما فيه من الاهلية فعاجله بالاطعام فرض أسبوعا وفاضت نفسه على حين لم يكن والده متوقفاً ذلك فتوفي مسموما سنة ١١٦٨ وأعلم أبوه بصنيعه بأخيه وتحقق ان الله أذاقه بأس ولده محمد لاعدامه لعضدى نصرته يونس بالفرار وسليمان بالمات وكان ذلك من مبادئ انتقام الله منه والله عزيز ذو انتقام ولازمه الاسف. وهذا الباشا كان مع سفكه للدماء وامتتهانه للخاصة واضراره للمملكة عظامه معدوداً من العلماء وله شرح مهم على تسهيل ابن مالك ويقال ان شيخه أبا عبد الله الخضراوى كانت له يد فى تأليفه وقرظه علماء عصره منهم أبو الحسن على البارع بقوله :

لله شرح للامير موضح لم يتصف بصعوبة التلويح

سهل التناول بالخفاء مصرح قد فاق فى التسهيل والتصريح

فاذا افتقرت الى كتاب موضح فكتابه المغنى عن التصريح

وله ولوع بجمع الكتب واكتسابها وله ما أثر جليلة منها تربته التى بالقشاشين ومدرسته الباشية والسليمانية نسبة لولده سليمان وقدم لمشيختها الشيخ محمد الغريانى وهاته الابنية حول الجامع الاعظم ومدرسة بير الاحجار ومدرسة حوانيت عاشور وقدم لمشيختها الشيخ عبد الله السوسى وأوقف على جميع ذلك أوقافا وجعل جرايات للشيوخ والتلامذة اعانة على طلب العلم الشريف واعتنى بتحصين البلاد وجهاز الثغور وأجرى السقايات العظيمة النفع وهدم الخانات ومنع بيع العنب لمن يعصره خراوبنى مبانى ضخمة بياردو ولما امتلأ مكياه ولاقى من عقوق بنيه ما صنعه لعمه جزاء وفاقا وقيدته هموم فقد ولديه وصارت النفوس شعاعا من تصرفات ابنه محمد باى حنوا الى بنى ملكهم حنين الغريب الى الوطن وكاتبهم الكثير من أهل الحل والعقد يحنونهم على القدوم للقيام بشأنهم قدموا ومعهم احملة من الجزائر بما انضم اليهم من المشائر حتى نزلوا قبلى الحاضرة ولج الباشا وابنه محمد فى القتال حتى انهزما معا وقتل محمد قرب الملايين وأسر الباشا ثم قتل بعد أيام فى ذى الحجة سنة ١١٦٩ وقد استكمل استقصاء خبره وخبر عمه وأبناء عمه المؤرخ الشيخ محمد بن يوسف الحنفى الباجى فى تاريخه المسمى المشرع المكي بدولة ابناء على تركى ودفن بتربته وورثاه كاتبه الشاعر المفلح محمد الورغى بقوله:

مضت دولة الباشا على كانه من الدهر يوما فى البرية ما عاشا

أنته المنايا وهو فى عظم قوة وجيش كثيف مثله قط ما جاشا

فصار دفينا بعد ما كان دافنا ققلت وقد أرخته دفن الباشا
وبأثر ذلك دخل الحاضرة الامير الباشا محمد بن حسين باي وأخوه علي في يوم مشهود خفقت
فيه الرايات والبنود في ذي الحجة سنة ١١٠٩ فهرعت الخاصة والعامة الى بيعتهما واطمأنت
الانفس وقرت العيون بعود الدر الى معدنه وجلس محمد علي كرسي المملكة فزانه بعدله واحسانه
وكان من سمحاء الملوك وصدور الادباء وفحول الشعراء له ديوان شعر بديع وقصائد نبوية
وتوسلية تدل على حسن وثوقه بالله وأوليائه اما قصيدته الميمية والقفية فهما غاية في الابداع وقد
مهي أولاهما محركات السواكن الى أشرف الاماكن ومطلعها:

هل زورة تشفى فؤاد متبم يا أهل مكة والحطيم وزمزم

وشرحها قاضي محله وأستاذه الشيخ محمد بن محمد الشافعي الشريف بمجزئين ضخمين التزم
في شرح كل بيت منها خمسة فنون اللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع فهو شرح مشحون علما
وأدبا وأما القصيدة القافية فشرحها الشيخ صالح الكواش وقيل ابنه محمد الكواش وكانت أيامه
على قصرها مواسم بواسم وتوفي في جمادى الثانية سنة ١١٧٢ ورثاه الشيخ محمد الورغي المذكور
بقصيدة مطلعها:

هذا ضريح للامام الامجد نجز الملوك السيد ابن السيد

وآخرها:

بشري له اذ جاء في تاريخه يا حسن حور زينت محمد

وأطال البناء عليه الوزير حموده بن عبد العزيز في باشيه بما هو أهله وبعد انتقاله للدار الآخرة
اجتمع أهل الحل والعقد على بيعه أخيه الامير الباشا على ولما تمت له أقر رجال دولة أخيه على
مناصبهم وقرر الامور على ما كانت عليه واستعمل من الرفق والحنان ما جلب به جمع القلوب
واصطفى بمجلسه العلماء ودخل في زميرتهم ما يوسعهم برا واكراما مؤديا لحقوق احترامهم الواجب
مع ماله من الذكاء والمشاركة في العلوم وحب المحاورة وملازمة صحيح البخاري بنفسه وحصل على
اجازات عامة من الشيخ عبد الحفيظ تلميذ الشيخ أحمد بن نصر وغيره وبالجملة فانه كان ملكا
شجاعا عاقلا ذا صيانة وعفاف ونجدة وحلم وكرم أقام في دولته سوق العلم والادب فكثرت فيه
الشعراء وتنافسوا في مدائحه بدواوين من الشعر وأولام من الجوائز والصلوات ما هو كثير
أفرد له وزيره أبو محمد حموده بن عبد العزيز تأليفه الباشي في مجلد ضخيم جمع فيه مفاخر مملكته
ودولته واستوفى من خصاله الحميدة وقصائد مديحه ما لم يخطه غيره من المؤرخين وفي سنة ١١٧٣
ثار عليه اسماعيل ابن الامير يونس وتمحصن بجبال شعشهم من قبل وكانت له حروب معه شاقة
بجبال ووسلات وآل الامر الى فراره وانحلال عرى عصابة أهل وسلات وبعد مادانوا له بالطاعة
فرقمهم على قرى افريقية وأصبح جبلهم خاويا على عروشهم من يومئذ الى هنا العهد واما اسماعيل المذكور
فانه فر الى الجزائر وتوفي هناك سنة ١١٨٤ ووقع بينه وبين دولة فرانس الحرب ثم وقع صلح بينها

ومن مآثره الاثيرة الخالدة مدرسته الشهيرة وتربته حنوها وهي مدفن آل هذا البيت الى هذا العهد ومنها تاسكتان مشهورتان للفقراء والمساكين وبناء المحكمة الشرعية والمياه العذبة التي اجراها للحاضرة وبناء سور القيروان ونظم مكتبة بالكتب أنيقة بمسجد دار الباشا حصل بها النفع وغير ذلك ومن مآثره بلنستير الاصلاحات بالجامع الاعظم وتأسيس الجامع المنفي وبناء سور الربط الجوفى وبناء مقام الامام المازرى بعد نقله من مدفنه الاول واقامة مدرس به وبناء مقام أبي علي يونس بن السماط بعد نقله أيضا من مدفنه الاول وفي أيامه وقع ابطال تولية القضاء من الحضرة العلية ونصب قاضياً حنفياً من الحاضرة وقاضياً مالكيًا بيفلان ماخف من القضايا وراسلان بما أشكل عليهما المفتين من المذهبين ويعقد في كل أسبوع مجلساً لفصل تلك القضايا ومن مفاخره تعطيل الحجر والتنكيل بالحارين وهدم الخانات واجراء الصدقات وعهد بالولاية لابنه حمودة وراسل الدولة العلية في ذلك وجاءته الخلعمة والتقليد في محرم سنة ١١٩١ و تمت له البيعة وتوفي آمن السرب على الكعب سنة ١١٩٦

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصر بن لهؤلاء الامراء حمودة الريكلى ومحمد سعادة ومحمد الشحى وقاسم المحجوب ومحمد الغريانى ومحمد الورغى ومحمد بن سعيد ومحمد الطوير

الطبقة الخامسة والعشرون

لما تخلى المولى على باشا عن الملك لابنه حمودة بايمه أهل الحل والعقد في التاريخ المذكور فاستقام أمره ور سخت قدمه وكان والده بلغ الغاية في تربيته وتهذيبه وتأهيله للامارة على يد فحول من علماء دولته عارفين بالرياسة والسياسة منهم وزيره حمودة بن عبد العزيز فنشأ في دارة الامارة شهياً ورمى في كل عرض من أغراضه سهماً فكان في سلسلة الجيد الحسيني واسطة عقد ودره يقيمة ذاهمة باذخة وحال شاذجة حازماً حامياً للذمار غير متحمل للعار خبيراً بسياسة البلاد نصوحاً لها حسن التدبير محباً للعلماء والصالحين يباشر المعات بنفسه مقتصدًا في شخصياته حافظاً لاموال المسلمين عن غير مصالحهم لا تأخذه في الله لومة لائم وحارب البلنسيان سنة ١٢٠٤ ثم انفصل معهم على صلح وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع الى دار الخلافة فاحكم وصلته معها سنة ١٢١٠ وفي سنة ١٢١٨ لما كانت بجاعة كبرى بافريقية وجه العالم الطائر الصيت الشيخ ابراهيم الرياحي لحاضرة فاس بمكتوب الى سلطانها الشريف المولى سليمان في استمداد الميرة فأعظم السلطان مقدمه وأمدته بمطلبه . وتقدمت الاشارة الى ذلك في ترجمة هذا الشيخ

وكانت له حروب مع الجزائريين آلت بانهزام جيشه ، ولما بلغه خبر الهزيمة هاله الامر فتهض رجال دولته كالوزير يوسف صاحب الطابع ومن تابعه من الوجوه كالهمام محمد الجلولي وهوتوا عليه الخطب وجزوا في الحين من اموالهم محالاً أخرى وخرجت تلك الاحمال لنظر وزيرهم المذكور في احتفال مشهود في أفخم شارة وأحسن زي والتقى بجيش الجزائريين وبعد قتال انتصر هذا الوزير واستولى على محلاتهم بما حوت من الذخائر والنقائس ورجع مؤيداً منصوراً غانماً في ربيع الأ نور سنة ١٢٢٢ وزينت البلاد وتوالت الافراح ومن ذلك اليوم نزعت البلاد أطوار مهانة الجزائريين ولبست ثياب العز وأصبحت رافلة في جلايب أمنها وهو الذي حكم المذهب المالكي في ثبوت الاهلة وكان يشق على المتعمقين من مقلديه تقليد المذهب الحنفي حتى كانوا يصومون ويفطرون سراً اذا لم يكن ثبوت ذلك على قواعد مذهبهم وهم للسواد الاعظم قال : كلهم على هدى من ربهم ورحمة وحسبنا تقليد امام دار الهجرة لا سيما وأهل مذهبه هم السواد الاعظم في المملكة فأمر القاضي المالكي بمباشرة ذلك ولم يزل العمل جارياً بذلك الى هذا العهد ، وله مآثر كثيرة كالابراج الضخمة والقشل الكثيرة داخل الحاضرة وخارجها والسوق القريب من سوق التركي ، وقصره المطل عليه البالغ الغاية في الاحتفال وهو من أنخم الآثار يباهى به في الاقطار ، وكانت له أساطيل لنكاية العدو في غاية المنعة وبالجملة فان هذا الامير تصرف في المملكة تصرف الاب الشفوق على أبنائه ، وأجبا لهاذ كراً وفك لها أسراً . وتوفي على السكب عظيم الجاه بعيد الصيت في ليلة الجمعة مفتتح شوال سنة ١٢٢٩ وفي يوم الجمعة الموافق ليوم المولد النبوي من السنة أقيمت صلاة الجمعة بجامع الحلقاوين الذي أنشأه وزيره أبو الخيرات يوسف صاحب الطابع وحضر هذا الامير الصلاة به في وجوه دولته وكان يوماً مشهوداً ووضع به أربع خزائن من نقائس الكتب العلمية في يوم كان جامع الزيتونة لا كتب به وأوقف عليه وعلى المدرسة المؤسسة حذو هذا الجامع أوقافاً طائلة وله غير ذلك من الآثار الخالدة والمراقق الجليلة والسبل النافعة والصدقات الجارية مع ما اشتهر به من محبة العلماء والصالحين ومات شهيداً في خبر طويل في صفر سنة ١٢٣٥ على عهد المولى محمود باي الآتي ذكره وفي ليلة العيد التي مات فيها المولى حمودة تمت البيعة لآخيه عثمان باتفاق من أهل الحل والعقد وكانت أيامه على قصرها أيام خصب ورخاء واستشهد بعد خلعه ليلة عاشوراء سنة ١٢٣٥ وبويع لابن عمه الامير محمود باشا ابن المولى الباشا محمد ابن المولى حسين بن علي صبيحة الليلة المذكورة وبأشر الامر برفق وامنت في أيامه السبل ودانت لطاعته القلوب وكان مفضلاً ذا حلم وحنان محمود الاخلاق طيب الاعراق محملاً مشتهراً بالكرم وفعل الخير الا ان الامارة وافته على كبر سن مع المرض فمال للراحة وفوض الامر لابنيه . ومن آثاره البيت الذي أنشأه بقصر باردو الذي لم يسبق نظيره في البلاد جعل سقفه

من البلور المعقود بالصفائح المذهبة باتقان بديع وأبس حيطانه الرخام المنمق المروثق على أبتغ شكل وأجل منظر وأنفق الاموال العظيمة في جلب الاقوات الكافية لسد خلة المملكة في مجاعة عام ست وثلاثين وذلك عقب الطاعون الفتاك الذي دام أكثر من عامين . وكانت مدته في أمن وسرور الى أن توفي في رجب سنة ١٢٣٩ بعد أن عهد بالامارة لابنه المولى حسين باشا وتمت له البيعة بعد وفاة والده وقام بالامر أحسن قيام . ومن الحوادث التي كانت في أيامه امداد الحضرة السلطانية بالعساكر والميرة . اعانة على قتال العدو المحارب لها . ومنها عقد صلح مع دولة الصارو بعد وقوع الوحشة . وفي محرم سنة ١٢٤٦ استولت فرانس على الجزائر ثم على باقي الثغور شيئاً فشيئاً وقدم بعض أهلها لحضرة فوسع لهم الكنف وأحلهم على الغبطة والامان وفي سنة ١٢٤٧ رتب الجند النظامي وأحكم أساسه ورتب قوانينه وابتنى لسكناه قشلة المراض وهي من المباني الضخمة ، وفي السنة وافته الخلة للنظامية السلطانية وكان لباسه لها في يوم مشهود ومحل عظيم وهو المجدد لرباط المنستير وفي أيامه وقع مسك الغيث وجزع الناس من ذلك وطاشت أفكارهم ولما رأى هذا الامير شدة الحال أمر العلماء بقراءة صحيح البخاري بجامع الزيتونة فاجتمعوا وفرقوا اسفاره في جماعتهم وختموه في يوم واحد وهو أول من سن هاته السنة وجرى العمل الى هذا الوقت بقراءته على نحو ما ذكر عند الشدة . وكان شهياً هماماً وقوراً محباً لمعالي الامور محافظاً على شارات الملك كريم النفس لطيف الاخلاق شجاعاً كثير العطايا أمنت في دولته العباد والبلاد توفي في محرم سنة ١٢٥١

تنبيهات

الاول : كان في عهد الامير المولى محمود باشا المذكور طاعون جارف دام أكثر من عامين مات فيه في بعض الايام آلاف ثم أعقبته مجاعة . وللدول في شأن الطاعون قوانين جرى بها العمل براً وبحراً لاتخاذ ما يلزم لقطع عدواه على زعمهم وتعرف بالكرتينة ووقعت محاورة في شأن ذلك بين أبي عبد الله محمد المناعي المذكور بهاته الطبقة وبين العلامة الهام العمدة الامام محمد بيرم شيخ الاسلام الثاني فهو يقول بالجواز والمناعي يقول بلنع واللف كل رسالة حافلة في الاستدلال على رأيه بالنصوص القهية . والحاصل في ذلك أن العلماء افرقوا في هذا الطاعون الى قسمين : قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز منها « فر من المجذوم فرارك من الاسد » مع دليل التجربة فان غالب من تحفظ حفظه الله مع اعتقاد أن المؤثر هو الفاعل المختار وكان هذا ينظر الى رأى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه والى هذا مال شيخ الاسلام . ومنهم من لا يرى هذا الاحتفاظ وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز كقوله « لا عدوى » ويرى التسليم الى ما جاء في القدر . ومن

القدر لا يغني الحذر . وهذا رأى سيدنا أبي عبيدة رضى الله عنه واليه مال المناعى . وهاته
المحاورة أشار اليها الشيخ رفاعه الطهطاوى فى صدر رحلته وتعرض للمسألة مؤلف الاستقصا فى
استقصائه ومال الى المنع ، كما تعرض لها الشيخ محمد السنوسى فى استطلاعاته . والشيخ رفاعه
المذكور اجتمع به الشيخ أحمد بن أبى الضياف فى باريز سنة ١٢٦٣ حين توجه لها مع الامير
أحمد باشا باى

الثانى : وقعت محاورة أيضاً بين هذين الشيخين فى كروية الارض وبسطها فالبسط للمناعى
والكروية لخصمه ورجح بأدلة ذكرها ، وهذا الخلاف مبسوط فى روح المعانى عند قوله عز
ذكره « وهو الذى مده الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا » وقد مال الكثير من
المتأخرين الى الكروية ومنهم الشيخ محمد الكنتاوى بأرض أزوات بالمغرب من بلاد تنبكتو
وكان من أعلام العلماء الأئمة الفضلاء ، ألف مختصراً فى فقه مالك ضاهى به مختصر خليل وألفية
ضاهى بها ألفية ابن مالك ، وله مصنفات فى كثير من العلوم الظاهرية والباطنية وله أورد
وأحزاب كأحزاب الامام الشاذلى . مات سنة ١٢٢٩ وخلفه حفيده المسمى باسمه

الثالث : اعلم أنه كان للامراء الدايات نفوذ عظيم ولبعضهم آثار مجيدة خالدة من أوائل
المائة بعد الالف الى أواخرها وتقدم ذكر بعضهم ثم انحط نفوذهم ، واليك أسماءهم على نسق
تتبعها للفائدة ناقلاً ذلك من كتاب نخط الامام شيخ الاسلام بىرم الرابع ونصه ببعض
تصرف : هذا ترتيب الدايات من حين الفتح العثمانى . اعلم أن ذلك الفتح لست مضين من
جمادى الاولى سنة ٩٨١ على يد سنان باشا وعند ما أجمع على العود الى الروم رتب بالبلد أربعة
آلاف من العسكر وانتخب منهم أربعين رجلاً وجعل نظر كل مائة الى واحد من الاربعين
واستمر الأمر على ذلك الترتيب الى سنة ٩٩٩ وقد ظهر من أولئك الاربعين جور عظيم فثار
عليهم الجند ووقعت مقتلة عظيمة ثم حصل الاتفاق على تقديم واحد يتولى الأمر ويلقب بالداى
فأول من ولى ذلك ابراهيم داى رودسلى فمكث نحو الخمس سنين ثم سار الى الحج وعاش الى
ما بعد الستين وألف . وولى بعده موسى سنة ١٠٠٩ فمكث سنة وذهب للحج فأرسل العسكر
اليه أن لا يعود وقولى عثمان دايا بعده وعلى عهده كان قدوم الامم الجالية من الاندلس وذلك فى سنة
١٠١٧ وهو أول من انفرد بالكلمة من الدايات ، ومن مآثره قنطرة على طريق بنزرت وتوفى
سنة ١٠١٩ . وتولى بعده يوسف دايا ومآثره شهيرة توفى فى ٢٣ رجب سنة ١٠٤٩ . وتولى بعده
أسطى مراد وهو من الاعلاج وله مآثر شهيرة فى البحر إذ كان من رؤسائه وهو المحدث لمرسى
غار الملح لحصار قليبته وتوفى سنة ١٠٥٠ ، وتولى بعده أحمد خوجه وكان قبل ولايته رئيس
خوجات الديوان ومن مآثره البرج الثانى بخلق الوادى وتوفى سنة ١٠٥٧ وهو صاحب التربة
أمام مسجد سيدى على بن زياد ، وتولى بعده الحاج محمد لاز ، ومن مآثره قنطرة قرب الشيخ

أبي حميدة على طريق القيروان ، توفي في ١٣ شوال سنة ١٠٦٣ وهو صاحب التربة بالقصبة الشهيرة بتربة لاز ، وتولى بعده الحاج مصطفى لاز وفي أيامه هجم الإنكليز على غار الملح وأحرق مراكب كانت بها ثم وقع صلح معه وبسبب ذلك بنيت أبراج به وجابية ، ومن مآثره المسجد المعروف بمسجد لاز وتوفي في ١٠ ذى الحجة سنة ١٠٧٥ . وتولى بعده الحاج مصطفى قركوز وكان ظلوما وعزل لخلل بعقله في ذى القعدة سنة ١٠٧٦ ودفن داخل القصبة خوفاً عليه من أولياء الذين قتلهم أن يخرجوه من قبره . وتولى بعده الحاج محمد أغلي وهو محبس الكتب على مفتي الحنفية وعزل سنة ١٠٨٥ ، وتولى بعده الحاج شعبان خوجه وقيل ولايته كان رئيس خوجات الديوان وعزل في ذى الحجة سنة ١٠٨٣ وتوفي بزغوان وجيء به ودفن بتربة المقابلة لمسجد الطراز . وتولى بعده الحاج محمد منتشالي ووقع خلعه بعد أحد عشر شهراً وأرسل لزغوان وبها توفي وجيء به ودفن بدير بيته المشهورة . وتولى بعده الحاج علي لاز ووقعت بينه وبين الأمير مراد ابن حموده باشا فتنة عظيمة تعرف بواقعة الملايين فكانت الغلبة لمراد وقتل الداي في منتصف صفر سنة ١٠٨٤ فكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومن ذلك التاريخ استقل مراد باي وصار الداي يولي من قبل الباي ، فولى مراد دايا الحاج مامي المعروف بالجل وهو صاحب التربة بزقة الخمسة بسيدي القبة وعزل في فتنة الاميرين الاخوين محمد وعلي ابني مراد في أواخر ذى الحجة سنة ١٠٨٨ . وتولى بعده الحاج محمد بشارة وكان رئيس خوجات الديوان وبعد ثلاثة أشهر عزل وأعيد الحاج مامي الجل فمكث أياماً واضطربت عليه الاحوال وتكررت غلبة كل من الاخوين محمد وعلي وتعاقب العزل والنصب فلم الحاج مامي والتجأ الى زاوية للشيخ بلغيث القشاش وأخرج منها بصورة أمان وسير به الى علي باي بنواحي الكاف وكان ذلك آخر العهد به ، وتولى أوزن أحمد وبعد ثلاثة أيام ظهر أن علياً باي نصب دايا من جملة المسكر الذين معه بالمحلة وهو محمد المعروف بطباق ، كان قبل ولايته من رؤساء البحر فلما سمع به أوزن أحمد خلع نفسه وذلك سنة ١٠٨٨ ثم عزل علي باي محمد طباق سنة ١٠٩٣ وقتله خنقاً وولى أحمد شلي في شوال سنة ١٠٩٣ فسار أولاً برفق ثم رام الاستبداد بالأمر لما رأى من الفتن بين الاخوين واذ ذاك اصطالح الاخوان وظهرت بينهما وبين الداي محاربات فكانت الغلبة له فاستنجد الاخوان بالجزائريين وهو أول استنجد وقع من ملوك تونس بهم فحاصروا الداي المذكور بتونس مدة تقرب من سنة الى أن وقع فراره ثم امساكه وحبسه ثم قتله في رجب سنة ١٠٩٧ خنقاً وفي اليوم قتل الامير علي باي وتولى دايا الحاج بقتاش خوجة وكان رئيس خوجات الديوان وهو صاحب التربة المجاورة للسلسلة ببطحاء القصبة ، وبعد مدة من ولايته قدم عليه وظيف الباشالك من جناب السلطنة فجمع بينه وبين الداي لك وبقى علي ذلك الى أن توفي سنة ١١٠٥ وتولى حفيده علي دايا وسار سيرة حسنة وبقى عليها الى أن وقع قتال بين الجزائريين

وبين محمد باي ببخيرة الكاف كانت الهزيمة عليه وذلك في ٥ ذي القعدة سنة ١١٠٥ وفر الامير الى تونس فوجد الداي المذكور ركب البحر فاراً الى الروم وتولى مكانه ابراهيم خوجه وأعاد الجزائريون محاربة محمد باي وحاصروه بتونس حتى فر منها وتولى صهره محمد بن شكر الامارة وعزل الداي المذكور وولى مكانه الحاج محمود فكث ثلاثة عشر يوماً وعزل وولى مكانه محمد طاطار فكث خمسة أشهر وتغلب محمد باي على ابن شكر وقتل طاطارا وولى مكانه يعقوب وكان قد طعن في السن فعزله وولى مكانه محمد خوجه رئيس خوجات الديوان وكانت ولايته في ربيع الاول سنة ١١٠٧ وعزله مراد المعروف ببوبله في رمضان سنة ١١١٠ وولى محمد آغا الصبايحية ثم عزله في ربيع الاول سنة ١١١٢ وولى مكانه محمد قهواجي وعزله ابراهيم الشريف سنة ١١١٤ وولى مكانه قره مصطفى وهو صاحب التربة أمام دار اسماعيل كاهية بمحومة يوسف داي ، ثم عزله ولقب نفسه بالوالي . ولما ولى الامير حسين ابن علي في ٢٧ ربيع الاول سنة ١١١٧ ولى مكانه صاري محمد خوجه وهو المعروف بالازعر فوقت بينه وبين الامير حسين بن علي مخالفة أفضت الى قيام العسكر على الداي وعزله وقتله وذلك في ١٧ رمضان سنة ١١١٧ ، فولى مكانه قره مصطفى المذكور وتوفي في تلك السنة بعده الحاج علي سافر وهو صاحب الدار الكائنة برأس الشبارلية وقد أخبرني الجد انه كان قبل الولاية اماماً للأمر حسين بن علي حتى انه كان يلبس وهو داي فرجية الفقهاء أحياناً وتولى بعده الحاج محمود في سنة ١١٥٣ وبعده الحاج علي سنة ١١٥٤ وبعده عمر ولم تطل مدته وبعده محمود وتوفي أواخر صفر سنة ١١٥٦ وبعده حيدر خوجه وبعده الحاج عبيد الله وبعده علي سنة ١١٦٦ وتوفي سنة ١١٦٨ ودفن بالجلال امام تربة القلاشنة وبعده علي كردغلي ووقعت وقعة الجزائريين التي قتل فيها علي باشا وعزله محمد بن حسين باي وولى مكانه الحاج حسين المورالي وتوفي سنة ١١٧٣ ودفن بتربة بمحانت عاشور وولى بعده الحاج حسين قاره دنغزلي وهو والد الشيخ ابراهيم الشهير بولد لاغه المشهود له بالولاية ومدفنه ومدفن ابنه بالتربة قرب السبابطية وبعده مصطفى الشهير بالزغواني وبعده حسين بن محمد وتوفي سنة ١١٩٦ وبعده ابراهيم بوشناق سنة ١١٩٩ ثم عزل سنة ١٢٢٥ وبعده احمد البوندي وعزل في محرم سنة ١٢٣٧ وتوفي بعد عزله بثلاثة أيام ودفن بتربة بمحانت عاشور وبعده فيض الله وكان قبل ولايته آغا بيت المال وتوفي بعد عزله في شعبان سنة ١٢٣٨ ودفن بتربة ابراهيم بوشناق وبعده عمر بن محمد وتوفي سنة ١٢٤٧ ودفن بتربة الحجار وبعده حسن وتوفي فجأة في ربيع الثاني سنة ١٢٤٨ ودفن مع الداي قبله وبعده مصطفى وعزل في جمادى الثانية سنة ١٢٥٨ وبعده احمد آغه . انتهى . وقد أتى علي ذكرهم صاحب الخلاصة النقية انظره

تأنيده

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء حمودة بن عبد العزيز وصالح الكواش وعمر المحجوب وأخوه محمد ومحمود مقديش وحسن الشريف ومحمد المناعي واسماعيل التميمي

الطبقة السادسة والعشرون

لما توفي المولى الامير حسين باشا تمت البيعة لاخته المولى مصطفى باشا فابتدأ الامر من حيث انتهى أخوه وأقر رجال الدولة على مراتبهم وكانت أيامه أيام سكون وهدوء وأمن وعافية وأعاد المجلس الشرعي الى عادته من الاجتماع بحضوره يوم الاحد من كل اسبوع . وكان ذا ذهن وقاد وفهم مصيب لما يرد عليه من التوازل . وهو أول من لبس النيشان من بني المولى حسين فواته من الدولة نيشان أمير أمراء في شعبان سنة ١٢٥١ ومعه سيف محلي ولبسها في يوم مشهود وهو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بحجر الدياتم وألبسه وزير الامور الخارجية . وفي شعبان سنة ١٢٥٢ استأذن الشيخ ابراهيم الريحى في السفر لبيت الله الحرام وأسعفه لذلك حسبما تقدمت الاشارة لذلك في ترجمة هذا الشيخ . وتوفي هذا الامير في عاشر رجب سنة ١٢٥٣ وفيه تمت البيعة لابنه المولى المشير أحمد باشا بى وبمجرد ما تمت له البيعة شرع في اعادة شباب الدولة وتضخيمها وباشر بنفسه دقيق أمور الدولة وعظيمها ومهد الاحوال وجند الجنود وجبى الاموال وخلص آثاراً ارتقى بها مرتقى شامخاً معلوماً باذخا وجمع من العسكر النظامى ما يزيد على الثلاثين ألفاً وبنى لهم القشل والابراج العظيمة وأسكنهم بها . وفي سنة ١٢٥٤ أرسلت له الدولة العملى الخلعة السنية ونيشان المشيرية وذلك على عهد السلطان محمود خان فلقى لباس المشيرية في موكب مشهود ، وفي السنة جعل مرتباً لاهل المجلس الشرعى المالكى مثل المجلس الشرعى الحنفى وفي السنة توجه الشيخ ابراهيم الريحى لدار الخلافة في مهم وتقدمت الاشارة الى ذلك في ترجمة هذا الشيخ . وفي سنة ١٢٥٦ وجه عنايته للعلم الشريف واعانة طلابه بما بقى أثره وكتب على صفحات الايام خبره فاشترى كتباً كثيرة لها بال وأضاف لها كتب آله الموضوعه بمخزائن أسلافه وأمر شيوخ المجلس الشرعى والعلماء بالحضور بجامع الزيتونة لقبولها ولما وصلت تولى العلماء تطبيقها على أسمائها وجعل برنامج لها ثم وضعت في خزائنها العشرين زين بها صدر الجامع على يمين المحراب وشماله وكتب على كل مجلد منها رسم تحبيسه وأباح للمنتفع به اخراج الكتاب من موضعه مدة عام فقط ورتب لها وكيلين يأتى كل أحد منها الى الجامع على التناوب لمناولة الطلبة ما يحتاجونه وفي رمضان سنة ١٢٥٨ رتب ثلاثين

مدرساً بهذا الجامع نصفهم من الحنفية ونصفهم من المالكية وعين لهم جراية من بيت المال كما رتب اثني عشر مدرسا ست حنفية وست مالكية هم دون الرتبة الاولى في المرتب على أن يقرئ كل واحد منهم بالجامع درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر ومن تخلف من غير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلفه الا يومى الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين وجعل النظر في ذلك لشيخى الاسلام الحنفى والمالكي والقاضيين الحنفى والمالكي وعين لهم جراية من بيت المال بشرط أن يأتى كل واحد من الاربعة يوما الى الجامع لتحريض المتكاسل وكتب في ذلك منشورا بالذهب وعلقه عند باب الشفا من الجامع وميز هؤلاء المدرسين بأن يأتوا في الاعياد مجتمعين يؤمهم كبير أئمة الجامع ويقبلهم بعد أهل المجلس الشرعى ولم يزل يوجه اليهم العناية حتى ظهر العلم وتجدد شبابه ونال سيده وعبت عيابه وانفتح للاجتهد بابه وظهر بالحاضرة أعلام جلة نجوم أهلة من حنفية ومالكية هم شمس وبدور تتجمل بهم المحافل والصدور. وفي ذى القعدة سنة ١٢٦٢ توجه لباريس وكان الاحتفال به هناك عظيما ورجع لتونس في محرم سنة ١٢٦٣ وفي السنة بعدها منحت دولة فرنسا ادخال السلك البرقى للمملكة التونسية على شروط انقذت بينهم في ذلك ولما وقعت الدولة العثمانية في الحرب مع الروس جهزها آلافا من العسكر النظامى بجميع لوازمهم وجهها اعانة لخليفة الاسلام على عهد السلطان عبد الحميد خان. وهو أول من اتخذ من ملوك هاته الدولة عمل المولد النبوى باحياء ليلته والحضور لقراءته صباحا بجامع الزيتونة في شارة عظيمة وحفل نفيم وهو عمل مشكور وكان شها حازما ذا صولة عظيمة يعطى العطايا السنية ولم يزل في صولته ساعيا في تضخيم دولته الى أن أصابه فالج ثم وافته المنية في رمضان سنة ١٢٧٩ وانقذت البيعة بوفاة لابن عمه المولى المشير محمد ابن المولى حسين باشا ابن محمود باشا نشأ هذا في عز دولتى جده وأبيه. وفي ذى الحجة سنة ١٢٧٢ رجعت عساكر الجهاد الذين توجهوا لدار الخلافة الاسلامية فتلقاها بغاية البر والانعام والمبرة والاكرام وأسقط على الرعية الكثير من الاداآت والضرائب وساعده البخت بحصول الخصب العظيم الذى بعد العهد مثله واجتهد في تأمين الرعية في الحواضر والبوادي وحصل بذلك الاطمئنان واعتنى بالمجلس الشرعى فبنى دار الشريعة المطهرة وجعل الحكم فيها يوميا يحضر هناك القاضيان المالكي والحنفى ويحضر مع كل واحد منهما في كل يوم مفت من شيوخ مذهبه ويجتمع جميع أهل المجلس في كل يوم خميس وفتحته في الخامس عشر من ربيع الانور سنة ١٢٧٣ وهو الذى أمر بجلب ماء زغوان للحاضرة واقامة مجلس بلدى بها وبني بين قصور باردو قصرآ تحار دونه الالباب اى فيه من بدائع الابنية بالعجب العجاب وهو الآن خزينة الآثار العتيقة والتحف المستظرفة ويعرف بالمتحف العلوى وهو أول من ضرب سكة الذهب وكانت قبل مسكوكات الفضة والنحاس لاغير وفي محرم سنة ١٢٧٤ أصدر منشور عهد الامان لسائر السكان في حفظ النفس والمال والعرض وعم بذلك سائر أهل الملك وجمع أعيان العلماء ورجال الدولة للمفاوضة

في هذا العهد وفي سنة ١٢٧٦ صدر الاذن بتأسيس مطبعة لصحف الاخبار والكتب وكان
شها ثبنا حازما بجائنا على الرعية كثير العطايا سليم الطوية وتوفي في صفر سنة ١٢٧٦ وانعدت
البيعة بعده لآخيه المولى المشير محمد الصادق باشا باي وأعمل الحزم في انجاز مشروع أخيه بإتمام
القوانين التي أنبنى عليها عهد الامان وجمع خاصة العلماء والاعيان فاستكملوا وضعها وفي صفر
سنة ١٢٧٧ خرج من مملكته الى الجزائر حين قدم اليها امبراطور فرانس للاحكام علاقة
المجاورة بين المملكتين وأكرم الامبراطور نزله ولما رجع رتب المجالس لتنفيذ قانون عهد
الامان وفي السنة كان نشر جريدة الرائد وفي السنة بعدها وصل ماء زغوان للحاضرة وفي
سنة ١٢٨٠ رتب اعانة قدرها اثنان وسبعون ريالا على عموم الافراد وصدرت بذلك أوامره
وحين انتشر هذا الخبر بالمملكة لم يقع قبولها واختلف صنيع الاهالي فالعقلاء رفعوا الشكوى
طالبين التخفيف وغيرهم ولا سيما الاعراب وسكان الجبال تجاهاوا بالعداوة وأشهروا السلاح
وتعمدوا البغى والفساد في البلاد وزعيم هاته الطائفة على بن غزاهم أصله من ماجر واشتدت
بذلك وطأة الاضطرابات والاحن والمهرج والفتن وقامت المملكة على ساق حتى صارت دار حرب
وإذ ذلك صدر أمره بإيقاف العمل بقانون عهد الامان واسقاط اعانة الاثني والسبعين ريالا
وخرج الوزير رسم بمحلة في طلب رئيس البغاة على بن غزاهم ووقع القتال بين الفريقين وآل
الامر الى انهزام البغاة وفرار على بن غزاهم الى خارج حدود المملكة وخرج الوزير احمد
زروق الى الساحل بمحلة هو أميرها ووصل الساحل في جمادى الاولى من السنة واتصر على
البغاة وظفر بالرؤساء منهم الدهماني البوجي وقلمهم وقدم عليه وفود أهل الساحل منقادين
نادمين من جلتهم وفود المنستير يؤمهم العلماء أهل المجلس الشرعي قابلهم بشدة وحكم
الاغلال في أعناقهم وأرجلهم وأولم رئيس المجلس الشرعي الشيخ أبو عبد الله محمد الجدي
بوزقرو وشدت تنكيه وأمر بإزالة عمامته في ذلك المجلس بلفظ مستهجن ووفد صفاقس قابلهم
بأقل من مقابلة أهل المنستير ورئيسهم الشيخ عبد العزيز الفرائي وسجنهم في جملة من سجن
وحكم يد النهب في الاموال وتفنن في سلبها حتى بلغ السكين العظم والسيل الربا فكانه مأمور
بإيقاد فتنة من جمر مادها وأغرهمهم أموالا أفنت الطارف والتالد ورهنوا أملاكهم عند
الوافدين على المملكة وعند طائفة من اليهود وأصبحت بلاد الساحل خاوية على عروشها
وذهب هذا الصقع الذي هو عمران هاته المملكة كأس الدابر ولم يبق به إلا من هو منقل
بالديون ويده طارغة من الكسب ثم ذهب بحملته لصفاقس وقابس ثم رجع لتونس بعد استيفاء
ما أفنى اللحم والشحم وانتهى الى العظم والشيخ مصطفى بن عزوز المذكور بهذه الطبقة يد في
اطفاء هاته الثورة بتوسطه بين الدولة وابن غزاهم المذكور وازدادت المصائب وتكررت النوائب
في سنة ١٢٨٤ والسنة بعدها بحصول المجاعة التي بعد العهد يمثلها والمرض الذي أفتك بكثير من
الاهالي حتى صار وبائياً ولم يستقم حال البلاد والعباد الا بعد عشرات من السنين وهاته الاسباب

صارت مالية الدولة في خطر من الديون التي تراكت عليها وتداركها بتركيب لجنة تعرف بالكسيون المالى رئيسها الوزير خير الدين وذلك سنة ١٢٨٦ وفى سنة ١٢٨٤ أمر بصنع نيشان عهد الامان وفى سنة ١٢٨٧ قسم ادارة الدولة الى اقسام وهى الوزارة الكبرى ووزارة المال ووزارة العمالة ووزارة الخارجية ولها النظر على الحرب وفى سنة ١٢٨٨ وجهت له الدولة العلية بواسطة الوزارة الخيرية فرمانها العالى مع سيف مرصع ونيشان مجيدى وفى سنة ١٢٨٩ أذن بمجلس النظافة يجرى عمله على مقتضى قانون ذى فصول وفى السنة بعدها أقام مجلسا للصحة يجرى عمله على مقتضى قانون ذى فصول وفى سنة ١٢٩١ جعل قشلة المطارين سجنا وجعل له حفظة لتنظيفه وأجرى عليه مؤنة كافية وجعل لذلك قانونا خاصا وفيها جعل قانونا للفلاحة وفيها أضاف الى خزائن جامع الزيتونة ست خزائن وملاها بالكتب النفيسة وأجراها على قانون المشير احمد باشا وصار به أكثر من عشرة آلاف مجلد وفى السنة أحدث مكتبا عاما أوقف عليه أوقافا لها بال وسمى بالصادقية وأجرى على نظام المكاتب الحديثة لتعليم أبناء الاهالى العلوم الدينية واللغات الاجنبية والمعارف الاروية وجعل لذلك قانونا اجتمع على ترتيبه أعيان علماء العصر مشتمل على فصول وأجرى به مايلزم للتلامذة من أكل وكسوة وفراش وفيها أصدر قانونا مؤلفا من متين فصلا لتنظيم ديوان الشريعة المطهرة اجتمع على تأليفه شيوخ المجلس الشرعى وبه تعينت مراسم خطة القضاء والافتاء بالحاضرة وبلدان المملكة والاعمال التي يجرى عليها عمل الوكلاء والاعوان والخصماء وفيها وضع قانونا لضبط حجج الاشهاد في دقاتر خاصة يجرى عليها عمل شهود المملكة وفى السنة أذن بجمع أوقاف المملكة لنظارة جمعية بالحاضرة تجعل من تحت نظرها وتصرفها وكلاء يقومون بلوازم شعائر الاوقاف وما يفضل من ذلك يدخل في خزينة الجمعية تدفع منه مرتبات مشايخ المجالس الشرعية والقضاة بالمملكة وعملها يجرى على مقتضى قانون مؤلف من فصول . وفى السنة كان اجراء النور الكهربائى بالحاضرة ولما رأى النقص الحاصل في مداخيل الدولة والفتور الحاصل في العلم أمر بجمع المدرسين وشيوخ المجلس الشرعى بجامع الزيتونة واستنهض همتهم العلمية وزاد لهم في الجراية وذلك فى سنة ١٢٨٧ ثم فى ١٢٩٢ استدرك ذلك بقانون علمى يؤلف من ٦٧ فصلا اجتمع على تأليفه أعيان علماء العصر وجعل النظارة العلية لنظر حسين الجركسى وزير الاستشارة والمعارف والنافعة وجعل للنظارة العلية نائبين عنه من أعيان المدرسين يباشران النظر على أعمال الجامع كل يوم وعن الامتحان العام لسائر طبقات التلامذة للحصول على شهادة فى ماى من كل سنة ومن أحرز بعد الامتحان على رتبة التطويع وهى رتبة تؤهل صاحبها لاقراء العلوم تطوعا بجامع الزيتونة بعد استصداره اذنا من شيوخ النظارة العلية وهم شيخا الاسلام والقاضيان الحنفى والمالكي وتحويل صاحبها تعاطى الشهادة بعد الحصول على أمر على من أمير البلاد وبذلك تكاثرت الدروس والمدرسون وأقبل الطلبة على العلم والمدرسون الذين لم جرايات والمتطوعون على التعليم وهى مزية فاخرة له خالدة

وحاصل ما قدمناه في شأن العلم والعلماء أن جامع الزيتونة أدام الله عمرانه هو الكلية الوحيدة بافريقية والسكبة التي يؤمها طلبة العلم من الجهات ومنها يتخرج الفحول من العلماء والمدرسون به هم الذين يبثون في الأمة روح الشرع العزيز وقواعد الدين الحنيف والتمكين من اللغة العربية الفصيحة التي أصلها مكين وموردها عذب معين^(١). وفي السنة وقع احياها المكتبة المعروفة بالعبدية نسبة لابي عبد الله الحفصي التي بصحن الجنائز من الجامع المذكور وضع فيها ما يزيد على الثلاثة آلاف مجلد من نفائس الكتب منظمة على أسلوب عجيب وترتيب غريب حتى ان الراغب للكتاب يتناولها ويطالعها أو ينسخه بأيسر وجه وحصل بذلك نفع عظيم للطلبة لاسيما الغرباء وجعل لها ثلاثة قيمين تستمر اقامتهم سائر اليوم على التناوب وأجرى عليهم الجرايات الكافية وجعل لذلك قانوناً به ستة عشر فصلاً. وفي السنة وصل بين الملك التونسي وسائر ممالك الدنيا بسلك البرق الذي يبلغ به الخبر في طرفة عين ومد سكة الحديد بين تونس وحلق الوادي وباردوشم من تونس الى أطراف الحدود الغربية. وفيها كانت الدولة العلية في حرب مع روسيا فوجهت اليها اعانة بالمال وغيره لها بال. وفيها وقع تحرير قانون في خدمة العمال وقانون للمتعينين للاعراب وغيرهم تجرى عليه ادارة خدمة العمال ومقدار ما يأخذه المتعينون من المجرمين. وفي سنة ١٢٩٦ وقع منه زيادة الاهتمام بحفظ الصحة فعين قشلة البشامقية مستشفى وأقام بها أطباء ومرافق وتحسينات وعين له ما يلزم لاقامة شئونه من أوقاف صاحبة الخيرات الرفيعة الشأن والمكانة عزيزة عثمانه فجاء على أحسن نظام وأكمل احكام على مقتضى قانون ذي فصول ٤١ وهو المعروف بالمستشفى الصادق. وفي السنة صدر الاذن باقامة مجلس شوري تحت رئاسة الوزير الاكبر للنظر في مهمات الدولة الداخلية والخارجية وهاته التأسيسات خلدت له جميل الذكر وغالبها كان بسعي من الوزير السياسي الخطير أبي الخيرات خير الدين^(٢)

(١) انظر أواخر المدخل

(٢) قوله خير الدين هو خير الدين باشا التونسي كان عظيم القدر والشأن من أعيان الوزراء ورجال الكمال أصله شركسي وتقرب من المشير أحمد باشا قدمه واستخلصه لخدمته وأعانه على اتمام دروسه فأقن العلوم الدينية واللغات التركية والفارسية والعربية وتقلب في المناصب السامية عسكرية وسياسية زمن هذا المشير ومن جاء بعده وانتدب لمهمات سياسية في فرنسا وتقلد وزارة الحربية فأحسن تنظيمها ثم حدث ما بعثه على اعتزال الاعمال السياسية والعكوف على التأليف ولم تستغن الحكومة عن رأيه وفعله في المهام الهامة وأخيراً تقلد الوزارة الكبرى وبلغ أهل الاستانة شهرته فاستقدمه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٨ وولاه الصدارة العظمى والدولة في غاية الاضطراب فوضع التقارير الاصلاحية فلم يتفق عمله مع رجال الحكومة فاستقال سنة ١٨٧٩ وهي عضواً في مجلس الاعيان وبقي في الاستانة حتى توفي سنة ١٨٩٠. مولده سنة ١٨١٠ وله في تونس مآثر خالدة

مؤلف كتاب أقوم المسالك في أحوال الممالك ومن مآثره مبانيه البالغة في الرونق الغاية وفي الاتقان والاحتفال النهاية منها زاوية الشيخ أبي محفوظ محرز سنة ١٢٧٩ و زاوية الشيخ ابراهيم الرياحي سنة ١٢٩٠ وقصره المعروف بقصر السعيد بباردو عديم النظير بهذا القطر وقد باشر الحكم بنفسه بانصاف وكان محباً للعلماء والاولياء وتعميم الاشراف وفي سنة ١٢٩٨ احتلت دولة فرانس المملوكة ونصبت حمايتها عليها بمقتضى معاهدة انعقدت بباردو وكانت وفاة هذا الامير سنة ١٢٩٩

تذنيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء محمد البحري والسنومى وابن سلامة و ابراهيم الرياحي ومحمد النيفر وأخوه صالح والطاهر بن عاشور وابن ملوكة ومحمد البنا وأحمد الغمارى وابن أبى الضياف وعلى العفيف

الطبقة السابعة والعشرون

لما توفي المشير محمد الصادق باى بويغ لآخيه المولى أبى الحسن على باشا باى فى ذى الحجة سنة ١٢٩٩ وكان من أفاضل أمراء هاته الدولة محط الرحال ومنبع صالح الاعمال عارفاً برجال دولته مظلماً على أحوال مملكته محباً للعلماء والصلحاء كريم الاخلاق مساعداً على احداث كثير من الادارات على النظام المعهود الآن وكذلك من أتى بعده . وعلى عهده أسست المدرسة الخلدونية وشحنت بعدد غير قليل من نفائس الكتب فى فنون من العلوم الدينية والعصرية . وعلى عهده كان تجديد منارة جامع الزيتونة فجاءت على أبداع شكل وأجل منظر وكان الاحتفال عند انتهاء البناء فى ٢٦ رمضان سنة ١٣١٢ حضره هذا الامير وآل بيته والخاصة والجمهور وأرخها شيخنا أبو النجاسالم بوحاجب وكتب ذلك على جدرانها فى قصيدة أولها :

نال فوزاً ناه كل ساع كى يرى شمول فضل ذى اتساع
فى بيوت أذن الله بأن ترفع الاركان فيها ليطاع

ومنها فى مدح هذا الامير :

ثم فى أيام مولانا الذى ملأت غرّ مزايده الرقاع
حضرة الباشا على من له فى قلوب الخلق للود ازدراع

ومنها بيت التاريخ :

ولسان الصديق قد أرخه لمنار الدين حق الارتفاع

قيل ان هذا الجامع لا يخلو من رجل موصوف، بعلم ظاهر أو شرف زاهر أو صلاح باهر ولهذا
 الامير تأليف سماه مناهج التعريف بأصول التكليف وتوفى في ربيع الاول سنة ١٣٢٠ وبويع
 لابنه المولى محمد الهادي باشا باي وكان شهاماً على الهمة كريم الاخلاق ذكياً ميالاً للعدل
 ومحبة العلماء وعلى عهده كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية للولاية التونسية المفخيم مسيو
 لوبي في ابريل سنة ١٩٠٣ الموافق لأوائل سنة ١٣٢١ وأقام ثلاثة أيام كانت مواسم بواسم ورد
 له هذا الامير الزيارة في صائفة العام التالي وما حصل لهذين الزائرين جمع في مجلد وتوفى في
 ربيع الانور سنة ١٣٢٤ وارتقى كرسى المملكة الامير المحبوب المولى محمد الناصر باشا باي ابن
 المشير محمد باشا باي وعلى عهده في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٨ صدر منشور من الشيخ القاضي المالكي
 محمد القصار لقضاة الجهات بثبوت الاهلة على طريق سلك البرق وجرى به العمل وهذا المنشور
 خلد له جميل الذكر وفي سنة ١٣٢٩ كانت الدولة العلية في حرب مع ايطاليا في طرابلس وانتهت
 باحتلالها لها في الولاية وفي السنة بسطت دولة فرانس حمايتها على المغرب الاقصى وفيها كانت
 زيارة فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو فليار للمملكة التونسية فقبل بالتبجيل والتكريم
 وللعالم المؤرخ محمد ابن الشيخ الا كتب البشير بن الخوجة تأليف حافل في هاته الرحلة في مجلد
 سماه الرحلة الفليارية وزار في اثنتاها بعض المدن والمتلوى من عمل قفصة الذي به الفسفاط وهو
 عبارة عن طبقة من الارض مادتها ترابية صالحة لتسميد الغروس والمزروعات وهي من الكنوز
 التي حصلت بها ثروة عظيمة لهاته المملكة قال بعضهم هذا كزلايفنى وثروة لا تبلى واست
 لها شركة أسست سككا حديدية رابطة بصفاقس وغيرها. وفي سنة ١٣٤٠ هـ الموافق ١٩٢٢ م
 كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لافريقية الشمالية وهي عبارة عن المغرب الاقصى
 والجزائر والمملكة التونسية فقام بهاته الرحلة أعظم عطاء هاته الجمهورية مسيو ميلران ابتداءها
 من الدار البيضاء مرسى مدينة على البحر المحيط وأنهاها بجزيرة الغربية من الحدود الطرابلسية في
 أبهة وحفل عظيم ساقط المقادير هذا الرئيس الخطير لهاته الجهات التي منظرها جميل زاهر
 وعمرانها في تزايد باهر حافظة كالعروس آهلة بنحو الثلاثة عشر مليوناً من النفوس ووصل
 القطر التونسي الذي لا يقل سكانه عن المليونين في غرة رمضان الموافق للرابع والعشرين
 من ابريل سنة ١٣٤٠ هـ الموافق ١٩٢٢ م ولقى من الاقبال فوق ما يقال. وما حصل له في
 هاته الرحلة لو تتبع للأجلاً ضحاً. وفي يوم الاثنين السادس عشر من ذي القعدة وفي
 ١٠ يولية من السنة انتقل الى رحمة الله هذا الأمير المحبوب فكان انتقاله روح الله روحه
 من أعظم الرزايا وأشدّ البلايا، كان كريم الاخلاق والسجايا، سخياً كثير العطايا، عادلاً محباً
 الرعايا، سائلاً عن أحوالهم ميالاً لاجابة مطالبهم وسماع أقوالهم. محباً لدولة فرنسا، وهو أول
 مساعد لها ومعاضد على تجنيد العساكر التونسية لاحتلالها المغرب الاقصى وخصوصاً في الحرب

الكبرى فانه عاضدها بما عنده من النفس والنفيس ووقع الاعتراف له بهذا الفضل . نقلت جريدة الزهرة في عددها ٦٤٨٦ المؤرخ في التاسع عشر من ذى القعدة المذكور ما نصه : ورد في رسالة برقية من باريس أن صحف العاصمة الفرنسية برزت طافحة بالثناء على حضرة سيدنا محمد الناصر باي الذي كان معيناً صادقاً لفرنسا في أصعب الظروف وأشدّها عليها ، وقد ذكرت جريدة الجورنال أن باريس كانت اقبلت الباي المتوفى بمزيد الحفاوة والانعطاف . ثم قالت : انه قام بوظيفته على غاية ما يرام ، حتى اذا جاءت ساعة الخطر العظيم نهضت المملكة التونسية جمعاء للدفاع عن فرنسا المتهددة فجهزت خمساً وستين الف مقاتل وثلاثين الف شغال وتكبيبت خسائر لا تقل عن خمس وأربعين الألف قتيل وجريح فهذه قائمة يمكن أن يفتخر بها قوم لا يكاد يبلغ عدد الرجال القادرين منهم على حمل السلاح ثلاثمائة الف . انتهى

وفي اليوم الموالي لوفاته كان الحفل بجنازته بالغاً للغاية ودفن بتربة أسلافه الكرام مأسوفاً عليه من الخاص والعام وفي عشية يوم الوفاة وقعت البيعة بقصر باردو المعمور بغاية من الاجلال والفرح والسرور لابن عمه الامير الجليل الحري بالتعظيم والتبجيل المولى الامير محمد الحبيب باشا باي ابن المأمون بن حسين باشا باي وهو حفظه الله من الامراء الذين يفتخر بهم أمراء هذا البيت مملوء الجراب بالمعارف والآداب ، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وقام بالامر على الوجه المطلوب ومالت لمحبه القلوب الا أن الامارة وافته على كبر سن مع مرض أنهك قواه واستمر على حاله الى ان توفاه الله صبحية يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ١٣٤٧ و بعد زوال اليوم جرى انعقاد البيعة في سراية باردو المعمورة في حفل عظيم وموكب فخيم لولى النعم المستجمع لمكارم الاخلاق والشيم المفكر الكثير الفضائل ، الامير المعظم والملك المنعم مولانا أحمد باشا الثاني ابن المولى الباشا على ابن المولى الباشا حسن ، وقد دبت وقتئذ حيا المسرة في الضمائر وجالت أفراس الافراح في ميادين الاكابر والاصاغر وقامت خطباء الاقلام تصدح بالبشار و صحف الجهات تعلق بالبشارات أجرى الله على يده الصالحات ثم تلقى الجناب العالي بيعة الوفود التي وردت اليه وأمانها معادة دولته ورفاهية مملكته في احتفالات فائقة وأنشبت بين يديه الخطب والقصائد الرائقة لوجعت لكانت مجللاً . رحم الله السلف ، وأدام دولة الخلف

تلمية

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء : أحمد الورتقاني والشاذلي بن صالح وأحمد الشاهد والطاهر النيفر وأخوه الطيب وعمهما محمد وحسين بن أحمد وعمر بن الشيخ ومحمد النجار وسالم بوحاجب والطيب النيفر

خلاصة

بها الادوار التي حصلت لدول افريقية

قد انتهى ما جمعه بهذه التتمة ومن وقف عليها علم الادوار التي حصلت في دول افريقية والاطوار. ان في ذلك لبرة لاولى الالباب والاعتبار. وخالصة ذلك وما وقع من الادوار هنالك هو ان افريقية يسكنها البر بمنذ عهد بعيد جداً ولم يحفظ لهم تاريخ على وجه التحقيق وفيهم من زعماء الرجال ما قد علم وتداولتها دول بعد دول والمعروف منهم (القرطاجنيون) ومنهم هنبال البطل الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز اليهم جبال البرنية بجيوش جرارة وجند كثيف ينازعهم في صميم بلادهم ويستنزل اقيالهم من منصات مجدهم فالرومان فالوندال فالروم البرنطيون فالاسلام

اول امير دخل افريقية عبد الله بن سعد بن ابي سرح البطل الجليل شهد فتح مصر واخطب بها وكان صاحب الميمنة في الحرب مع عمرو بن العاص وكانت له مواقف محموددة وكانت ولايته سنة ٢٥ بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضى الله عنه وفتح افريقية سنة ٢٧ وهى من اعظم الفتوح. ثم معاوية بن خديج ثم عقبة بن نافع ثم مسلمة بن مخلد وهو احد الرجال الاربعة الذين قال فيهم الخليفة الثانى سيدنا عمر: مقامه من الرجال مقام الالف، الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم. وهو اول من جمعت له امارة مصر وافريقية وبعث مولاه ابا المهاجر لافريقية عوض عقبة المذكور ثم رجوع عقبة ثم زهير بن قيس البلوى بعهد من عبد الملك بن مروان الخليفة العظيم الذى استقصى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمانينة ثم حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين دوخا بممالك هنبال القديمة في افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثني عشر الف مقاتل مضيق القارة الاوروبية ففتحها مملكة الاندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار. ثم محمد بن يزيد ثم اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر ثم يزيد بن ابي مسلم ثم بشر بن صفوان ثم عبدة بن عبد الرحمن ثم عبد الله بن الحبحاب ثم كلثوم بن عياض ثم حنظلة بن صفوان ثم تغلب على افريقية عبد الرحمن بن حبيب ثم محمد بن الاشعث ثم الاغلب بن سالم ثم المهالبة ثم هرثمة بن أعين ثم محمد بن مقاتل ثم الاغلبة ثم العبيديون ثم الصنهاجيون ثم الحفصيون ثم الاسبان ثم الترك وهم دايات وبشوات وبايات منهم آل بيت مراد باشا ثم ابراهيم الشريف ثم حسين باشا بن على تركى باني البيت الحسينى واستمرت باقية في عقبه بعد وفاة ابن اخيه على باشا حتى الآن وعلى

دهد محمد الصادق باشا باى نصبت فرانساً حايته وتولى بعده أخوه على باشا باى ثم ابنه محمد الهادى باشا باى ثم محمد الناصر باشا باى ثم محمد الحبيب باشا باى ثم أحمد باشا باى الثانى أيدى الله بالسبع المئتين

فائدة

فى روح المعانى ما نصه : فى بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك مالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فان العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة وان هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعظفهم عليكم . انتهى . نقل ذلك عند قوله جل جلاله وعز كماله ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتقل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ﴾

صلة

اعلم أن فى الاسلام الكثير من عظماء الرجال والامراء اشتهر فى التاريخ ذكركم وعظم أترم كخالد بن الوليد فاتح العراق العربى وبعض الشام وأبى عبيدة بن الجراح فاتح الشام وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق المعجمى وهادم عرش الالكاسرة والاحنف بن قيس فاتح خراسان وعمر بن العاص فاتح مصر وعبد الله بن سعد فاتح أفريقية ومسلمة بن مخلد وموسى ابن نصير فاتح الاندلس واضرابهم فى كل جيل اذا علمت ذلك علمت مراتب الناس فى الدنيا بنسبة الاعمال وهى تتفاوت بتفاوت الرجال قرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير وآخر لا فى العير ولا فى النفير

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً الى الفضل حتى عد ألف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسمد الامة وآخر تهلك به الدولة وتشتق الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بافئاد من الرجال مشهورين كبرت نفوسهم أن تخلد الى الدنيا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى غايات الكمال فنالوا بذلك حياة لا تفتنى وغادروا فى الوجود آثاراً لن تزول . ولبعضهم آثار حسنة حتى الآن تقدم ذكرها منها جامع عقبه رضى الله عنه بالقبور وان

فى روح المعانى عند قوله عز من قائل : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى اجعل لنفسى ذكراً صادقاً فى جميع الامم الى يوم القيامة وحاصله خلد صيقي وذكري الجليل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسير المرضية لديه تعالى المستحسنة التى يقتدى بها الآخرون

ويذكرونه بسببها بالخير ثم قال واستدل الامام مالك بهذه الآية على أن لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا وقائدة ذلك بعد الموت على ما قال بعض الاجلة انصرف الهمم الى ما به يحصل له عند الله تعالى زلفى وأنه قد يصير سببا لا كتساب المثنى أو غيره نحو ما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا يخفى عليك أن الامور بمقاصدها انتهى . وأسأل الله العظيم أن يجعل على وعلى لوجه الكريم وينفعني به انه هو البر الرحيم

تذييه

اعلم ان ما جمعته بالشجرة اقتطفته من : (١) روح المعاني لابي الفضل محمود الالوسي و (٢) الموطأ للامام مالك و (٣) شرحه لابي عبد الله محمد الزرقاني و (٤) البخاري و (٥) شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر و (٦) الاصابة له و (٧) مسلم و شرحه و (٨) كمال الاكامل لابي عبد الله الابي و (٩) المدارك للقاضي عياض و (١٠) الشفا له و (١١) شرح الشهاب الخفاجي عليه و (١٢) الاستيعاب للحافظ ابن عبد البر و (١٣) طبقات أبي العرب لمحمد بن تميم و (١٤) طبقات قضاة قرطبة لابي عبد الله الخشني و (١٥) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي و (١٦) صلته لابي القاسم خلف بن بشكوال و (١٧) تكلمتها لابي عبد الله محمد بن الابار و (١٨) تكملة التكملة له أيضا و (١٩) بغية المنتس في علماء الاندلس لابن عميرة الضبي و (٢٠) فهرسة أبي بكر بن خير و (٢١) التشوف لرجال التصوف لابي يعقوب يوسف الشاذلي المراكشي و (٢٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لابي زكرياء يحيى المراكشي و (٢٣) البيان المغرب لابن عذارى المراكشي و (٢٤) جزء من كتاب أبي عبيد البكري و (٢٥) وفيات الاعيان للقاضي ابن خلكان و (٢٦) فوات الوفيات لابي عبد الله محمد بن شاكر السكتي و (٢٧) رحلة أبي الحسين بن جبير و (٢٨) رحلة أبي محمد عبد الله التجاني و (٢٩) سراج الملوك لابي بكر الطرطوشي و (٣٠) بداية المجتهد لابي عبد الله محمد بن رشد و (٣١) مقدمة ولي الدين بن خلدون و (٣٢) تاريخ أبي عبد الله محمد الزركشي و (٣٣) عنوان الدراية لابي العباس الغبريني و (٣٤) معالم الايمان لابي القاسم بن ناجي و (٣٥) الديباج لابي اسحاق بن فرحون و (٣٦) نيل الابتهاج لابي العباس احمد بابا و (٣٧) الاعتصام لابي اسحاق الشاطبي و (٣٨) بغية الوعاة في طبقات النحاة للحافظ السيوطي و (٣٩) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة له أيضا و (٤٠) جنوة الاقتباس لابي العباس بن ابي العافية و (٤١) فطح الطيب لابي العباس المقرئ و (٤٢) الاول من أزهار الرياض له أيضا و (٤٣) البستان لابي عبد الله بن أبي مرزوق و (٤٤) الانيس المطرب لابي عبد الله العملي و (٤٥) نزهة الحادي لابي عبد الله اليفرنى و (٤٦) خلاصة الاثر لابي

عبد الله محمد المحبي و (٤٧) المؤنس لابي عبد الله بن دينار و (٤٨) الحلل السندسية لابي عبد الله
الوزير الافندلسي و (٤٩) بشارت أهل الايمان لحسين خوجه و (٥٠) حجة الله البالغة لابي العباس
الدهلوي و (٥١) كشف الظنون لملا كاتب جلبي و (٥٢) رحلة أبي سالم الفيثي و (٥٣) رحلة
أبي العباس بن ناصر و (٥٤) رحلة الحسين الورتيلاي و (٥٥) التاريخ الباشي لابي محمد حموده
ابن عبد العزيز و (٥٦) تاريخ أبي الثناء محمود مقديش و (٥٧) تاريخ أبي العباس بن أبي
الضياف و (٥٨) رحلة الشيخ رفاعه التهطاوي و (٥٩) الخلاصة النفيسة لابي عبد الله محمد
المسعودي و (٦٠) خلاصة تاريخ العرب للعالم سيديو و (٦١) الفتوحات الاسلاميه لابي العباس احمد
دحلان و (٦٢) الاستقصا لابي العباس احمد الناصري و (٦٣) تاريخ الشيخ عبدالرحمن الجبرتي
و (٦٤) عناية أولى المجد لابي الربيع سليمان سلطان المغرب و (٦٥) ذيله شذور العسجد لابي محمد
عبد الحفيظ الفاسي و (٦٦) تعريف الخلف برجال السلف لابي القاسم محمد الحفناوي و (٦٧)
مفتاح السنة للاستاذ محمد عبد العزيز الخولي و (٦٨) الشرب المحتضرا لابي الفضل جعفر الكتاني
و (٦٩) سلوة الانفاس لابنه أبي عبد الله محمد و (٧٠) مسامرات الظريف لابي عبد الله محمد
السندسي و (٧١) الاستطلاعات له أيضاً و (٧٢) حسن البيان لابي عبد الله محمد النيفر و (٧٣)
أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظم و (٧٤) نور اليقين لابي عبد الله محمد الخضري و (٧٥)
التشريع الاسلامي له و (٧٦) المحاضرات له أيضاً و (٧٧) الأول من اليواقيت الثمينة لابي
عبد الله محمد البشير ظافر و (٧٨) طبقات الصوفية للعارف الشعراي و (٧٩) كشف الغمة له
و (٨٠) لطائف المنن والاخلاق له أيضاً و (٨١) فهرست أبي الحسن النوري و (٨٢) فهرست
أبي عبد الله الامير و (٨٣) فهرست أبي الحسن خليفة و (٨٤) فهرست أبي حفص عمر بن الشيخ
و (٨٥) فهرست أبي عبد الله المهدي الوزاني و فهرست أبي عبد الله الغرياني وتاريخ آداب
اللغة العربية لرجي زيدان وغير ذلك مما وقع العثور عليه في الشروح والحواشي والوقوف
على كثير منها وقع بواسطة بعض الفضلاء جزاهم الله عنا أحسن الجزاء حسبنا الله ونعم الوكيل
نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



الجغرافية

الجغرافية

اعلم أنه تقدم الكلام في الفريدة الاولى من المقدمة على علم الجغرافية وفضيلته وأقسامه وأنه مرتبط بعلم التاريخ ارتباطاً وثيقاً ومتعلق به تعلقاً عريقاً فهما اخوان يتعاونان وفرسان رهان يتسابقان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر . وهو علم يبحث فيه عن هيئة الارض وأحوالها ووصف ما عليها من جبال وأنهار ومدن وسكان وما شا كل ذلك ، وحيث تقدم لنا ذكر ما لزم ذكره من العلم الاول وجله يتعلق بافريقيا ناسب أن نذكر هنا باختصار ما كان من علائق إيالة تونس من جهة العلم الثاني تنجماً للفائدة فنقول :

ينقسم سطح الكرة الأرضية الى قسمين عظيمين : يابس وماء . فاليابس يشغل ربع سطح الارض والماء يشغل ثلاثة أرباع سطحها . وينقسم كل من اليابس والماء الى خمسة أقسام يعبر عن كل قسم من أقسام اليابس بالقارة

أقسام اليابس خمسة : افريقيا ، وآسيا ، وأوربا ، وأمريكا ، واستراليا
فافريقيا يحدها شرقاً المحيط الهادىء وغرباً المحيط الاطلانطيقي ويفصلها عن آسيا البحر الاحمر وترعة السويس وعن أوروبا البحر الابيض المتوسط

التعريف بالقطر التونسي

هذا القطر يسمى افريقية وهو أحد الممالك الاربعة الواقعة في شمال قارة افريقيا غرب القطر المصرى وهى : طرابلس الغرب ، وتونس ، والمغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى

جغرافية إيالة تونس

يحدها شمالاً وشرقاً البحر الابيض المتوسط وجنوباً طرابلس الغرب والصحراء الكبرى وغرباً الجزائر

جبالها

هذا القطر جزء من سلسلة جبال الاطلس التي تخترق هذا القطر وغيره ينقسم الى عدة

فروع أشهرها جبل مطاطة وجبل عين دراهم وجبل الرقبة وجبل الرصاص وجبل زغوان وهو
أعلاها يبلغ ارتفاعه نحو ١٣٠٠ متر

أنهارها وبحيراتها

ليس بها الأنهر واحد يذكر وهو نهر مجردة الذي ينبع من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر
ثم يخترق هذا القطر من الغرب إلى الشرق ويصب في البحر الأبيض المتوسط بقرب غار الملح
ولا يحمل القوارب ، وفيها عدة جداول وعيون وثلاث بحيرات وهي بحيرة الحاضرة وبحيرة
بترت وبحيرة الكلبية بين القيروان والساحل

هوؤها معتدل في الجهة الشمالية ويغلب الحر في الجهة الجنوبية وإذا هبت ريح الجنوب
على أي جهة في أي وقت تحدث الحرارة . ويشتد البرد في الشتاء ولكن لا لدرجة تجمد المياه ولا
يتزل الثلج إلا نادراً في بعض الجهات
مساحتها تبلغ ٤٥ ألف ميل مربع

عدد سكانها أكثر من المليونين منها بعاصمة الولاية نحو المائتي ألف نفس غالبهم مسلمون
معادنها قليلة ويستخرج منها الرصاص والفضة والقصدير والزئبق والحديد والفحم الحجري
والرخام الأحمر والأخضر والفسفاط وهو كنز لا يقنى حصل منه نفع عظيم للعملة وغيرهم
حيواناتها : يوجد بها من الأهلية الخيل والبغال والحمر والبقر والضأن والمعز والأبل ومن
غيرها الغزال والخنزير ومن الوحوش الضبع والنمر والذئب والوعل وغير ذلك
زراعتها : تنقسم أراضي الولاية باعتبار الخصب إلى ثلاثة أقسام :

فالجهة الشمالية الجبلية هي الأكثر خصباً وتربها جيدة ويزرع فيها القمح والشعير والفول
وغير ذلك وأم جبالها عين دراهم ونفزه والمقعد بها غابات كثيفة غنية تستخرج منها الخفاف
والأخشاب الصالحة لبناء السقف وغيرها

والجهات الوسطى والشرقية الجنوبية خصبها باعتبار قلة الأمطار وكثرتها ولكن الأرض
من طبيعتها منبثة للغاية وبها غابات واسعة بالزيتون والمعاصر كثيرة لعصره وهي السبب في ثروة
أهالي تلك الجهة أعني بذلك الساحل الذي مبدأه قرية أبي فيشه ومنتهاه قرية المحرص ويزرع
بها غالب الأشجار ذات الثمار الطيبة كالبرتقال والتفاح والخوخ والآجاص والتين والعنب
واللوز وغير ذلك والحبوب كالقمح والشعير والفول والبطاطس والأوريبا والحمص والعدس
وكافة أصناف البقول

أما الأنحاء الجنوبية فهي عبارة عن أراضي شاسعة ولا تمطر فيها السماء إلا نادراً وبعضها
واحات مأوها منمهر بها أشجار كثيرة وأغلبها النخيل الجيد الثمرة الرائجة داخل الولاية وخارجها

وهاته الواحات ذات منظر طبيعي بهيج وهي قفصه وتوزر ونفطه وقابس ونفزاوه وجرجيس
صناعتها : الصنائع المحتاج اليها كثيرة وأكثرها الاعتماد فيها على الآلات القديمة والعصرية
آخذة في التقدم وأشهرها استخراج الروائح الطيبة ونسج الحرير المتقن والشاشيه واستخراج
زيت الزيتون من معاصره الكثرية بالآلات العصرية وفي الزيت والمنسوجات العمومية
والقمح والشعير والبقول رواج وما عدا ذلك انحط رواجه لمزاحته بما يرد من خارج الإيالة
والبضائع الواردة من الخارج كثيرة جداً منها المنسوجات القطنية والحريرية وآلات
النقل وجر الاثقال وآلات الفلاحة وجلب المياه والاشخاب والحديد وآلات الاسلحة والفحم
الحجري والنحاس والفضة والذهب والفخار بأنواعه وزيت الغاز والسكر والشاي والبن
والفلل وغير ذلك مما هو كثير

وليس للحكومة ولا للاهالي سفن تجارية وأغلب التجارة داخلاً وخارجاً بيد الافرنج واليهود
طرقها منظمة عمّت الجهات وكذلك المواصلات بالسكك الحديدية وغيرها وبذلك حصلت
الراحة في السفر ونقل البضائع وراجت التجارة في الجهات وعم النفع سائر سكان المملكة

معارفها ولغتها وديانتها

تدرس العلوم الدينية مقاصد ووسائل كالقرآن العظيم والتفسير والحديث رواية ودراسة
والفقه وأصوله والمنطق واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع والصرف والآداب والحساب
والتاريخ في جامع الزيتونة وبه من التلامذة نحو ألفي تلميذ وقليل من العلوم الدينية بالحواضر
وبعض القرى والحكومة أنشأت مكاتب بالعاصمة وجهات الإيالة لتعليم اللغة الفرنسية ومبادئ
العلوم العصرية وأما المعارف العصرية العالية فهي قليلة

لغة الاهالي العربية الشريفة والديانة الاسلامية وغالبهم على مذهب الامام مالك. أشهر مدنها
بنزرت وهي مرفأ أمين جداً تحميه حصون قوية والقيروان وكانت عاصمة البلاد ولم تزل موضع
احترام وسكانها ما يقرب من العشرين الف نفس. وصفاقس وهي مرسى تجارية عصرية وتبناها
ثانية بالنسبة للعاصمة وسكانها بأحوازها يربون على خمسة وسبعين الف نفس ويلبها مرسى سومة وسكانها
يربون على عشرين الف نسمة ثم المنستير والمهدية وقابس وهي موان على البحر المتوسط
وجرسيين ومدنين وحومة السوق بجربة وقفصة وتوزر ونفطة والكاف وباجه وسوق
الاربعاء وتبرسق وتستور ومجاز الباب وماطر ورأس الجبل وطبرية وزغوان ونابل وقلبييه
ومنزلة تميم والحمامات وقرنباليا وسليمان والنفبضة والقلمة الكبرى وجمال وقصور الساف
واجم الديابة المسرح الروماني العجيب البناء والصنع. وهاته البلدان يتراوح سكانها من الخمسة
آلاف نفس الى اثني عشر. أما بلد مساكن وبلد المكيتن بالساحل فكل واحد منها سكانه
نحو الخمسة عشر ألف نفس

الحكومة

إيالة تونس حكومة ملوكية وراثية للا كبر سنًا من العائلة المالكة وهي تحت الحماية الفرنسية من جمادى الآخرة عام ١٢٩٩ و مايو سنة ١٨٨١ م بمقتضى معاهدة باردو المنعقدة بين دولة الحماية ودولة الصادق باشا باي و اتفاقية المرسى الاضافية المنبرمة مع دولة الحماية ودولة على باشا باي في شعبان عام ١٣٠١ و في يونية سنة ١٨٨٣ و بمقتضى ذلك فان ادارة الشؤون التونسية ترتبط بوزارة خارجية فرانس التي ينوب عنها بالملكة التونسية مفوض يسمى المقيم العام مولى من طرف رئيس الجمهورية الفرنسية و يسمى وزير الخارجية للحكومة التونسية بأمر من سمو الباي

صاحب السيادة و الملك هو الملك المعظم الملقب بالباشا باي الذي له حق وراثه الملك و عند انتصابه على كرسى المملكة يحتفل به ليقر له بالملك سراة الامة من علماء و وجهاء و غيرهم و لحكومة فرانس حق المراقبة على أعمال سموه و الادارات التونسية و اذا رأت بعض اصلاحات أو تنقيحات تعرض ذلك على سموه بواسطة جناب المقيم العام فاذا سمح بذلك و رآه سداداً يصدر أمره المطاع بتنفيذها و يراقب أعمال التنفيذ جناب المقيم العام الذي له النظر على كافة رؤساء الادارات و له السلطة على القوة الحامية للبلاد البحرية و البرية

تاريخ إيالة تونس

اعلم أنا بينا في التتمة تاريخ الايالة بأبين بيان و أشبعنا القول في ذلك و أتينا في آخرها على خلاصته و لنأت هنا على خلاصة الخلاصة و هي الخاتمة فنقول :

هذا القطر توالت عليه دول أربع قبل الاسلام و هي القرطاجنيون فارومان فالوندال فالروم البرنطيون

و بعد الفتح الاسلامي تولاه أمراء من الصحابة و التابعين ثم سبع دول و هي دولة المهالبة من عام ١٥١ الى عام ١٨١ هجرية و كانت تابعة للعباسيين مع التصرف المطلق داخلهم دولة الاغلبة من عام ١٨١ الى عام ٢٩٧ ثم دولة الفاطميين من عام ٢٩٧ الى عام ٣٦٥ و كانت الايالة حينئذ مستقلة تماما ثم دولة صنهاجة من عام ٣٦٥ الى عام ٦٥٢ إلا أنها كانت تظهر الخضوع تارة للفاطميين و تورا للعباسيين و في سنة ٦٥٢ خلفتها دولة الحفصيين الذين كانوا مستقلين ثم دولة الترك في عام ٩٨١ و تركت لها استقلالها الداخلي و لقب حكامها بالباي و الباشا الذين انتهى حكمهم سنة ١١١٧ حيث تولتها العائلة الحسينية و أولها حسين باشا بن علي تركي و هي في قبضتها الى أن دخلت تحت حماية دولة فرانس و في هذا الوقت أميرها الانجم و مليكها الاعظم سمو احمد باشا باي الثاني المؤيد بالسبع المثاني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

الخاتمة

الكلام على المنستير الذي فضله شهير وقدره خطير ومجده في النفوس أثير وهو مستقط رأس العبد الفقير ومنبت غرسه ومجمع أهله وأنسه ومحل استقرار الاخيار كابن يونس والمازري وابن المطار نوه المؤرخون وغيرهم بشأنه وبالخصوص التواريخ المختصة بالملكية التونسية ووقفت على بعضها وسنقص ما اقتطفته منها . في الشفا عند ذكر ما يتعلق بمكة المشرقة مانصه حكى أن قوما أتوا سعدون الخولاني بالمنستير وأعلموه ان كتامة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه وبقى أبيض البدن فقال لعله حج ثلاث حجج حرم الله شعره بالثلاث حجج قالوا نعم قال حدثنا ان من حج حجة أدى فرضه ومن حج ثانية دأب ربه ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وجسده على النار . انتهى . قال الشهاب الخفاجي قوله المنستير بميم ونون وسين مهملة ومثناة فوقية وراء مهملة وهو لفظ رومي معناه عندهم خانقاه للرهبان على الطريق ينزل فيه أبناء السبيل والذي معناه منهم بفتح الميم وألف مع سكون السين وكسر التاء الفوقية وياء تحتية وقد يخفف بحذف الالف والياء وهو مما لا شبهة فيه عندهم فقوله في القاموس منستير بضم الميم وفتح النون موضع بافريقية معبد الزهاد والمنقطعين وبلد آخر بافريقية أهله من قريش بينه وبين القيروان ست مراحل وموضع بشرق الاندلس . انتهى . مخالف لما صحح معاصراً فان ظنه عربياً فهو خطأ وان قال عرّب وغير كان عليه أن ينبه عليه . وقال التلمساني انه بضم الميم والنون ويجوز كسر نونه والعامية تفتحها وعليه اقتصر الشمني وهي بلدة بساحل البحر أو حصن رباط بافريقية له سور بناه هرثة بن أعين بعثه الرشيد لافريقية سنة ١٧٩ . انتهى شهاب . وقال ابن خلكان عند ترجمة الحافظ النظار أبي القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن ثابت الخزرجي المنستيري المعروف بالبوصيري المتوفى سنة ٥٦٨ مانصه: منستير بضم الميم وسكون السين وكسر التاء بلدة بافريقية بناها هرثة بن أعين الهاشمي سنة ١٨٥ وكان الرشيد ولاء افريقية وقدم اليها في ربيع الآخر سنة ١٧٩ . وقال أيضاً المنستير معبد بين المهديّة وسوسة بأوى اليه الصالحون والمنقطعون لعبادة ، فيه قصور شبيهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد ذكره باقوت في كتابه . انتهى

قلت ما حقه الشهاب من ان لفظ منستير رومي هو الصواب يؤيده ان بالقرب من القصر شرقية جزيرة منحوت بها بيوت كانت قبل الفتح الاسلامي مقر الرهبان والمنقطعين للعبادة فيه وبالقرب منه بالقراعية داموس منحوت في جبل على شاطئ البحر يعرف الآن بالكحلية كان أيضاً مقراً للرهبان وقيل كان مقراً في المصيف لبعض أمراء الرومان

أول من ألف في فضيلة المنستير الشيخ الامام أبو زكريا يحيى بن عمر المترجم في الطبقة السادسة ومن تلامذته العالم المؤرخ أبو العرب محمد بن تميم المترجم له في الطبقة السابعة من تأليفه طبقات علماء افريقية تعرض فيه لفضيلة المنستير وذكر أحاديث واليك بعضها :

قال : قال فرات بن محمد العبدي : حدثني أبو زكريا الخراز بن سليمان قال سمعت البهلول ابن راشد يقول ان هرثمة بن أعين استشاره في بناء المنستير وعدده هرثمة ما بناه في أرمينية وفي غير موضع فقال له البهلول ما ذكرت شيئاً إلا والمنستير أفضل منه وذلك انه بلغني عن النبي ﷺ انه باب من أبواب الجنة . وحدثني فرات قال حدثني أبو الشيخ المفسر عن عبد الرحمن ابن زياد عن مطرف عن عبد الله رفعه الى النبي ﷺ قال المنستير باب من أبواب الجنة يقال له الانف ودونه قنطرة من قناطر الاولين وحدثني فرات قال حدثني خلف بن محمد القاسبي قال حدثنا بهلول بن راشد قال حدثنا عباد بن كثير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ بساحل قونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير من دخله فبرحة الله من خرج عنه فبعفو الله . وحدثني فرات قال حدثنا عبد الله بن أبي حسان اليحصبي عن أبيه عن سفیان بن عيينة عن عبد الله بن دينار عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة قال أنس يخ بخ يا رسول الله قال نعم يا أنس وله في هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . (قلت) فهاته الاحاديث كما ترى مروية عن فرات وقد أثبت في ترجمته المذكورة في الطبقة السادسة انه كان أعلم الناس بالناس وأوقع الناس بالناس حتى نسب للكذب . وهاته الاحاديث ذكرها ابن الشباط والتجاني في رحلته وذكرها ابن ناجي وقال سمعت من شيخنا البرزلي يقول عن شيخه وشيخنا ابن عرفة يغلب على اللظن أنها موضوعة (قلت) واذا ثبت انها موضوعة فالظنون أن واضعها قصد بها الترغيب في المرابطة لما يترتب عليها من مصلحتي الدنيا والآخرة أما في الدنيا فان ظميرها ملازمة النظر في موضع الخفاة من العدو وفي الآخرة حصول الثواب الموجب لدخول الجنة أخرج الشيخان عن سهل بن سعد ان رسول الله ﷺ قال « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » وأخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « من مات مرابطاً في سبيل الله تعالى أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبمته الله آمناً من الفزع » والرباط والمرابطة أن يربط

هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون ملازمة النظر في موضع الخفاقة من العدو. وأصل
 المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين لانزال فيحارب
 كل منهما الآخر ثم أطلق على كل مقيم بشعر يدفع عن وراءه مرابطاً وان لم يكن له ما يربط من
 الخيل. وقوله يخ يخ كلمة تقال عند المدح للشيء والرضى به وتكرر للتأكيد وهي امامنية على السكون
 للوقف واما للوصل فتكسر وتنون وقد تشدد. والقنطرة لم يزل أثرها قائماً وبالقرب منها من
 الجهة الجوفية أثر بلدة رومانية بعضها غمره البحر والباقي هو بساتين تابعة للمنستير تعرف
 بالقدمية هواؤها نقي وحكى بعض المؤرخين انه كان هناك قصر يعرف بشقاقص لا أثر له الآن
 وزبدة القول ان المنستير الشرف العظيم وقد صرح بذلك غير واحد من المؤرخين قالوا
 لاشك ان المنستير فضلاً وشأناً. وفي الحلل السندسية والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن
 عذاري الاشارة لذلك وفي رحلة الشيخ الورتيلاتي انه دخل سوسة ولم يدخل المنستير وهي
 مدينة عظيمة قوية البركة عظيمة في الزيارة لا حتوائها على طبقة من العلماء وأهل الترجيح من
 المؤلفين كالامين ابن يونس والمازري وغيرهما فان الوفود تأتي اليها من كل جانب. انتهى
 وقد ذكرها جماعة من الادباء منهم أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عريبة المترجم له
 في الطبقة الرابعة عشر ذكرها متشوقاً في قصيدة مدح فيها الامير أبا زكرياء الحفصي منها :
 ذكرت جمة والذكرى تهيج لي فأين جمة مني والمنستير
 وما مناي لياليها التي سلفت وما مناي محانيها المعاطر
 والمراد بجمة المهديّة

فصل فيما يتعلق بالقصر

قال البكري ان محرم المنستير المعروف بالقصر الكبير له في يوم عاشوراء موسم عظيم
 وجمع كبير نفيم وبالمستير الطواحن الفارسية وموажل الماء وهو حصن عال متقن البناء والعمل
 وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من خير فاضل يكون مدار القوم عليه وفيه جماعة من
 الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الاهد والعشائر وقال محمد بن يوسف
 هو قصر كبير عال بداخله ريبض واسع وفي الريبض حصن ثانٍ كبير كثير المساكن والمساجد
 في طبقات عالية بعضها فوق بعض وفي القبلة منه حصن فسيح فيه قباب عالية متقنة تنزل حولها
 النساء المرابطات تعرف بقباب جامع وبها جامع متقن البناء وبها حمامات كثيرة وكان أهل
 القيروان يخرجون اليهم بالاموال والصدقات الجزيلة وبالقرب من المنستير ملاحه عظيمة
 تشحن منها السفن بالملح الى البلاد وبقرها محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين وليس بافريقية

أجل من محرس المنستير . انتهى . وفي حسن البيان القصر المذكور سامي بضخامته قصر أجم من الهياكل لما تقدم من الامم وفاق باضافة الغرض ومثانة المقصد لانه بنى لمصلحة وهو الرباط وهو قصور ثلاثة شاذجة ذات طبقات تشمل مئات من البيوت وقد بنيت بالحجارة العظيمة بأحكام صنعة واتقان على غاية من الاحكام وفي وسطها مخازن للطعام وموآجل الماء ومستودعات آلات الحرب ومرابط الخيول وحولها القلاع الحصينة والحصون المنيعة يحيط بها أسوار شاذجة التي تكاد تطرد الطير عن بلوغ أعلاها مموا وشحنها العرب بالقوات والخيول والرجال فكان يقصده من جهات أفريقية أهل التقوى والفضل والاحسان . وقال الشيخ مقديش المهدي لم يكن لها جنات ولا بساتين وإنما يجلب اليها من المنستير ما يحتاج من الثمار . وبالمنستير قصور ثلاثة يسكنها العلماء والصالحون والاعراب لا تضرهم في شيء من ثمرهم ولا من عمارتهم لانها محل رباط وعبادة وأهل المهدي يدفنون موتاهم فيها تبركا وهاته القصور أبراجها منتظمة مع قرب بعضها بها بيوت بعضها على بعض محكمة البناء وحولها دور يحيط بها سور قد رصص بناؤه (قلت) القصر الكبير متر كعب من قصور ثلاثة على الوصف الذي تقدم نقله عن الشيخ محمد بن يوسف ولم ينقص منه إلا القباب وله بابان قبليا المفتوح واحد مفتوحه في محن الجامع الكبير الذي هو الآن مطبوس والآخر هو مدخل القصر

وبالمنستير قصران غير القصر الكبير أثبتهما بعض المؤرخين (أحدهما) يعرف بقصر السيدة وقبرها بمقصورة بمسجد يعرف بالسيدة يزار الى هذا الوقت أما القصر فلم يبق له أثر ومحلها الآن دور بعض بيوتها عتيق جداً باقية على حالها الى الآن ومن مشمولاته مسجد يشبه في البناء والتقدم مسجد السيدة به مفارة تحت الارض ومقصورة بها قبر والاقرب أنه قبر بعض ملوك صنهاجة ويعرف هذا القبر بسيدى عامر يزار حتى الآن . حكى لى شيخ مسن أنه يسمع مما عا فاشياً أنه كان وقع شروع في حفر حنو القبر فاذا بفداء من القبر يقول : عامر عامر فمن ذلك الوقت عرف بسيدى عامر ومن مشمولاته أيضاً مسجد يشبه في البناء والتقدم مسجد السيدة يعرف هذا المسجد بمسجد اللز والاقرب أنه حرف وأصله المعز ومن مشمولاته أيضاً قبة فيها قبر أبى الحسن على السراج ويعرف الآن بسيدى السراج يزار (ثانيها) القصر الذي به الزاوية المعروفة بسيدى فويب وفيها قبر معروف به يقال انه من بيت ملوك بنى الاغلب وفيها مسجد عتيق يظهر أنه أقدم من مسجد السيدة ولم يبق من هذا القصر إلا هاته الزاوية وباقيه هو الآن دور وهذان القصران والقصر الكبير ودور تعرف بالزربية كانت مسورة بسور لم يبق له أثر إلا من الجهة الشرقية فلم يزل قائماً الى هذا العهد وكان بين هذين القصرين داموس تحت الارض تمتد الى الجهة الغربية لا يعرف له حد وبعض الدور مواجها مقتطعة منه

عود الى الكلام على القصر الكبير * قال الشيخ مقديش : وقف لمصالح المرابطين جميع الاراضى المتصلة بالقصر لمعى الدواب والزراعة لمن يروم ذلك وغرست جنات عظيمة بكل مشرع ، وكانت بساتين قصر الرباط تشمل آلافا من تلك الاراضى يفتنع بها أهل الرباط جميعاً لافضل لاحدم على الآخر ، وكان معظم غزاة البحر يركبون منه وقد أحدث العرب عند قصر الرباط مدينة لها عمران عظيم وجنات وزياتين بكيفية عجيبة حتى كانت مدينة المهديّة في عنقوان عمرانها وسطوة ملكها وقت الخلفاء العبديين وملوك صنهاجة عالة على المستير فيما يحتاجه من التمار والفواكه وغير ذلك

في حسن البيان نقلا عن حاوى البرزلى بعد نقل جواب الامام المازرى عن مخازن بالمستير بالقصر الكبير مملوءة قمحاً وشعيراً لرجال مقيمين بالقصر ولآخرين غيب وعن زوار يفتقون مخازنهم ويخرجون فيقيمون شهرين ونحوهما وعن له بيت بالقصر وهو بيت خارجه ويأخذ من المعروف مثل من يبيت بالقصر وعن قوم من المرابطين بأيديهم من الاراضى أكثر مما يبد غيرهم وعن قوم غرسوا غراسه بأرض المستير ما الحكم فيها ؟ وهل ان من حقوق الفارس أن لا يخرج من يده ما غرس في حياته وهل يكون للناظر في ذلك اخراجها من يده في حال دون حال أو لا يكون له ذلك ؟ وهل يورث عنه من الفرس ما غرسه ؟

قال بعد نقل جواب الامام عن هذا السؤال مانصه : دخلت رباط المستير في حدود عام ستين وسبعائة فرأيتة محفوظا لا تدخله الناس ، وكانت أحباسه محفوظة ، وكان العرب لا يتعرضونه إلا بخير في دنياهم . ثم بعد ذلك جرت أمور على ما سمعت من تعرض العرب للحبس والدور وتمرات القصر ووقع الانتقاض منهم في المال والرجال وافتتن أهلها مع العرب حتى أدى الامر الى تلامى غرسها ورحيل أهلها حتى صارت الآن لامير المؤمنين فهى الآن على ما سمعت في عز وعافية ، وعادة الله أن قصر الرباط لا يتحمل التخليط بوجه فمضى حدث فيه ذلك عوقبوا ، وأما بقية غرسها وبياضها فهم اليوم يملكونه ولا أدري هل توصلوا اليه بحق أو هو كما قال الامام فعلى هذا في أكل نمار الموضع نظر إذ هو حبس الا أن يكون جاء بقصد الرباط فيستحقه من هذه الحيثية ، وكذلك تملك رابع البلد الدائرة بالقصر وجميع ما حوله من الاراضى مما ينسب الى المستير الذى يسمى القرطين وهو جميع دخلة القصر منسوب اليه انتهى حسن البيان . قلت : جواب الامام عن السؤال طويل الذيل اشتمل على فوائد كثيرة نقله الوشريسى في معياره بنصه والقرطين مكان بعيد عن المستير بنحو ثلاثة أميال أراضيه خصبة وقع الاعتناء بفرانيتها وزراعتها منذ عهد قديم وبها آبار كثيرة ودور اندثرت ومسجد لم يزل قائماً الى هذا الوقت أول من تولى النظر على هذا القصر الامير أحمد أحد ملوك بني الاغلب حين امتلأ القصر بالمرابطين وأجرى عليهم ما يلزم من النفقة وقد بلغ عدد المرابطين به في مدة سعدون الخولانى

شيخ القصر المترجم له في الطبقة السابعة زهاء أربعة آلاف مرابط بين عالم وزاهد وصالح ، وكانت ملوك الشيعة نخشاه ولم ضاق القصر على سكانه أضيفت الاراضي التي حوله حتى القرطين للقصر فبنى المرابطون دوراً حوله وغرسوا الاراضي التابعة له للانتفاع بها ، وأول دور بنيت هي الدور المعروفة بالزربية وكانت قليلة في زمن سحنون ولذا قال : ان اقامة الجمعة لا تجب على أهلها ، ثم استمر الحال على ذلك الى أن آل أمر القصر والاراضي التابعة له الى مارأيت في السؤال الوارد على الامام المازري ثم استمر تزايد بناء الدور والعمران الى أن صارت مدينة مسورة بسور وذلك أواسط المائة للسابعة ثم آل الامر الى مارأيت في حكاية الامام البرزلي ، وفي أوائل المائة التاسعة كان شيخ القصر أبا عبد الله محمد بن أبي زيد المترجم له في الطبقة السابعة عشر وكان به من التلامذة ما يزيد على المائة رحلوا اليه من الآفاق وكل من حل به يجد مسكناً يأوى اليه ومعلماً يؤدبه ويعلمه القرآن والعلوم الدينية ويجد مايلزم من أمر المعيشة وهي أمور تعين على طلب العلم ولا يخفى أن أكبر الاعوان وأهمها فراغ البال من أمر المعيشة وكانت الارزاق تأتي اليهم والى من به من المرابطين من أوقافه ومن جهات افريقية كقفصة ونفزاوة وقابس والجزيرة والقيروان وغيرها ثم قام ابنه أحمد واستمر الحال على ذلك الى أن استولى عليه الاسبان أواسط المائة العاشرة فهدم منه جانباً بعد ما قتل وأسر من لا يعد كثرة نقل ذلك الشيخ عظام في أجوبته ثم أصلحه وأصلح المنار الذي به ، وقيل هو الذي أسسه ثم افتكه منه الترك وصار أمره الى الانحلال والتقهقر تحت نظر حفدة الشيخ ابن أبي زيد الى أوائل القرن الثالث عشر صيره الامير حموده باشا معقلاً حريباً ونقل الطلبة الذين به لزاوية سيدى فويب المتقدم الذكر وأجرى على عشرة منهم النفقة من أوقاف زاوية الشيخ أحمد بن أبي زيد المذكور وجعل لهم مؤدباً يعلم القرآن ومدرساً يقرىء مبادئ العلوم الدينية جرائتها من الاوقاف المذكورة ونظرهم لقاضي المكان ، ثم ان الباشا حسين بن محمود باي جعل به سنة ١٢٤٦ العساكر النظامية وشحنه بالآلات الحرب ، وفي أيام المشير أحمد باشا كان به من العساكر النظامية نحو ثلاثة آلاف واستمر الحال على ذلك الى أن نصبت فرانساجايتها على الايالة التونسية سنة ١٢٩٨ فأزلت مابه من الذخائر والآلات الحرب حيث صارت غير صالحة للدفاع وأغلقت واستولى عليه الخراب واعتبرته وأسوار المدينة الحكومة من الآثار العتيقة وصدر أمرها بالمحافظة عليها تحت نظر جمعية الاوقاف والادارة الحربية . ولما قامت الحرب الكبرى المشار لها آخر التتمة وقع اسكان جماعة به من أسارى الالمان وتسخيرهم لاصلاح الخراب الذي به وأقاموا به أشهراً ثم نقلوا وسكن به طائفة من جالية دولة روسيا عند استيلاء جمهورية السوفيات على بلاد القريم مع طائفة من عساكر الاحتلال ثم خرجوا وبقيت به العساكر الى هذا الوقت ، والحاصل ان القصر الى هذا العهد آثاره تدل على أنه كان في العهد القديم آية دالة على

عظمة العرب خالدة الى الآن

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وهو الى هذا الوقت على طبقات ثلاث به منارة سامية الارتفاع قامت كأنها عمود مخروط يستطلع منها المستطلع فيرى ما يملأ النفوس بهجة وحسناً فيرى المدينة وما حولها من حدائق الزيتون والبساتين الملتفة كلها بسيط أخضر جميل المنظر مد البصر يتخلل ذلك البسيط قرى تحف بها حدائق الزيتون يرف خضاره ونضاره ويرى مدينة سوسة العروسة القريبة منها بنحو أحد عشر ميلاً بجزاً ويشاهد مبانيها الانيقة . وبالجملة فانه لا اشرف كاشرافه حسناً وجمالاً واتساع منظر يروق ويرعى الابصار بهجة ونوراً ، وبالتصر قبور كثير من العلماء والصلحاء وغالبهم مجهول الاسم أو محرف والمعروف منهم أبو عبد الله بن أبي زيد وأبو الفضل يوسف ابن نصر وسعدون الخولاني والشيخ الشريف وهذا يعرف والشيخ جابر المهدي وبخارج القصر على يسار الداخل له بيت به قبر الامام أبي عبد الله بن يونس الصقلي ويعرف بسيدي الامام وبالتقرب منه قبة بها قبر يعرف بسيدي مفتاح عتيقة

هذا ما يتعلق بالقصر أما ما يتعلق بالمدينة فقد تقدم أن القصور الثلاثة كانت مسورة بسور ثم أزيل وذلك بعد حصول زيادة كثيرة في الدور وأضيفت للقصور وما حولها من الدور وسورت بسور وهي المعروفة الآن بحومة المدينة بها مساجد كثيرة عتيقة منها مسجد يعرف بمسجد الامام المازري ومسجد يعرف بمسجد أبي يوسف الداعاني به قبر يزار وبالجهة الغربية من هذه الحومة ريبض يعرف بالرربض الاوسط وبابه يعرف بالباب الجديد به سوق واسع الفناء زاهي البناء وهو مجتمع الناس للتجارة وغيرها وبه الجامع الحفصي ومن الجهة الجوفية منه مسجد عتيق يعرف بمسجد المرأة الصالحة عافية ويشمل هذا الرربض حومتين الجبانية والشراقة وبه مقام أبي بكر الحنفي المترجم له في الطبقة الرابعة عشر والشيخ الحياص قديم العهد ومقام الشيخ الهلالي قديم العهد أيضاً ومقام الشيخ المجذوب بوطاره الحنفي من أهل المائة الثانية عشر وبالجهة الغربية من هذا الرربض يعرف بالرربض الاقصى ويشمل حومتى باب الفرج والطرابلية به قرية الشيخ عمر القلال من أهل القرن الثاني عشر وفي القديم كان على كل منها سور ثم أزيلت الاسوار الفاصلة بين الربضين وحومة المدينة ولم يبق منها الا السور المحيط بجميعها وأما الرربض الجوفى من هذين الربضين فسور بسور على عهد علي باشا ابن حسين باشا وبذلك صارت مدينة فسيحة الارحاء لها ربضان جوفى ويعرف برربض الخروبي وقربه مسجد يعرف بمسجد السراة غمره البحر ولم يبق له أثر وقبلى ويعرف بالقراعية على شاطئ البحر به آلاف المباني الانيقة فالعين هناك منظر وانشراح وللنفس مزيد انبساط وانفساح وبه مقام الشيخ منصور بن زيد ومقام الشيخ مسعود الغربي ومقام الشيخ العربي وهو عتيق

جداً وعلى شاطئ البحر داموس منحوت في جبل يعرف بالكحلية يقال انه كان معداً لمصيف بعض أمراء الرومان أو مقرأ لطائفة من الرهبان وبالجهة الغربية من المدينة مع انحراف الى جهة القبلة والجوف حدائق الزيتون والبساتين ذات الاشجار الملتفة اليانعة يحيط بجميع ذلك قبلة وشرقا وجوفاً البحر في شبه شكل مثلث زاوية المدينة و لتلك الاشجار ومنها التي ببساتين شقائق ثمرات طيبة النكهة سيما التفاح له خاصية من الفضل عجيبة لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العيبة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه وحسن منظره عن أكلك إياه يهدي للاجبة والامراء والخاصة من الفضلاء وبالجملة فتربتها نقيه وهوؤها صحيح منعش للنفوس والابدان في كل وقت وزمان وبغالب دورها الموائل والآبار منها ماهو صالح للشرب ومنها ماهو غير صالح وفي سنة ١٣٢١ أسست الحكومة شركة تعرف بشركة مياه الساحل لجلب الماء المنهر المنسرب من عيون معينة من واحة أبي حفنة بعمل القيروان في قنوات الحديد وأنابيب الرصاص يتفرع الى فرعين كل فرع ينقسم الى مذانب يخترق بسائط وعمار وقرى وما من قرية مر عليها إلا ولها نصيب من ذلك الماء . فرع ينتهي الى سوسة وفرع ينتهي الى المنستير وحصل بذلك نفع عظيم ومنحت الشركة الاشتراك فيه لاصحاب الدور والبساتين والحمامات وغيرها بشمن معين من المال يدفع سلفاً في كل ستة أشهر والقدر المستهلك منه يعرف بمنقاة الماء وهي آلة تشبه منقاة الساعة الزمنية

أهلها معروفون بالذكاء وكرم الاخلاق والتواضع فلا تلقى منهم إلا وجهاً طلقاً وكلمة لينه ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم . سنتهم في المعاشرة عجيبة وسيرتهم في التزام رتبة الخدمة غريبة مع الكد والجد والوفاء بالعهد . محافظون على عوائد أسلافهم ومعتنون بتهديب أخلاق أولادهم ولهم اعتدال في معاملاتهم وليس لهم الآن كبير حظ في التجارة لقربها من سوسة المقصودة برأ وبجراً لتحسين مرساها التحسين العصري . أما قبل هذا التحسين فقد كان للمنستير الحظ الاوفر في تجارة الزيت وغيره برأ وبجراً

سكانها زهاء عشرة آلاف نفس ومع قلة هذا العدد بالنسبة للحواضر غيرها فان كثيراً من الخطط النبوية بأيديهم فلا يخلو منهم ديون من دواوين الحكومة وفيها كثير من ذوى البيوتات النبوية كبيت ابن أبي زيد وبيت مخلوف وبيت مزالي وبيت نويرة وبيت بوزقرو وبها مجلس شرعى متركب من قاض ومفتيين وبها مدرسون خمسة يقرئون العلوم الدينية وواحد يقرئ فن القراءات وفيها مكتب تبرع به بعض أهل البر لتعليم أبناء المسلمين القرآن العظيم وبعض مبادئ العلوم الدينية به الآن ما يربو على مائة تلميذ

وفيها مكتب ذو طبقتين حليل ينقسم الى قسمين قسم للذكور وقسم للاناث لتعليم أولاد

الاهالي على اختلاف أديانهم مبادئ اللغة الفرنسية ومبادئ بعض العلوم المعاصرة به نحو سبعمائة تلميذ وفي سنة ١٣٧٧ أحدث بها مستشفى غاية في الاحتفال مع الاتساع وكثرة المرافق جار الآن على استقامة لاهتمام الحكومة به . أوقف عليه الاهالي ما يربو على ألفي أصل زيتونا وألفت رسالة لطيفة سميتها بالمازري في فضيلة المستشفيات والطب وتعرضت فيها لترجمة بعض المشهورين بعلم الطب وما لهم من المؤلفات فيه كابن رشد وابن زهر والمازري وبالمنستير معمل وآلات لصيد الحوت المعروف بالثن شهرته تغني عن التعريف به والمنستير معدودة عند الحكومة من الحواضر الاربع التي لها مزيد اعتبار القبروان وسوسه وشفاقس وقريب عهد كانت هاته الحواضر الاربع وتونس معفاة من أداء الجبا

ذكر من بالمقبرة من الفضلاء

المقبرة بفتح الميم وثلاث الباء موضع القبور ومقبرة المنستير بالجهة الجنوبية بها قبور كثير من العلماء والزهاد والصلحاء والكثير منهم ذهب اسمه أو غير اسمه ورسمه وغالب قبور هؤلاء الأفاضل بالعتيقة عمرها البحر ولم يبق لها أثر فدفنت بسبب ذلك مشاهدم المباركة وذهب على أهل البلد أسماءهم ولندكر ما أمكن معرفة اسمه أو قبره منهم أبو زكرياء الحداد وأبو الحسن الكاشي وابن العطار وابن سعدى وأبو اسحاق الصفاقسي وهؤلاء تقسم ذكرهم في المقصد وابن الفرس من بيت عبد المنعم بن الفرس الاندلسي وأبو علي الدبوسي وأبو الفضل الغدامسي الذي مقامه بالجزيرة قرب المقبرة وتقدم ذكره في المقصد وبالتقرب منه قبر الشيخ السنجاج وبالمقبرة مقام للشيخين عبد الغني المزوغي وأبي علي يونس بن السباط وتقدمت الاشارة اليه في المقصد مع أخيه أبي يعقوب يوسف ونقلنا من مدفنيهما الاول الى المقام المذكور حين خشي عليهما من البحر ومقام الامام المازري منقوش بحجر فوق الباب انه نقل ومعه كثير من العلماء وتقدم نقله بنصه في ترجمته بالمقصد وذلك حين خيف عليهم من البحر على عهد الباشا على ابن الباشا حسين وعلى عهده كان اصلاح الجامع الكبير وتأسيس الجامع الحنفي وبناء سور الرض الجوفي ومقام أحمد ابن أبي زيد المترجم له بالمقصد نقل اليه سنة ١٣١٠ من مقامه الاول وكان عليه بناء حنبل ضمه البحر اليه بعد النقل ولم يبق له أثر الآن ومقام الصالحة البرقاوية وقبور تحت السور تعرف بقبور بنات السلطان ومقام الشيخ الطرودي وصدر الاذن بنقلته حيث تهبأ البحر لجذبه ومقام جد العبد الفقير الشيخ عمر مخلوف الشريف وهو من فريق أولاد مخلوف الذين ينسبون أنفسهم لذلك وينسبهم الناس اليه خلفاً عن سلف وكان بأيديهم ظهير من أمراء افرريقية في اعفائهم من المطالب الدولية ومن هذا الفريق الشيخ مخلوف الشرياني الذي قبره بشريانة القريبة من

صفاقس قال الشيخ مقديش ومن مشايخ صفاقس الشيخ مخلوف الشرياني أصله مغربي صاحب الشيخ العياشي بطلبه وهو من أكابر الصالحين والعلماء العاملين له تلميس على بردة المديح وله عقب بأيديهم ظهر من أمراء الحفاصة وأمراء العساكر العثمانية . انتهى . وقوله مغربي يعني من فرقة بالمغرب أشار لها الشيخ العياشي في آخر رحلته حيث قال ثم مررنا بأولاد سيدي مخلوف وهم فقراء أشرف . انتهى . والجد عمر مخلوف المذكور مقامه متبرك به كان معتقداً من أكابر الصالحين كثير الكرامات وكان بالحياة أوائل القرن الحادي عشر ومن أخص أصدقائه الشيخ عبد الرحمن الجندولي ومقامه بالمقبرة والشيخ منصور بن يزيد الذي مر ذكره قريباً والمرأة الصالحة عائشة الفتحية التي مقامها قريب من مقام الجد وهم معروفون بالصلاح معاصرون للشيخ المريني المعتقد الكثير الاتباع أبي شامة عامر ابن الشيخ سالم الشهير بالزوغى صاحب الزاوية الشهيرة بالساحل بين سوسة والمنستير المتوفى سنة ١٠٤٩ المتولد سنة ٩٢٩ ووالدته ريانة بنت الشيخ نصر الشارف الذي مقامه ببلد الساحلين وبالمقام قبر الشيخ سالم المذكور وكانت طريقة الشيخ عامر جزولية وكان من أصحاب أبي الفيث القشاشي وتاج العارفين البكري وتقدم ذكرهما في المقصد وأقام بصفاقس نحو الحسين عاماً ومنها انتشر ذكره

وبالمقبرة ألواح وأعمدة من حجر كثيرة منقوش عليها بالقلم الكوفي مبعثرة وأكثر من ذلك مادام في القبور والحيطان وجعل أعمدة سقف عليها كما هو مشاهد الآن بمقام الامام المازري وبمقام أبي علي السباط وغيرهما وبمضها مكسر لا يمكن حصول نفع منه بحال

عود الى الكرام على قصر السيدة

في المؤنس ان بنى زيري دار ملكهم أولا المنصورية ثم انتقلوا الى المهديّة في زمن المعز ابن باديس ومدقمهم بالمنستير بقصر السيدة وكان لهم قاموس عظيم وعساكر عديدة وبلغوا رتبة السلاطين وقال ابن خلكان نقلاً عن كتاب الجمع والبيان لابن محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز انه جرت العادة ان كل أمير من هذا البيت يدفن في قصره ثم ينقل بعد سنة الى قصر السيدة بالمنستير (قلت) ومن القبورين بهذا القصر الذي مر وصفه قريباً وقبرها غير معروف أم ملال قال ابن العذارى هي أخت نصير الدولة باديس بن منصور عمه المعز، وهي أول من بايعته وهنأته بالولاية في المهديّة، وتوفيت سنة ٤١٤ . انتهى . ومن القبورين بالقصر وقبرها معروف لهذا الوقت في مقصورة بمسجد يزار يعرف بالسيدة، قال ابن العذارى وفي سنة ٤١٢ توفيت السيدة زوجة نصير الدولة وكفنت فيما لم يذكر ان ملكاً من الملوك كفن بمثله فحكى من حضره من التجار ان قيمته مائة ألف دينار وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجواهر وكانت جنازتها لم ير مثلها وكانت مسامير التابوت بألفي دينار وفي سنة ٤١٣

أعرس المعز فكان له عرس مانهياً لأحد قط من خلفاء الاسلام وشرحه الرقيق في كتابه تركناه اختصاراً . انتهى . وفي المؤنس انها جدة المعز توفيت سنة ٤١١ وكفنها بما قيمته مائة ألف دينار وعمل لها تابوتاً من العود الهندي مرصعاً بالجواهر وصفائح الذهب وسحر للتابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال وأدرجت في مائة وعشرين ثوباً وذر عليها من المسك والكافور مالا حده وقلد التابوت باحدى وعشرين سبيحة من نفيس الجوهر وحملت الى المنستير ودفنت بها وأمر المعز بخمسين فاقه ومائة رأس من البقر وألف شاة فصحرت وفرق في ماتمها على النساء عشرة آلاف دينار . انتهى

(قلت) ما صرح به ابن العناري من انها والدة المعز مخالف لما في المؤنس من انها جدته والذي صرح به ابن عناري هو الصواب وما في تاريخ الشيخ مقديش يؤيده ومحل الحاجة منه كتب الشيخ سيدي محرز بن خلف كتاباً الى باديس ولما وصل اليه قرأه وعمل بما فيه من النصائح ثم بعثه الى السيدة وقال لحامله قل لها هذا كتاب سيدي محرز فاحتفظي عليه ولعل بركته تعود عليك ولما وصل لها قرأته ثم طيبته وخرزت عليه وكانت حاملاً فولدت المعز في جمادى الاولى سنة ٣٩٨ انتهى . والمعز تقدمت ترجمته في التتمة وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة محباً لاهل العلم كثير العطاء وكان واسطة أهل بيته ولما توفي نقل من قصره ودفن بقصر السيدة وذ كرنا قريباً ان المسجد المعروف بالذمخرف والصواب المعز ومن المقبورين بالقصر وقبره غير معروف أبو يحيى تميم بن المعز كانت له فضائل وأشعار كثيرة ومن شعره قوله :

ان نظرت مقلتي لمقلتها تعلم مما أريد نجواه
كانها في الفؤاد ناظرة تكشف أسرارها وفخواه

وقوله :

فكرت في نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربي أن خير وسيلتي يوم المعاد شهادة الاخلاص

ولابن رشيق فيه مدائح وكان يجيز الجوائز السنوية ويعطى العطاء الجزيل وقصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السوري وأنظاره مولده سنة ٤٢٢ وتوفي سنة ٥٠١ ودفن بقصره ثم نقل لقصر السيدة بالمنستير وخلف من البنين أكثر من مائة ومن البنات ستين على ما ذكره حفيده عبد العزيز بن شداد بن تميم ومن المقبورين بقصر السيدة أبو الطاهر يحيى بن تميم المذكور لما تمت له البيعة قام بالامر وعدل في الرعية وفي أيامه وصل للمهدية محمد بن تومرت قادما من الحج فنزل بالمهدية وشرع في تغيير المنكر ثم انتقل الى المنستير ثم الى بجاية ، وقيل ان اقامته بالمهدية كانت في أيام تميم المذكور وتقدم بعض خبره في ترجمة يحيى المذكور في التتمة وفي ترجمة أبي بكر بن العربي في المقصد وكان الامير يحيى المذكور كثير المطالعة لكتب الاخبار

والسير عارفاً بها مقرباً لاهل العلم والفضل وله نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام وكان
عنده جماعة من الشعراء قصده ومدحوه وخلدوا مدحه في دواوينهم ، ومن جملة شعرائه أبو
الصلت أمية بن عبد العزيز . وتوفي يوم عيد النحر سنة ٥٠٩ ، ودفن بقصره ثم نقل لقصر
السيدة على ما جرت به العادة وقام مقامه ابنه أبو الحسن على وكان جواداً مفضلاً من الأذكيا
محباً للعلم والعلماء . وتوفي سنة ٥١٥ بالمهدية ثم نقل لقصر السيدة على ما جرت به العادة . ولأبي
الصلت المذكور منزلة جليلة عنده . ومن شعراء أبي الصلت في أبي الطاهر يحيى المذكور
القصيدة التي مستهلها :

قضى الله أن تفنى عداك وأن تبقى وتخلد حتى تملك الغرب والشرقاً

قال : أنشدت يحيى بن تميم هاته القصيدة وخاصة بين يديه وعبد العزيز بن عمار في الجملة
وكان في هاته الصناعة أبصر الجماعة . فقال له يحيى : كيف ترى ما تسمع ؟ قال : حسن الحوك
بحكم السرد . فقال له أتعرف قائله ؟ قال : لا . قال : هو ذلك الجالس يشير الى . فعلاه بسبب
ذلك فتور ونفور عن الاستماع بحسب ما يعرض من العوام الرعاع عند ما يفتشون لمن جمعهم
وإياه مكان وزمان وإنما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم وسببه الحسد وكثيراً ما
يعنون الصواب محالاً والصداء آلا والقوام اعوجاجاً والعذب ملحاً اجاجاً . انتهى
(قلت) : قال بعضهم : المعاصرة أصل المنافرة . وقال شيخنا حسين بن أحمد : المعاصرة

حجاب

وأبو الصلت هذا مقبور بالمنستير وقبره غير معروف وهو ابن الصلت أمية بن عبد العزيز
ابن أبي الصلت الاندلسي يكنى بالاديب الحكيم . في صلة ابن الأبار : خرج من بلاده ابن
عشرين سنة يطلب العلم فتفنن في العلم والآداب والعروض والتاريخ وسجن أثناء ذلك ثم
تخلص من اعتقاله فنزل بالمهدية على رأس الخمائة في كنف أمراء الصنهاجيين يحيى بن تميم
ابن المعز وولده على عشرين سنة وكان من أفراد العلماء وفحول الشعراء والادباء وله تأليف في
فنون شاهدة بفضله ودالة على سعة علمه ، وقد أوردت له في تأليفي تحفة القادم كثيراً من شعره
وكتب الى أبو جعفر بن عات أن أبا الحسن بن المفضل أنشده بالاسكندرية قال أنشدني عبد
الله بن يوسف القضاعي قال أنشدني أبو الصلت أمية بن عبد العزيز قال أنشدني أبو محمد
التكريقي من تلامذة الغزالي لأبي حامد هذا ولم أسمعه من غيره ، ولا ذكر له أبو الصلت ،
في الحديث :

جعلت عقارب صدغه في خده قرأ يجلّ سني عن التشبيه

ولقد عهدناه بجل بجرها فمن العجائب كيف حلت فيه

أفادني أكثر خبره بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عبد الخالق الخطيب بالمنستير توفي سنة

٥٢٠ أو بعدها فمضى انتهى . وفي حسن المحاضرة : أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الاندلسي قال في العبر كان ماهراً في علوم الاوائل رأساً في معرفة الهيئة والنجوم والموسيقا والطبيع والرياضى والالهى كثير التصانيف بديع النظم مات سنة ٥٢٨ عن ثمان وستين سنة انتهى . وقال ابن خلكان : أبو الصلت أقام تحت كنف الامير يحيى بعد أن جاب الأرض وتقاذفت به البلدان وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن وله أيضاً مدائح في ولده أبي الحسن على وولد ولده الحسن وأخذ عن جماعة من أهل الاندلس وغيرها منهم أبو الوليد الوقشى قاضى دانية وسابق فضلاء زمانه وأهل عصره وأوانه يقال : ان عمره ستون عاما عشرون باشبيلية وعشرون بافريقية عند أمراءها الصنهاجيين وعشرون في مصر محبوساً في خزائن السكتب نخرج في فنون من العلم اماماً وأتمن علومه الفلسفة والطب والتلحين وله في ذلك وغيره تأليف تشهد بفضله منها كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي وكتاب ذيل به كتاب الرقيق فيما وقع في دولة باديس وأبيه وجده وكان له شعر جيد رقيق جمعه في ديوان خاص وصنف وهو في اعتمال الافضل وهو بمصر رسالة العمل بالاسطرلاب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الادوية المفردة وكتاب تقويم الذهن في المنطق وكتاب الاتصاف في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن اسحاق في مسائله وله الرسالة المشهورة التي وصف بها مصر وعجائبها وله غير ذلك وكانت له منزلة جليلة بالمهدية على صاحبها على بن يحيى بن تميم وولد له بها ولده عبد العزيز وكان شاعراً ماهراً وله في الشطرنج يد بيضاء وتوفى ببجاية سنة ٥٤٦ وتوفى أبو الصلت سنة تسع أو ثمان وعشرين وخمسمائة ونظم أبياتاً أوصى أن تكتب على قبره :

سكنتك يادار الفناء مصداقاً بأتى الى دار البقاء أصير
وأعظم مآفى الأمر أنى صائر الى عادل في الحكم ليس يجور
فياليت شعري كيف ألقاه عندها وزادى قليل والذنوب كثير
فان أك مجزياً بذنبي فأنى بشر عقاب المذنبين جدير
وان يك عفو منه عنى ورحمة قم نعم دائم وسرور

انتهى باختصار . وانظر معه نفع الطيب ورحلة التجاني

أما نصير الدولة باديس فقد قال ابن خلكان توفى في ذي القعدة سنة ٤٠٦ عقب سرور حصل له عند عرض عساكره عليه وهو في قبة السلام جالس الى وقت الظهر وسره حسن عسكره وأبهجه زيهم وما كانوا عليه وانصرف الى قصره ثم ركب عشية ذلك النهار في أجل مركوب ولعب الجيش بين يديه ثم رجع الى قصره شديد السرور فلما مضى مقدار نصف الليل توفى وفي كتاب الدول المنقطعة ان سبب موته انه قصد طرابلس ولم يزل على قرب منها عازماً على قتالها وحلف ان لا يرحل عنها حتى يعيدها قال فاجتمع أهل البلاد عند ذلك الى المؤدب محرز

وقالوا يا ولي الله قد بلغك ما قاله باديس فادع الله أن يزيل عنا بأسه فرفع يديه الى السماء وقال :
يارب باديس أ كفنا باديس . فهلك في ليلته بالذبحه . انتهى

(قلت) لعل المؤدب محرز كان في تلك الايام بطرابلس والافه من أهل تونس وسكانها
وهي بعيدة عن طرابلس مسيرة نحو عشرة أيام والذي في المؤنس انه توفي بالغرب في قتال
زمانة تأمل . وباديس ووالده وجده مدقهم صبرة وملوك هذا البيت مرت ترجمتهم في التتمة
وكان المعز ابن باديس يعظم الشيخ محرز بن خلف ويكاتبه من ذلك كتاب^ه فأنحته : هذا ظهير
كريم من القائم الناصر لدين الله المعز بن باديس الى الشيخ الصالح الكبير القدر محرز بن خلف
الى آخره وكانت بينه وبين باديس مكاتبات وقد مر قريباً الاشارة الى ذلك وسترى ما يؤيد
ما ذكرناه . انتهى ما قصدناه وتم بفضل الله ما أثبتناه بمد ما استعنت به في الاسعاف والاسعاد
واستعجرت به نعم الجير في المبدأ والمعاد وانجر الحديث وهو شجون يجرب بعضه بعضاً الى الشيخ
محرز نخر الاسلام ومعتقد الخاص والعام فاسب أن نختم هاته الشجرة وختامها مسك بذكر البعض
من فضيلته والرجو من الله الحصول على شيء من بركة من ذكرناه بالشجرة وبركته ومعلوم انه
عند ذكر مثل أولئك السادات تنزل الرحمات والرجو أيضاً انزال رحمته ودوام نعمته واليك
ترجمته ومحرز هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن حنظلة بن اسماعيل بن عبد
الرحمن ابن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وأفاض علينا من أنوارهم وكسانا بعض حلل
أمرارهم الشيخ المعتقد المشهور لدى الخاصة والجمهور بالعلم والعمل والفضل المؤدب الربى العارف
بالله الواصل الولي الكامل الكثير الكرامات والمناقب والحسنات كانت له اليد البيضاء في اعزاز
السنة واخذ البدع مع الدين المتين والزهد والورع نفعه الله بنيته وتعمده برحمته . كان مجلسه
مجلس وعظ مع كرم أخلاق وحلم يقول الشعر ويجيده وكان في ابتداء أمره يسكن بالمرسى لا يألوه
الا أصحابه فلما سكن تونس انبسط للفقراء والفرباء حتى كثر أتباعه فصار منهم من يصفاه ومن
لم يصل اليه فيلتمس أثوابه بيده ويمسح بها على وجهه . أخذ عن واصل بن عبد الله القيرواني
المشهور بالعلم والصلاح وروى عن أبي اسحاق الدينوري وكتب اليه أبو بكر الابهري وروى
عنه حاتم الطرابلسي ومن لا يعد كثرة وكانت وفاته سنة ٤١٣ وقد ناف عن السبعين وضر يجه
بتونس عليه بناء غاية في الاحتفال والدعاء عنده مجرب الاجابة وهو الذي دعا أبا محمد عبد الله
ابن أبي زيد لتأليف ما يجب تعليمه لأبناء المسلمين وأجاب دعوته وألف الرسالة واليه الاشارة في
خطبتها بقوله فانك سألتني الى آخره فأجبتك الى ذلك وفي المدارك جاء بعض طلبته اليه طالباً
منه أن يكتب كتاباً الى باديس يعرف عنه ما هو فيه فأخذ قرطاساً وكتب بسم الله الرحمن الرحيم
حقق الله الحق في قلوب العارفين من عباده ونقل المذنبين الى ما افترض عليهم من طاعته أنا
رجل عرف كثير من الناس اسمي وهذا من البلاء وأنا أسأل الله أن يتغمدني برحمته منه وفضل

وربما أتاني المضطر يسأل الحاجة فان تأخرت خفت وان ساعدت فهذا أشد وقد كتبت اليك في مسألة رجل من الطلبة طوبى بدراهم ظلماً ولا شيء له وحامل رقعتي يشرح اليك ما جرى فعامل فيه من لا بد لك من لقاءه واستح ممن بنعمته وجدت لذيذ العيش واحذر بطانة السوء فانهم انما يريدون دراهمك وشاور في أمرك من يتق الله ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ومن يتق الله يجعل له مخرجا واستعن بالله فان من يتوكل عليه فهو حسبته انتهى . هذا وما قصدت جمعه بهذه الشجرة قد انتهى وبلغت فيه والله الحمد سدرة المنتهى وأدركت الغاية من ذكر سادات مداركهم سامية ومعارفهم راقية وأنفاسهم زاكية روح الله أرواحهم وأسكننا جوارهم في جنة عالية قطوفها دانية لاتسمع فيها لأغنية ونسأله وهو لا تخفى عليه خافية الاخلاص في النية سرا وعلانية وله الحمد باطناً وظاهراً أولاً وآخراً . وصل اللهم وسلم وبارك على أشرف النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وكان الفراغ من ترتيبه وتهذيبه في المحرم سنة ١٣٤٥ ثم وقعت زيادة جعل اقتضاها الحال ونسأله خلوص النية في الاقوال والافعال



استدراك

نظراً لما وقع في الأربعين حديثاً الثنائية المذكورة في المقصد - آخر الطبقة الثالثة - من تحريف ونقص أعيد تحريرها هنا بعد مزيد التحري والاهتمام ، ومقابلتها بنسخ من كتاب الموطأ ، والعمل على نصها هذا ، ولا عمل على ما كتب بآخر الطبقة الثالثة

تذييله

أخذ مالك بن أنس رضي الله عنه عن أعلام من أئمة الدين وهم كثيرون جداً واقتصرنا على ذكر شيوخه المذكورين بالطبقة الثالثة وشيوخ شيوخه المذكورين بالطبقة قبلها لانهم المروى عنهم ثنائيات الموطأ وهي تنيف عن مائة حديث ، وأثبتنا أربعين حديثاً منها هنا تبركا واتباعاً لقوله صلى الله عليه وسلم « من قرأ على أمي أربعين حديثاً كنت له شفيعاً يوم القيامة » وفي رواية « من حفظ على أمي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كما سمعها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » والاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما جاء في صفة النبي صلى الله عليه وسلم

١ - مالك عن ربيعة بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ولا بالجعد الفطيط ولا بالسبط بعثه الله على رأس أربعين سنة فقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء

ما جاء في الرؤيا

٢ - مالك عن اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الانصاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الرؤيا الحسنه من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »

مريت نبع الماء من تحت أصابعه

٣ - وبه أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفانت صلاة العصر فالتمس الناس وضوءاً

فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء في اناء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الاناء يده ثم أمر الناس يتوضون منه . قال أنس : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضوا من عند آخرهم

الترغيب في الصرفة

٤ - وبه أنه سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أ كثر أنصاري بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله بئرحاء . وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس فلما أنزلت هذه الآية ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ وان أحب أموالى إلى بئرحاء وانها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعا يا رسول الله حيث شئت قال : فقال رسول الله ﷺ : بئج ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت فيه وانى ارى أن تجعلها في الاقربين . فقال أبو طلحة افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه

ما جاء في المهاجرة

٥ - مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « لا تبأفضوا ولا تحاسدوا ولا تدأبروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال »

الستر في الشراب ومناوته عن البعير

٦ - وبه أن رسول الله ﷺ أتى ببلن قد شيب بماء وعن يمينه اعرابي وعن يساره أبو بكر فشرب ثم أعطى الاعرابى وقال : الايمن فالايمن

ما جاء في النهى عن تأخير صلاة العصر

٧ - مالك عن الملا بن عبد الرحمن أنه قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر فقام يصلى العصر فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذكرها فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى اذا اصفرت الشمس وكانت بين قرنى الشيطان أو على قرن الشيطان قام فنقرها أربعا لا يدكر الله فيها الا قليلا

ما جاء في الوليمة

٨ - مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف جاء الى رسول

الله ﷺ وبه أمر صفره فسأله رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج فقال رسول الله ﷺ : كم سقت اليها ؟ فقال زنة نواة من ذهب فقال له رسول الله ﷺ : أولم ولو بشاة

ما جاء في الحجامة وإهارة الحمام

٩ - وبه أنه قال : احتجم رسول الله ﷺ حجمة أبو طيبة فأمر له رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراجه

ما جاء في الفزو

١٠ - وبه أن رسول الله ﷺ حين خرج الى خيبر أتاه ليلاً وكان إذا أتى قوماً بايل لم يُفر حتى يُصبح فخرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا محمدٌ والله محمدٌ والخيس فقال رسول الله ﷺ : أ كبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين

قطع التلية

١١ - مالك عن محمد بن أبي بكر الثقفي أنه سأل أنس بن مالك وها غاديان من منى الى عرفة كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ قال كان يهلل المهلل منا فلا ينكر عليه ويكبر المكبر فلا ينكر عليه

ما جاء في تحريم المرية

١٢ - مالك عن عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال هذا جبل يحبنا ونحبه اللهم ان ابراهيم حرم مكة وانى أحرم ما بين لابتيها

ما جاء في وباء المدينة

١٣ - مالك عن نعيم بن عبد الله المجرى عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال

ما جاء في سفر النساء

١٤ - مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لا يحمل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة الا مع ذي محرم منها

في جامع ما جاء في الطعام والشراب

١٥ - مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ

قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليته وضيافته ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يخرج

ما جاء في مكى المدينة والخروج منها

١٦ - مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الاسلام فأصاب الاعرابي وعك بالمدينة فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أقتني بيعتي فأبى رسول الله ﷺ ثم جاءه فقال أقتني بيعتي فأبى ثم جاءه فقال أقتني بيعتي فأبى فخرج الاعرابي فقال رسول الله ﷺ إنما المدينة كالكبير تنفي خبيثها وينصح طيبها (١)

في جامع ما جاء في الطعام والشراب

١٧ - مالك عن أبي الزبير المكي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال أغلقوا الباب وأوكموا السقاء واكفتموا الاناء أو خروا الاناء وأطفئوا المصباح فان الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وكاء ولا يكشف اناء وان الفويسقة تُضرم على الناس بيوتهم

في جامع ما جاء في تمجيل الفطر

١٨ - مالك عن أبي حازم بن دينار عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر

ما يتقى من الشؤم

١٩ - و به أن رسول الله ﷺ قال : ان كان في الفرس والمرأة والمسكن . يعني الشؤم

ما جاء في رؤية الرسول للصوم والفطر

٢٠ - مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له

قرر الصوم من التراء

٢١ - و به أن رسول الله ﷺ قال : ان بلالا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم

(١) قوله ينصح من النصوع المخلص أى يخلص

كيفية زكاة الفطر

٢٢ - مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين

ما جاء في القرآن

٢٣ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت

النهي عن الصلوة عند طلوع الشمس وغروبها

٢٤ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : لا يتحر أحدكم فيصل على عند طلوع الشمس ولا عند غروبها

فضل صلوة الجماعة على صلوة الفرد

٢٥ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة

غسل يوم الجمعة

٢٦ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل

الصلوة في البيت

٢٧ - وبه أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة بن زيد وبلال بن رباح وعثمان ابن طلحة الحبشي فأغلقها عليه ومكث فيها قال عبد الله فسألت بلالا حين خرج ما صنع رسول الله ﷺ فقال : جعل عموداً عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى

مواقب الأهل

٢٨ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : يهل أهل المدينة من ذي الخليفة ويهل أهل الشام من ذي الجحفة ويهل أهل نجد من قرن قال عبد الله بن عمر وبلغني أن رسول الله ﷺ قال ويهل أهل اليمن من يلملم

من جامع الأبحار

٢٩ - وبه أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحاف

بأبيه فقال رسول الله ﷺ ان الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت

ما جاء في التعفف عن المائة

٣٠ - وبه أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة :
اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة

في جامع الجنائز

٣١ - وبه أن عبد الله بن عمر قال ان رسول الله ﷺ قال : ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالعداء والعشى ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وأن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله الى يوم القيامة

تحريم الخمر

٣٢ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب عنها حرمها في الآخرة

ما جاء في الخيل والسابقة بينها

٣٣ - وبه أن رسول الله ﷺ قال : الخيل في نواصيها الخير الى يوم القيامة
٣٤ - وبه أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أضمرت من الحيقاء وكان أمدها ثنية الوداع وسابق بين الخيل التي لم تُضمر من الثنية الى مسجد بني زريق وان عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها

ما جاء في الكلاب

٣٥ - وبه أن رسول الله ﷺ قال من اقتنى إلا كلبا ضاريا أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان (١)

ما جاء في قتل الحيات

٣٦ - مالك عن نافع عن أبي لبابة أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الحيات التي في البيوت

(١) قوله « من اقتنى الا كلباً ضارياً » كذا في رواية يحيى ، وروى غيره : من اقتنى كلباً الا كلباً ضارياً . اي معلماً للصيد متقاداً

بيع الذهب بالورق تيمراً وعيناً

٣٧ - مالك عن نافع عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثلاً بمثل ولا تُشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها شيئاً غائباً بناجز (١)

ما يكره من الكلام بغير ذكر الله

٣٨ - مالك عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر انه قال قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس فقال رسول الله ﷺ ان من البيان لسحراً أو قال ان بعض البيان لسحر

ما جاء في اسباب الرحيل ثوبه

٣٩ - مالك عن نافع وعبد الله بن دينار وزيد بن أسلم كلهم يخبره عن عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من يجر ثوبه خيلاء

ما جاء في الطعام والشراب

٤٠ - مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان قال أتى رسول الله ﷺ بطعام ومعه ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال له رسول الله ﷺ سم الله وكل مما يليك



(١) قوله تشفوا من الاشفاف أي لا تفضلوا

التقاريف

الحمد لله . يقول العبد الفقير الى ربه اللطيف ، محمد مخلوف الشريف : ان من الواجب على اسداء الشكر ، ونشر ألوية الثناء وجميل الذكر ، الى اعلام نهاء ، وأئمة فضلاء ، ممنوا على بتقاريفهم وأنحفوني بعمانيهم الراقية ؛ وأشعارهم الفائقة . واليك ماورد لي من جنابهم ، شكر الله سبحانه ، وأحسن جزاءهم ، فازدان جيد كتابي بما نظموه ، واقترت ثغره بما ثروه ، فمنها ما لحضرة صديقنا الملاطف ، مطرز لطائف المعارف ، بطوارف الطرف واللطائف ، روض الادب الزاهر ، والحسب الباهر ، الشيخ المفتي بالمستير محمود ابن الشيخ المفتي بها أحمد موسى مخلوف الشريف

ظَهَرَ الْكِتَابُ كَأَنَّهُ صَبِيحٌ بَلَجٌ ^(١)	يَا حُسْنَهُ بِمَحَاسِنِ الدُّنْيَا امْتَزَجَ
أَهْدَى صَبَاً نَجْدٍ فَأَنْعَشَ مَدْنَقاً	أَمْسَى وَأَصْبَحَ مِثْلَ مَيْتٍ مَنْدَرَجٍ
وَبَدَا الشُّرُورُ بِهِ فَعَمَّ وَخَصَّنِي	فَكَانَ يَوْمَ ظُهُورِهِ لِي يَوْمٌ حَبِجٌ
هَذَا كِتَابٌ ضَمَّ تَارِيخَ الْأُلَى	قَامَتْ لِمَذْهَبٍ مَالِكٍ بِهِمُ الْحَبِجُ
فَهُمُ الْفَطَّاحِلُ لَا يُشَقُّ ^(٢) غِبَارُهُمْ	وَبِهِمْ إِمَامُهُمُ الْجِجَارِيُّ ابْتَهَجُ
أَنْشَأَهُ نُخْبَةً عَصْرِدٍ قَاضِي الْمَذْنِ	نِيرِ الَّذِي بَدَكَهُ مَلِكُ الْمَهْجِ
الْشَيْخُ مَخْلُوفٌ وَمَا أَذْرَاكَ مَا	حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَلَا حَرَجِ
جَمَعَ الْمَفْرُوقَ وَاعْتَنَى وَأَظْنَهُ	لِسِمَاءٍ تَحْقِيقِ الْحَقَائِقِ قَدْ عَرَجَ ^(٣)
فَأَنَّى بِهِ أَعْجُوبَةٌ فِي بَابِهِ	يَشْفِي الْفُؤَادَ وَيُشْرِحُ الصِّدْرَ الْحَرَجَ ^(٤)
يَشْفِي وَيَكْفِي أَنفِي مَا يَنْتَهُ	فَرَأَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي الضَّمْنِ أَنْدَرَجِ
وَشَى ^(٥) مَقَاصِدَهُ بِيَعُضِ زَوَائِدِ	زَانَتْ عَمِيَاهُ كَمَا زَانَ الرَّجَجِ

(١) بَلَجٌ وَتَبَلَجٌ : أضاء (٢) لَا يُشَقُّ غِبَارُهُمْ : يقال فلان لا يشق غباره أي لا يدرك شأوه وأصله السابق من الخيل (٣) عَرَجَ : ارتقى (٤) الْحَرَجُ : الضيق (٥) وَشَى : زين

جَرَ الحديثُ لها فجاء كأنه
 وبحسنِ آدابِ تَضَوُّعِ نَشْرِهِ (٢)
 قُلْ لِلَّذِينَ تَحَيَّرُوا مِنْ بَعْضِ مَا
 وَتَشَكَّكُوا فِي مَعْضَلَاتِ يَأْهَأْ:
 هَذَا طِرَازٌ لَيْسَ يُدْرِكُ شَأْوَهُ
 لَمْ لَا يَفُوقُ عَلَى سِوَاهُ وَرَبَّهُ
 أَكْبَرَتُهُ وَأَخَذَتْ فِي تَقْرِيطِهِ
 نَمِ ادَّكَّرَتْ فَكَانَ تَنْوِيهِ بِهِ
 لَلَّ نَاسِجٌ بُرْدِهِ كَمْ جَدٌّ فِي
 سَهَرِ اللَّيَالِي بَاحِثًا وَمُفَكِّرًا
 وَلَنَا لَقَدْ أَهْدَى نَتِيجَةَ عُمُرِهِ
 تَفَرُّ الْمَلِيحَةِ زَادَ حُسْنًا بِالْفَلَجِ (١)
 فَكَانَ نَفْحَ الطَّيِّبِ مِنْ ذَاكَ الْأَرْجِ
 وَجَدَّوهُ فِي تِلْكَ الْمَهَامِ (٣) مِنْ عَوْجِ
 قَدْ جَاءَ كَمْ قَوْلُ الْمَبْشَرِ بِالْفَرَجِ
 يُزْرِي بِالْحَانَ الْمَزَاهِرِ وَالْمَهْرَجِ (٤)
 فَاقِ السَّوَى وَالْمَسْكَ بَعْضُ دَمٍ لَزِجِ (٥)
 وَعَلَى أَرْتِجٍ فَانْتِثِثْ كَرْتِجِ (٦)
 مِعْشَارَ مَا فِي بَاطِنِي مِنْهُ اخْتَلَجِ
 تَنْقِيحَهُ لِلَّهِ كَمْ خَاضَ اللَّجَجِ
 وَأَنْبَسَهُ فِيهَا كِتَابٌ مُنْبَلِجِ
 فِي لَحْظَةٍ مِنْ غَيْرِ تَعْوِضِ خَرَجِ

(١) الفلج في الأسنان تباعد ما بين الثنايا والرابعيات (٢) تضوع نشره: ضاع المسك من باب قال تحرك فانتشرت رائحته وتضوع أيضاً وتضيع مثله والنشر بوزن النصر الرائحة الطيبة فعنى تضوع نشره تحركت رائحته الطيبة (٣) المهامه جمع مهمه والمهمه المفازة البعيدة (٤) يزري الازراء الاتهاون بالشئ يقال أزرى به إذا قصر به والمزاهر جمع مزهر بالكسر وهو العود الذي يضرب به والمهزج ضرب من الأغاني له ترنم وصوت مطرب واسم جنس من العروض (٥) لزج سيأتي بيانه (٦) وعلى ارتج: ارتج بالبناء للمفعول وتخفيف الجيم المعجمة يقال ارتج على القارئ إذا لم يقدر على القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب وفي القاموس رتج الباب أغلقه كأرتجه وكفرح استغلق عليه الكلام كارتج عليه. وفي المختار: رنج الباب أغلقه وارتج على القارئ على ما لم يسم فاعله إذا لم يقدر على القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب وكذا ارتج عليه على ما لم يسم فاعله أيضاً. وفي المصباح: ارتجت الباب ارتاجاً أغلقته اغلاقاً وثيقاً ومنه قيل ارتج على القارئ إذا لم يقدر على القراءة كأنه منع منها وهو مبنى للمفعول مخفف وقد قيل ارتج بهمز وصل وتثقل الجيم وبعضهم يمنعها انتهى. وعلى المنع درج في المختار ثم قال صاحب المصباح وربما قيل ارتج بالبناء للمفعول أيضاً ويقال رنج في منطقه رنجاً من باب تعب إذا استغلق عليه والمرتعج المرتعد وفي القاموس ارتعج ارتعد

لا أتتهى لا أزعوى عن مدحه	بالحق أصدع دون شك أو مرج (١)
مالط حق الناس إلا جاهل	يهذى على البسطاء بالقول السميع (٢)
ولقد خشيت بأن أموت ولا يورى	منى له يوماً عبوساً ذا هرج (٣)
يارب هب عمراً طويلاً نجتلي	حرب البسوس به على بعض الهمج
من لا يقره لفاضل بفضيلة	فأنا له أضع المزج (٤) على الودج
أسكنت أهل العلم في ثبج الحشا	وطمنت في أعدائهم طعناً بزج (٥)
وأنا الذي عرف الحقوق لأهلها	ولتلك شنشنتي على طول الأبيج (٦)
ولذلك قرئت الكتاب بغادة	نسي العقول بحسن منظرها البهج
زينتها منه بجم جماله	وجعلت خاء الخال في الخد الضرج (٧)
فإليكم من كامل في كامل	مامثلها في مسمى يوماً ولج (٨)
حق على فعلته ولربه أسديته فـ	البشر عندي مزدوج
ياحضرة الأستاذ إن كتابكم	بلغ النهاية وارتقى أعلى الدرج (٩)
لله درك لأعدمتك صاحباً	يضع الدوا في موضع النقب اللزج (١٠)
برح الخفاء وود كل مؤرخ	لو أنه حاذى نسيبك منذ نسج
ما كان أحسن ما صنعت وحبذا	تاريخك الروض الأريض المقترج
رقت شمائله ورق حديثه	نفع الإله به على مر الحجاج

(١) مرج اختلاط (٢) لط جهد والسمج القبيح (٣) المهرج الوقوع في الفتنة والقتل
(٤) المزج الرمح (٥) ثبج الشيء وسطه والزج الحديدية في أسفل الرمح
(٦) الشنشنة الطبيعة والخلق والابج الأبد (٧) الضرج الشديد الحجرة (٨) ولج يلج : دخل
(٩) الدرج المراقى الواحدة درجة مثل قصب وقصبة (١٠) اللزج لزج الشيء من باب تعب
إذا كان فيه ودك يعلق باليد فهو لزج وفي القاموس لزج كفرح بمدد ومطط انتهى : وقوله يضع
الدوا في موضع النقب معناه يضع الشيء في محله

وجزاك عنه جزاءه سبحانه
 ولك الهناء به كتاباً سامياً
 قرئت به عين الودود وزاد في
 والكون أشرق من ضياء كاله
 تاريخه شمس وعرف ختامه
 ثم الصلاة مع السلام على النبي
 وبجاهه وبجاههم ياربنا
 فمطاؤه هيات تحكيه اللجج
 يحي به من كان في الذوق اندماج^(١)
 كد الحسود فبات يلتقم الحدج^(٢)
 والشمس إن طلعت فاضوء الشرح^(٣)
 مسك تارج نفحه من كل فج
 والآل والأصحاب ما برق رعب^(٤)
 أقل العثار ونج من حر الوهج

ومنها ما لفضيلة العلامة الأديب ، الآتي من سحر البلاغة بكل عجيب . ذى الرأى
 العائب ، والفكر الثاقب . الشيخ محمد بوشارب باش مفتى قفصه والمكلف بقسم الحساب
 بوزارة العدلية :

نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وأعظم سلطانتك ، ونشكرك شكراً يؤذن
 بازدياد برك ويجزى امتنانك . ونسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته
 في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن ترسل
 سعائب صلواتك وتسليمتك ، وسوابغ رحمتك وبركاتك ، على روح سيدنا محمد في
 الأرواح ، وعلى جسده في الأجساد ، وعلى قبره في القبور . ثم على أرواح آل بيته
 الطاهرين ، وأصحابه حماة الدين ، وعلى أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل من رفع
 للعلم رحماً ، وأبدي به لدى الظلماء صبحاً . أما بعد ، فأقول : اقراراً بأيدى ذوى الجذ
 واكباراً لجدوى أولى المجد : انى طالعت الانموذج المحتوى على سبع فرائد من

(١) اندمج في الشيء دخل فيه وتستر به وفي القاموس دمج دمجاً دخل في الشيء
 واستحكم فيه كأندمج (٢) الحدج الخنظل (٣) السرج جمع سراج وهو المصباح
 ككتاب وكتب (٤) رعب في القاموس ورعب ماله كسمع كثر وكنعم أقلق كارعج
 والبرق تتابع . انتهى

الكتاب القيم الذي ألفه حديثاً أستاذ المحققين ، ومن تلفوا راية العلم باليمين . عين أعيان قطره ، ونخر قضاة عصره . أبو الفضل اللولى محمد بن محمد مخلوف المنستيرى أدام الاله حفظه ، وأجزل من المثوبة حظه . فألفيته بجرأ طامياً وقف الكاتبون بساحله وكوكباً هادياً قصرت أيدي المؤرخين عن تناوله . لا جرم أنه أنهل فاروى ، وجمع فأوعى . ولقى من الشعب ، ما يلقي الحبيب من الحب . وحل من ذوى الفضل عملاً لم يكن حل من قبل . فرأيت - على ما أنا عليه من الشغل المحتدم ، والفكر الغير المنتظم - أن أعلق عليه بالأبيات الآتية تنويهاً بشأن جماله ، واطراءً لواضعه بذكر البعض من خصاله . فقلت :

يصون عتيق المجد متقد العزم	ويحمى حمى الاسلاف مستكمل الخزم
ويلغى بآثار الدين تقدموا	أخو همه ترمى الى قمة النجم
أصبل معالى النفس أكبر هممه	مسابقة الاقران فى حلبة العلم
ألا قل لمن خص النهوض بمن مضوا	وأعلن أن الجد مخلوق الرسم
رويدك ما هـذا الغلو فانه	من الخطأ المحض التسرع بالحكم
فكم فى الروايا من خبايا اباحت	وكم من بقايا فى أساندة اليوم
قفن بحمى نخر القضاة محمد	أبى الفضل مخلوف تجدد أيمانهم
يريك مثال الجد فى طلب العلا	وساطع نور الفكر فى الاعصر الدم
وتشهد أن العلم ما زال شاغلا	لاهل النهى عن كل ذى شرف وهمى
همام رأى أن استمالة شـعبه	لاحياتهم نخر الجدود من الحتم
وآنس فى التاريخ أعظم كافـل	بنيل المنى فانساب فى ذلك اليم
وخاض به تلك المخاطر تاركاً	بساحله من كان مستضعف العزم
وآب وقد حازت يده فرائدا	تراوت لنا فى سلك مختصر نغم
كتاب جلا نهج الاوائل وانطوى	على حبيب أختت على لد الخضم

حوى من سراة الدين كل سميدع
وبات به مفتى المدينة آمناً
فلا عجب ان حلّ من كل ناظر
وذاد عن الأوساط نومة ذاهل
تطلع من أفق الاجادة فانبرى
وصار حديث القوم في كل منتدى
واصبح بين النـماقدين وبينه
أبا الفضل ان عز الثناء بما يفي
قضى الله أن يلقى صنيعك فوق ما
كتبت فألهمت الشيبية رشدها
وأحييت ذكرى الغابرين من الألى
وجئت بوضع سابغ النفع لم تزل
تبارك من أوحى اليك بصنعه

أقرّ له بالفضل متسع الفهم
على المذهب السامى البناء من الثم
اليه حلول البر، من صاحب السقم
وسورة أيام حزن الى العظم
اليه بفرط المدح ذوالادب الجم
يقدر حق القدر جدوى أولى العزم
من البعد ما بين الاباطح والعصم
بحقك فالاغضاء شأن أخى الحلم
نود من الاطراء بالثر والنظم
وقمت لوجه الله بالواجب القومى
بهم بلغ الاسـلام مبلغه العلمى
بفضلك بين الناس أنباؤه تنمى
وخصك بالابداع فى البدء والختم

ومنها ما جادت به قريحة شمس المعارف ، وملع بروز الامرار واللطائف . الغنى بنفسه
الطاهر عن التعريف ، شيخنا عبد الحى الكتانى الشريف منديلا بأجازة عامة ، مرت الاشارة
اليها بالمقصد ومحل الحاجة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه * الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين
اصطفى . أما بعد ، فقد وقفت على هذا المدون الجامع ، والتاريخ الذى يتدفق افادة بلا
مدافع . فشكرت سعى مؤلفه العالم التحرير ، وهمة جامعه الدراكة البدر المنير . ولعمري
ان الاعتناء يجمع تراجم أعيان الملة ، وفضلاء الامة . لمن المتعين على الخلف ، قياما ببعض
ما يجب لرجال السلف . فهم آباؤنا فى الدين ، والوسائط بيننا وبين سيد المرسلين . فحفظ
آثارهم يعين على الاقتداء بمنهجهم . ولذا ورد أن من أرخ مؤمنا فكأنما أحياه وذلك لان

باحياء ذكره وهمه يقوى الانبعاث على الاقتداء بهداه . فنعم السفر المسطور ، والعمل
المبرور . فما على المؤلف حفظه الله تعالى بعد التعب ، وطويل النصب ، الا إذاعة هذه
المجموعة ، وعدم ابقائها عن الاستفادة ممنوعة . فان الخير النافع يجري مجرى المياه في
تعميمها ووقوع الحياة بها من غير مدافع . وبما تحقق لي من فضل المؤلف وبراعته وسموّ
مداركه وحسن سمعته قلت اجابة لمطلبه واسمافا لرغبته : أجزت العلامة القاضي المؤرخ
الاديب محمد بن محمد مخلوف انتهى محل الحاجة

ومما جادت به قريحة فضيلة شيخى بالاجازة العلامة النظار كريم النجار الشيخ سيدي بلحسن
النجار المفتي المالكي بقطر افريقية حفظه الله وشكره
نحمد الله ونشكره ، ونصلي على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاة طيبة مباركة ، ونسلم
تسليما .

أما بعد ؛ فان همم عظماء الرجال تتجلى في آثارهم ، وتبين من اخلاصهم في عمائمهم
وان تأليفك الجليل ، وصنعك الجميل المسمى « شجرة النور الزكية في طبقات المالكية »
قد تمثلت فيه نفسك العالية ، ومعارفك الفياضة ، واخلاصك السامي في أجلى المظاهر
وأجملها .

طالعته فوجدت منه معلمة في رجال المذهب المالكي ، من أحسن ما أخرج
للناس من كتب الفهارس والتراجم والطبقات في أسلوب مبتكر ولفظ منسجم
بيّنت فيه ، أيديك الله تعالى ، تاريخ انتشار المذهب المالكي وحلقات اتصال الخلف
بالسلف طبقة فطبقة ، ودورا فدورا ، وهو مع ذلك تاريخ متسع لقسم عظيم من علماء
المسلمين وأئمتهم :

ان سعة اطلاعك ، واتقان ضبطك ، ورجاحة تحريرك ، واحسانك الى قومك .
تدعو الى الاعجاب بك . وتعيد فينا ذكريات سلفنا الصالح وما لهم من احاطة وعناية
وانقطاع للصالح العام . فشكرا لك شكرا

كتبه فقير به

بلحسن النجار الشريف

٢٧ جادى الآخرة سنة ١٣٥٠

خادم العلم بجامعة الزيتونة لطف الله به

فهرس

التتمة والخاتمة

التتمة في فتوحات الخلفاء الراشدين

وفي طبقات أمراء إفريقية والسلاطين

تمهيد به بيان وجه ربط طبقات التتمة بطبقات المقصد وبيان فضيلة العلم والعلماء وفضيلة الملوك والامراء	٢
فائدة في تقسيم الفضائل	٧
الطبعة الاولى	
ذكر من أرسل رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وان القرآن فيه بيان كل شيء الجامع لكل فضيلة الناهي عن كل رذيلة لقوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ ولقوله تعالى ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم ﴾	٧
الكلام على القانون الشرعي والقانون الوضعي	٩
صلة بها أن القرآن هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة مع الابانة عن فضل المعنى الذي به	١١
باين سائر الكلام	
أشهر معجزاته ﷺ القرآن وما فرط القرآن في شيء من الآداب	١٢
جرت عادة الله أن أوامره لا تخلو من حكمة	١٣
جوهره في كون القرآن نزل بلغة العرب	١٣
فريدة في أنه ﷺ بعث رحمة للعالمين وان صفة العبودية في القرآن هي مدح له ﷺ	١٤
خلاصة في العلوم التي تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته	١٦
فضيلة الخطابة في الجاهلية والاسلام	١٨
فصل في الوازع والحرية	١٩
البشارة بالسعادة	٢٠
النذارة بالشقاوة	٢٠

صفحة	
٢١	خلاصة فيما حصل لرسول الله ﷺ وهو بمكة عند ما أعلن بالرسالة وما حصل لمن آمن به
٢٣	وظيفة الرسل تبليغ الشرائع وتقريرها على وجه يجمع اليه شملهم ويتكفل بسعادتهم
٢٤	أول آية نزلت في الاذن بالقتال قوله تعالى ﴿ اذن للذين يقاتلون ﴾ الآية
٢٤	خطبته عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع
٢٥	ذكر مرضه ﷺ ووفاته
٢٦	الحالة الاجتماعية على عهد عليه الصلاة والسلام
	الطبقة الثانية
	طبقة الصحابة رضی الله عنهم
٢٨	فضائل أصحاب النبي ﷺ
٢٩	شرح قوله عليه الصلاة والسلام « ان الله لا يجمع أمتي على ضلالة »
٣١	فصل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ونبذة من فضائله
٣٣	تعريف البيعة
٣٣	خطبته لما استقرت بيده الخلافة
٣٤	انفاذه جيش امامة
٣٥	فصل في الكلام على أهل الردة
٣٦	عقد الالوية لقتال أهل الردة
٣٧	جغرافية جزيرة العرب
٣٧	التفاته لفتوحات بعد اخضاعه أهل الردة
٣٨	أول ما التفت اليه فتح العراق العربي
٣٨	التفاته بعد فتح العراق لفتح الشام وعقد الالوية وتسيير الجيوش
٣٩	وصيته ليزيد بن أبي سفيان عند تسيير تلك الجيوش
٤٠	الفتوحات التي حصلت لتلك الجيوش
٤١	فصل كان أبو بكر كثيراً ما يعمل بما يشير به عليه علي رضي الله عنهما وكان من العلم بقوانين الشريعة والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا يطاولها صماء
٤١	من مناقبه الكريمة ومآثره العظيمة جمه القرآن العظيم
٤٢	مرضه ووصيته بالخلافة لعمري رضي الله عنهما وكتب له عهداً في ذلك
٤٢	خطبة علي في تأييد أبي بكر
٤٣	﴿ تفييه ﴾ ثبت عن علي ما يفيد صحة خلافة أبي بكر وعليه الاتفاق من أئمة السنن والجماعة
٤٣	الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر

صفحة	موضوع
٤٤	خلافة عمر رضي الله عنه ونبذة من سيرته
٤٧	فتوح الشام
٤٨	فتح دمشق وغيرها من المدن والقري وذكر القواد الذين حضروا هذا الفتح
٤٩	جغرافية سوريا
٤٩	اقتدابه لفتح العراق العجمي وفارس
٥١	وصيته لسعد بن أبي وقاص عند تسييره الجيوش المنتدبة
٥١	فتح القادسية والمدائن والاهواز وغيرها وأخذ الهرمزان أسيرا
٥٣	تدوينه ملك الروم وفارس والاخلاق التي كان عليها والكلام على الهرمزان المذكور
٥٣	فتح الجزيرة وقاعدتها الموصل
٥٤	مصر وبرقة وطرابلس المغرب
٥٥	تنبه على أن العرب أمة حربية لها معرفة بأساليب القتال وتعبئة الجيوش
٥٦	كيفية تعبئة الجيوش عند فتح اليرموك والقادسية
٥٨	أوليائه : منها كتابة التاريخ الهجري وتدوين الدواوين وفرض العطاء
٥٩	ومنها اتخاذ دار الدقيق ، وضرب النقود ، وقيام شهر رمضان ، وجمع الناس لصلاة الجنائز والجلد في الحر ثمانين ، ووضع البريد ، وتصير الامصار ، واقامة الجسور ، والطرق ، وحفر الترغ ، وارشاد الضال
٦٠	قضاؤه و كتابه في القضاء لابي موسى الاشعري
٦١	نبذة من فضائله
٦٢	استشهاده
٦٣	وصيته لمن يخلفه
٦٤	الحالة الاجتماعية على عهده
٦٥	خلافة عثمان رضي الله عنه والشورى ونبذة من فضائله ومقتله والحالة الاجتماعية على عهده
٧١	خلافة علي بن أبي طالب ونبذة من فضائله والفتنة التي حصلت في مدته واستشهاده
٧٢	الكلام على الفتنة المذكورة
٧٣	خلاصة ما عليه أهل السنة في الفتنة المذكورة
	فضائل الستة بقية المشركين بالبصرة رضي الله عنهم
٧٤	أبو عبيدة عامر بن الجراح
٧٥	عبد الرحمن بن عوف
٧٥	طلحة بن عبيد الله القرشي

	صحيفة
الزبير بن العوام	٧٥
سعيد بن زيد	٧٦
سعد بن أبي وقاص	٧٦
ذكر البعض من أعيان علماء وأمراد الصحابة الفاتحين الذين قاموا بنصرة الدين	
ونشر الدعوة والنصح للمسلمين رضي الله عنهم	
حمزة بن عبد المطلب	٧٧
أخوه العباس	٧٨
جعفر بن أبي طالب	٧٨
زيد بن حارثة	٧٩
عبد الله بن رواحة	٧٩
خالد بن الوليد	٨٠
خالد بن سعيد	٨١
سالم مولى أبي حذيفة	٨١
معاذ بن جبل	٨١
يزيد بن أبي سفيان	٨٢
أبي بن كعب	٨٢
(الكلام على القراء الأربعة)	
عبد الله بن مسعود	٨٢
أبو ذر الغفاري	٨٣
المقداد بن الأسود	٨٤
عبادة بن الصامت	٨٤
أبو الدرداء	٨٤
حذيفة بن اليمان	٨٤
سلمان الفارسي	٨٥
عمار بن ياسر	٨٥
عمرو بن العاص	٨٦
زيد بن ثابت	٨٧
سعيد بن العاص	٨٨

	صفحة
أبو موسى الأشعري	٨٨
الحسن والحسين	٨٩
أسامة بن زيد	٨٩
عبد الله بن سعد بن أبي سرح	٩٥
معاوية بن أبي سفيان	٩٥
مسلمة بن مخلد	٩٥
مروان بن الحكم	٩١
عبد الله بن العباس وشقيقه عبيد الله	٩١
عبد الله بن عمرو بن العاص	٩٢
عبد الله بن الزبير	٩٢
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وقد مر ذكر بعض أعيان الصحابة في صدر المقصد	٩٣
الفتوحات الإسلامية امتدت واتسعت بالجهات الشرقية والغربية بواسطة الصحابة ثم التابعين	٩٣
الفتوحات الآتية ذكرها هي في الجهة الغربية فقط	٩٤
أول أمير تأمر على جيوش أفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعهد من الخليفة	٩٤
الثالث وغزاهها ومعه جماعة من أعيان الصحابة	
ثم معاوية بن حديج بعهد من الخليفة معاوية بن أبي سفيان وغزاهها ومعه جماعة من	٩٥
أعيان الصحابة	
ثم عقبة بن نافع ومعه جماعة من الصحابة ثم مسلمة بن مخلد بواسطة مولاة أبي المهاجر ثم	٩٦
رجوع عقبة بن نافع	
ذكر جماعة من الصحابة دخلوا أفريقية	٩٧
جغرافية أفريقية الشمالية الغربية	١٠١
الكلام على قرطاجنة	١٠١
أفريقية تراوحتها قبل الإسلام أول أربع وبعبارة عنها بالاطوار الأربعة	
الأول دولة قرطاجنة	١٠٣
الثاني دولة الرومان	١٠٣
الثالث دولة الوندال	١٠٤
الرابع البرفطيون	١٠٤
الكلام على نسب البربر وهم ينقسمون إلى شعوب وقبائل وهم من أعظم الأجيال	١٠٥
وأعزها ولهم فخر لا يجمل وذكر لا يهمل	

صجيفة	
١٠٦	الطبقة الثالثة طبقة التابعين رضى الله عنهم
١٠٧	ولاية زهير بن قيس البلوى بعهد من عبد الملك بن مروان
١٠٧	ولاية حسان بن النعمان بعهد من عبد الملك المذكور ثم ولاية موسى بن نصير بعهد من الوليد بن عبد الملك
١٠٨	ولاية محمد بن يزيد ثم اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ثم يزيد بن أبي مسلم ثم بشر بن صفوان ثم عبيدة بن عبد الرحمن ثم عبد الله بن الحجاب ثم كلثوم بن عياض ثم حنظلة بن صفوان ثم تغلب عبد الرحمن بن حبيب على افريقية
١١٠	خلاصة فيما حصل مدة الدولة الاموية
١١٠	الطبقة الرابعة وفيها ظهر مذهب مالك رضى الله عنه
١١٠	ذكر اقراض دولة بني أمية واستقرار دولة بني العباس واستقلال الاندلس بعد ان كان نظر الخلفاء منسحباً عليه
١١٠	ولاية محمد بن الاشعث الخزاعي بعهد من الخليفة المنصور العباسى وتوجيه ابن الاشعث لافريقية أبا الاحوص البجلي ثم توجه لها بنفسه ثم ولاية الاغلب بن سالم ثم عمر المهلبى ثم يزيد بن حاتم المهلبى ثم ابنه داود ثم روح المهلبى ثم نصر المهلبى ثم الفضل بن روح ثم هرثمة بن أعين ثم محمد بن مقاتل
	الكلام على افريقية زمنه العباسية
١١٢	ذكر سيرة الملوك الذين أتوا بعد الخلفاء الراشدين من بني أمية وبني العباس
١١٢	نظر هؤلاء الخلفاء كان منسحباً على المغرب حين كان أمر الخلافة متحداً وحكماً مجتمعاً وكنها نافذة ثم صار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجتباع الى التفرقة
١١٥	ذكر ما وصلت اليه بغداد في عهد العباسية
١١٦	ذكر الشوكة التي استعملها المصدر الاول من خلفاء بني العباس في تزكية العقول وبث سائر العلوم والفنون وتنمية المعاش وترويج التجارة
	الطبقة الخامسة
١١٨	ولاية ابراهيم بن الاغلب ثم ابنه أبي العباس عبد الله ثم زيادة الله بن ابراهيم ثم أخيه أبي عقاب الاغلب وذكر الحوادث التي وقعت في مدتهم منها الدعوة التي قام بها ادريس العلوى مؤسس قاس

صبيحة

- ١١٨) ولاية أبي محرز محمد بن عبد الله الكناني قضاء القيروان بمشاركة أسد بن الفرات
١١٩) ذكر الاحتفال الواقع لاسد بن الفرات حين توجه بصقلية وهو أمير الجيش وقاضيه

الطبقة السادسة

- ١٢٠) ولاية أبي العباس محمد ثم ابن أخيه أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الاغلب ثم زيادة الله
ابن أحمد بن محمد ثم أخيه أبي الغرائيق محمد ثم أخيه إبراهيم ثم ابنه أبي العباس
عبد الله ثم ابنه زيادة الله وهو آخر ملوك هذه الدولة ولم ذكر جميل وفتوحات
بصقلية وغيرها وفي أيامهم استقل المغرب الاقصى
١٢١) أمراء افريقية من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم كانوا على السداجة همهم الجهاد وبث
الدعوة وحفظ ما فتحوه واقامة العدل ، وجرى على منوالهم بنو الاغلب وفي
أيامهم وقع تقدم في احياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وغير ذلك
بافريقية وصقلية

الطبقة السابعة

- ١٢٢) ولاية عبيد الله المهدي الشيعي ثم ابنه أبي القاسم ثم ابنه المنصور أبي الطاهر اسماعيل ثم
ابنه المعز وما لهم من الفتوحات بصقلية وغيرها ولم حروب مع الثائرين منهم
مخلد بن كيداد واستيلاء المعز على مصر وغيرها بواسطة وزيره جوهر وتأسيسه
القاهرة والازهر ورحلة المعز لمصر واستقلاله بالملك هناك ومن صاحبه في رحلته
الشاعر الملقب أبو القاسم محمد بن هاني الاندلسي وتوفي بالطريق

الطبقة الثامنة

- ١٢٣) استخلاف المعز المذكور على المغرب يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي ثم توفي وبويع
لابنه أبي الفتوح منصور ثم لابنه أبي مناد باديس
١٢٤) ﴿ تنبيه ﴾ بنو عبيد كان اشتغالهم بالحروب وبث الدعوة في الاقطار والزيادة في المملكة
وعملهم من ملوك صنهاجة مثلهم وقانون الملك الاسلامي القرآن العظيم وسنة
النبي الكريم وكان لهم النفات للعلماء وقعظيم وكانوا يلاقون من شدة العلماء
عليهم ما يتعجبون به مرارته

- ١٢٥) فصل به خلاصة ما حصل بالاندلس من تاريخ استيلاء عبد الرحمن الاموي عليه وعقبه
من بعده الى انقراض دولتهم أوائل المائة الخامسة وفي أيامهم استفحل الاندلس
واستبحر بالعلوم والمعارف والصنائع وغيرها كالطب مع عمران زاهر وعمد بن باهر

الطبقة التاسعة

- ١٢٨) ولاية المعز بن باديس وحمله الناس على التمسك بذهب مالك وقطع ما هداه حسباً لمادة

- صفحة
- ١٢٩ الخلاف بالمذاهب وذكر الحوادث التي وقعت في مدته وغالبها مواسم بواسم ثم في أواخرها آلت الى محن وكوارث وأحزان أدت الى خراب القيروان الكلام على ما وصلت اليه افريقية وبالمخصوص القيروان من الحضارة والتمدن والعمران والاستبحار في العلوم والمعارف والصناعات وغيرها
- الطبقة العاشرة
- ١٣٢ ولاية تميم بن المرز واستيلاء جباره على سوسة والعدو على صقلية وذكر الآثار الحسنة التي خلدها الاسلام بها مدة الاحتلال
- الطبقة الحادية عشر
- ١٣٣ ولاية يحيى بن تميم ثم ابنه على ثم ابنه الحسن وهو آخر ملوك هاته الدولة
- ١٣٤ استيلاء صاحب صقلية على جربة وصفاقس وقرقنه وطرابلس ثم على المهدي
- ١٣٤ قنوم الامير عبد المؤمن بن علي من مرا كشر بجيوشه لافريقية واستيلاؤه على المهدي وغيرها من مدن افريقية وهو أول ملوك الدولة الموحدية التي أسسها مهديهم محمد بن تومرت
- الطبقة الثانية عشر
- ١٣٧ ذكر أمراء افريقية الذين تولوا من قبل عبد المؤمن المذكور ومن جاء بعدهم من ملوك هذه الدولة
- الطبقة الثالثة عشر
- ١٣٨ ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص المقتاني ثم ابنه أبي يزيد ثم ادريس من بني عبد المؤمن ثم ابنه أبي يزيد ثم عبد الله بن عبد الواحد المذكور ثم أخيه أبي زكرياء وهو الذي وافقه بيعة أهل الاندلس وغيرها واتسع بذلك نطاق سلطانه وفي مدته أخذ العلم والتعلم في التتقم
- ١٣٩ فصل به خلاصة الكلام على الأندلس من أوائل المائة الخامسة الى عهد أبي زكرياء المذكور والكلام على حالتها الاقتصادية والسياسية وتقدمها في العلوم والمعارف وغير ذلك حتى ظهر بذلك تحمك التمدن العربي المنتسج ونشأ عن ذلك العمران الزاهر ثم ضعف أمر الخلافة وصارت الممالك بيد ملوك كثيرة وتغلب العدو على غالب الاندلس
- ١٤٣ الكلام على غرناطة التي انحاز اليها المسلمون بعد تغلب العدو على غالب الاندلس
- الطبقة الرابعة عشر
- ١٤٤ ولاية محمد المنتصر بن أبي زكرياء ووفود بيعة أهل مكة اليه قبلت بذلك دولته شاو

العظمة ثم ولاية ابنه يحيى الواثق ثم عمه اسحق ثم ادعى أحمد بن مرزوق المسيلي
ثم عمر أخى أبي اسحق ثم أبي زكرياء بن أبي اسحق ثم أبي عصيد بن
الواثق بإشارة من معتقده الشيخ أبي محمد المرجاني

١٤٥

الطبقة الخامسة عشر

ولاية أبي بكر الشهيد ثم خالد بن أبي زكرياء ثم أبي يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني ثم
ابنه أبي ضربة محمد ثم أبي بكر بن أبي زكرياء ثم ابنه أبي حفص وفي مدته
وصل افريقية سلطان المغرب أبو الحسن المريني في أسطول فحم وجيش عورم
ومعه جماعة من أعيان العلماء واستقام أمره بافريقية ثم دارت عليه الدوائر
ورجع للمغرب بعد تكبد مصائب وفي مدة اقامته بتونس كان وباء جارف
واستقل بأمر افريقية بعده أبو العباس الفضل بن أبي بكر

١٤٦

﴿ تنبيه ﴾ به الاشارة الى الفضائل التي لبعض هؤلاء الامراء والردائل التي ارتكبها بعضهم

١٤٧

الطبقة السادسة عشر

ولاية أبي اسحق بن أبي بكر ثم ابنه أبي البقاء خالد ثم ابنه أبي العباس احمد بن محمد بن
أبي بكر وهو من مفاخرهاته الدولة

١٤٨

الطبقة السابعة عشر

ولاية أبي فارس بن أبي العباس المذكور ومن حسناته الكتب التي جعلها بجامع الزيتونة
ومنها تعظيم المولد الشريف وشأن العلم والعلماء ثم ولاية حفيده محمد بن
المنصور بن أبي فارس

١٤٩

الطبقة الثامنة عشر

ولاية أبي عمر وعثمان بن محمد بن المنصور وهو آخر رجالهاته الدولة له مآثر جليلة
منها خزائن الكتب التي جعلها بالمقصورة الشريفة من جامع الزيتونة وعلى
عهده كان وباء جارف بافريقية

١٤٩

فصل فيه استيلاء الاسبان على بقية الاندلس غرناطة وغيرها وحل بالمسلمين البلاد العظمى

١٥٠

صحيفة
بعد هذا الاستيلاء منها اعدام جميع آثار المسلمين والامر باحراق عثمانين
الف كتاب بطرقات غرناطة وبسبب ذلك هاجر منها الكثير الى افريقية
الشالية ثم أكره الباقي على التنصر أو الخروج
٧٥١

الطبقة التاسعة عشر

١٥١ ولاية أبي زكرياء يحيى بن محمد بن المسعود بن عثمان ثم عمه عبد المؤمن ثم رجوع ابي
زكرياء المذكور ثم محمد بن الحسن بن محمد المسعود ومن مآثره جمع كتبه
كثيرة وجعلها بمقصورة بجامع الزيتونة، وهي المعروفة الآن بالعبدلية.
ثم ولاية ابنه الحسن ثم ولاية خير الدين باشا وخطب للسلطان العثماني وكان
من رجال الدنيا والآخرة ثم الحسن المذكور باعانة الاسبان بعد حروب
ومصائب وأهوال في أخبار طوال

١٥٢ ﴿تفسيه﴾ بانتهاء المائة للتاسعة أخذ العلم بتونس القهري بعد ان كانت سوقه نائمة في
دولة أبي عمرو عثمان وحسن بعده والعلماء كثيرون ثم آل الامر الى انقطاع الخبر
عن العلم والعلماء لما دم افريقية من القن والمصائب ورحل بسببها العلماء
والفضلاء الى مصر وغانس وتلسان وغيرها

الطبقة العشرون

١٥٣ ولاية أبي العباس بن الحسن واستعانة الحسن على ابنه المذكور بالاسبان ثم ولاية علي باشا
والى الجزائر بعد فرار أبي العباس واستنجاهه بالاسبان واجابته لطلبه على
شروط لم يقبلها وقبلها أخوه محمد وبأثر ذلك دخل الاسبان تونس وقامه
مقاومة الغالب للمغلوب واشتد الخطب بالعتو والفساد بما تقشع منه الجلود
في خبر طويل الذيل ثم احتلتها العساكر العثمانية وأميرها سنان باشا وهلك
محمد المذكور وبهلا كه اقترضت دولة بني أبي حفص

١٥٥ خلاصة فيما كان عليه ملوك بني حفص وما لهم من المآثر وسيرتهم مع العلماء وكيفية
تنفيذ الاحكام الشرعية وذكور خزائن الكتب التي كانت بجامع الزيتونة

الطبقة الحادية والعشرون

١٥٦ الترتيب التي وضعها سنان باشا بعد استقرار جيش الاحتلال، ثم ولاية عثمان دايا وعلی

- صحة
- عنده كان قدوم الامم الجالية من الاندلس الى افريقية ثم ولاية صهره يوسف دايا وولاية مراد باشا
- ١٥٧ الكلام على العلم والعلماء وَاخِرُ الدَّوْلَةِ الحفصية وَاوْثُلُ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ وَعَلَى القضاة الذين يأتون من تركيا وكيفية تنفيذ الاحكام الشرعية
- الطبقة الثانية والعشرون
- ١٥٨ ولاية حموده باشا بن مراد باشا وماله من المآثر ثم ابنه مراد باشا ثم تداول الولاية ابناه محمد وعلي وعمها محمد الحفصي واستقرت أخيراً بيد محمد أحد الاخوين بعد حروب مع أخيه وعمه ومحمد بن شكر في أخبار طويلة القيل
- الطبقة الثالثة والعشرون
- ١٦٠ ولاية رمضان باي واستبداد مغنیه مزهود وسوء سيرته مع العلماء وغيرهم ثم ابن أخيه مراد بن علي باي وسوء سيرته وسفكه الدماء ثم هلك وبهلا كه انقرضت دولة بني مراد ثم ولاية ابراهيم الشريف
- ١٦٢ الكلام على ما يطلب من الامير والرعية وان توفرت المطالب استقام الحال وإلا فلا والكلام على العدل والظلم
- ١٦٣ ولاية حسين بن علي تركي باني الملك الحسيني وماله من المآثر وذكر الحوادث التي وقعت في أيامه منها ما وقع بينه وبين ابن أخيه الباشا علي
- الطبقة الرابعة والعشرون
- ١٦٤ ولاية علي باشا وماله من المآثر والحوادث التي وقعت في مدته منها ما وقع له مع أبنائه وأبناء عمه حسين ثم ولاية ابن عمه محمد بن حسين ثم أخيه علي وما لهما من المآثر
- الطبقة الخامسة والعشرون
- ١٦٧ ولاية حموده باشا ابن علي باشا وماله من المآثر
- ١٦٨ ذكر الوزير يوسف صاحب الطابع مؤسس الجامع الحنفي بالحلطاوين
- ١٦٨ وفاة حموده باشا وولاية أخيه عثمان ثم ولاية ابن عمه محمود باشا بن محمد باشا بن حسين باشا
- ١٦٩ الكلام على البكرتينية

١٧٠	ذكر من تولى دايا بالمخاضرة من عهد الاحتلال التركي الى سنة ١٢٥٨
	الطبقة السابعة والعشرون
١٧٣	ولاية مصطفى باشا ابن محمود باشا ثم ولاية ابنه المشير احمد باشا ثم ابن عمه المشير محمد ابن حسين باشا ثم ولاية أخيه المشير محمد الصادق باشا وذكر الحوادث التي وقعت في مدته منها ثورة بن غزام ومنها نصب فرانسوا حمايتها على تونس وذكر القوانين التي أحدثها هؤلاء الامراء
	الطبقة السابعة والعشرون
١٧٨	ولاية علي باشا ابن حسين باشا ثم ابنه محمد الهادي باشا ثم ابن عمه محمد الناصر ابن المشير محمد باشا ثم ولاية محمد الحبيب باشا ثم ابن عمه المولى احمد باشا باي الامير في هذا الزمان ادام الله هاته الدولة ما يجدد الجديدان
١٨١	خلاصة الادوار التي حصلت لدول أفريقية في الاسلام وقبله
١٨٢	الكلام على ما قيل في طاعة الملوك
١٨٢	الكلام على أن الدولة قد تسعد بشخص وتشقى بآخر
١٨٣	أسماء الكتب التي اقتطف منها ما جمع بكتاب الشجرة
١٨٥	جغرافية إيالة تونس
١٨٩	خاتمة في الكلام على فضيلة المنستير
١٩١	الكلام على القصر الكبير بالمنستير وترجمة عبد الله البكري
١٩٥	جغرافية مدينة المنستير وما بها من السكان وعوائلهم ومن أقبر بها وبالقصر والمقبرة من الامراء والعلماء والفضلاء ومنهم الامام ابن يونس والامام المازري والكاتبين وابن الحداد وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز وباديس وابنه العزيز ووالده السيدة وبقية ملوك هاته الدولة
٢٠٢	ترجمة أبي محفوظ محرز بن خلف
٢٠٤	اعادة تحرير الاربعين الثنائية بعد مزيد التحرري
٢١١	التقاريف
٢١٨	فهرس التتمة والخاتمة

الخطأ والصواب

صواب	خطأ	الخطأ	الخطأ	صواب	خطأ	الخطأ	الخطأ
وأجرهما	وأجرهما	١٧	٧٥	الجراحات	الجراحات	١٢	٤
صوت السلاح	صوت السلام	٧	٧٧	هناك	هناك	١٣	٦
العبدى	العيسى	٢٢	٨٤	المول	والمول	٢٤	٦
العيسى	العيسى	٢٣	٨٥	وبسط	وبسط	٢٩	٦
من الراغبين	من الراغبين	٢٦	٨٧	وتدفع	وترقع	٥	٩
وغزوه	وغزوة	٧	٩٠	الحتاج للامام ان	الحتاج ان	٢٢	١٠
ازكي	أذكي	١٥	٩٣	تقيه	تقيه	٤	١٢
مراوة	مقراوة	١٧	٩٦	يهتدى البصير	يهتدى النصير	١٣	١٣
الصفة	الصفة	٢٣	٩٩	ما الكتاب	ما لكتاب	٧	١٥
سنة ٧٤	سنة ٧٧	٢	١٠٠	دون	ذرو	١٤	١٥
وقته	وقته	٢٤	١٠٠	أو غيرهم	أو غيرهم	٢٣	١٧
تافيلات	تافيلات	٩	١٠١	أمراً	أمراً	١٩	١٩
٨٨٠	٨٨	٧	١٠٣	بقيدين	بقيد	١٩	١٩
ديدون	ديرون	٧	١٠٣	تتحرك	تترك	٢٦	١٩
تغالى قرطاجنة	تغالى في قرطاجنة	١٥	١٠٣	ويينه	ويين	٢٠	٢٢
واورقة	وأورقة	٢٤	١٠٥	المصلوفين	المصدقين	٢٦	٢٢
وعضدت	وعقرت	١٤	١٠٧	فيتوب	فيتوب	٤	٢٣
سكنى كل أمير	سكن كل أمير	٨	١٠٩	في الاخيار	في الاخبار	٧	٢٣
تناطح	تناوى	٦	١١٥	وصية في أكثر	وصية أكثر	١٦	٢٥
بانه	فانه	٢٤	١١٦	ان من أمن	ان من آمن الناس	٤	٢٦
ان	انى	٥	١١٩	الوصف	المذهب	١١	٢٩
خيرى الدنيا	خير الدنيا	٢٠	١١٩	الحسين	الحسن	٦	٣٠
المتبع	المتبوع	٢٦	١١٩	بجاهد	بجاهد	١٥	٣٥
سنة ٣٢٣	سنة ٣١٣	٢٣	١٢٢	التواضع	الواضع	١١	٣٦
السيامى	السأى	٦	١٢٣	هية	عصية	١٧	٣٧
سنة ٣٥٧	سنة ٣٥٨	١٤	١٢٣	الامصار	والامصار	٢٨	٣٧
أهالى المهدي	أهالى على المهدي	٢٧	١٢٣	يعوث	يعوث	١١	٣٨
سنة ٣٧٢	سنة ٣٧٣	٦	١٢٤	يمن	فن	٦	٣٩
المعروف بالرفيق	المعروف بان الرفيق	١٢	١٢٤	وطرفه	وطرفه	٦	٤٠
مدته	موته	٢٧	١٢٥	تطاولها	يطاؤها	١١	٤١
اليها	اليه	١٥	١٢٦	يريد	يريد	٢٩	٤٢
ومناقبه	ومناقبه	١٨	١٣٠	يجزم	يجزم	٧	٤٣
السورى	السيورى	٥	١٣٢	رضى الله عنه تقم	رضى الله تقم	٢٥	٤٤
فدمر	فرمى	١١	١٣٤	لن	لن	٢	٤٧
اتنى عشر	اتنا عشر	٢٢	١٣٤	صوغان	صوغان	٩	٤٧
الكوي	الكوى	٢٥	١٣٤	ناواكم	ناواكم	١٣	٥٥
وقابس	وقاس	٢٨	١٣٤	مددا	مردا	١١	٥٦
الكوي	الكوى	١	١٣٥	جليها	جليها	٢	٦٢
ناقعة	ناقعة	٢	١٣٩	البدار بنوه	البدار - بزوه	١١	٦٤
ما فتاح	ما فتاح	٢٢	١٤٤	نمرات	نمرات	٢١	٦٥
البنوي	البنوى	٢٠	١٥٢	ان يدفن	ان يرفق	١	٦٦
اقباله	افعاله	٦	١٥٥	ان يدفن	ان يرفق	٢	٦٦
وأبو فارس	وأبو العباس	٢٣	١٥٥	فسكت	فأسكت	٢٢	٦٦
بجملته واقضت له حجة	بجملته واقضت له حجة	٢١	١٥٩	وتوفى أسباب	وتوفى أسباب	٧	٧٠
الداى	الراى	٢٣	١٥٩	على الراجح	على الراجح	٥	٧١
بجملته	بجملته	٢٥	١٥٩	غيره	غيره	٧	٧١
حجة - حجة أخرى	حجة - له حجة أخرى	٢٧	١٥٩	فينا	منبثا	١٠	٧٢
وبينه	وبينه	١٣	١٦١	فتناقه	فتناقه	١٢	٧٥

